نصوص متوحشة

التكفير من أرثوذكسية السلاجقة إلى سلفية ابن تيمية

علي أحمد الديري



مكتبة الفكر الجديد



نصوص متوحشة

التكفير من أرثوذكسية السلاجقة
إلى سلفية ابن تيمية



اسم الكتاب: نصوص متوحشة: التكفير من أرثوذكسية السلاجقة إلى سلفية ابن تيمية

اسم المؤلف: علي أحمد الديري

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي البحريني عباس يوسف

الطبعة الأولى، بيروت يوليو/ تمّوز 2015

www.awalcentre.com | info@awalcentre.com

978-9953-0-3308-2

نصوص متوحشة

التكفير من أرثوذكسية السلاجقة
إلى سلفية ابن تيمية

علي أحمد الديري

الفهرس

المقدمة	**9**
تمهيد	**13**
مدخل: التكفير بين رجل الدولة ورجل الملة	**23**
الفصل الأول: الغزالي والتكفير السلجوقي	**33**
1. سياسة التكفير السلجوقية	35
2. الغزالي والتكفير على الباطن.	50
3. توحش أحكام التكفير	77
4. اقتصاد التكفير	86
الفصل الثاني: ابن تومرت ونصوص التوحش الموحدية	**103**
1. خريج مدرسة التكفير النظامية	105
2. التوحيد والتوحش ولذة الجهاد	110
3. أعز ما يطلب من التكفير	117
الفصل الثالث: ابن تيمية والتكفير المملوكي	**129**
1. التكفير بين رجل الملة ورجل الدولة	139
2. تمثيل السلف بين الأشعرية والحنبلية	143
3. لاءات الصفات والتأويل والتكفير	152
4. التكفير المطلق والتكفير المعين	180
قائمة المصادر والمراجع	**193**
فهرس الموضوعات	**199**

إهداء

إليك

أنت التي لا يمضي هواك

يا دوحة الأرز وسط مستنقع الكفر

المقدمة

كما لا توجد جريمة من غير مجرم ولا فساد من غير مفسد، فإنه لا يوجد توحش من غير وحش، والوحش هو هذه النصوص ومدارسها التي تبيح القتل وتأمر بالقتل من دون رادع نقدي، أو قراءة تاريخية أو قطيعة معرفية.

في هذا الكتاب أحاول قراءة نصوص التكفير قراءة تاريخية في ثلاث بيئات سياسية استخدمت التكفير ضد أعدائها، بيئة السلطة السلجوقية (القرن الخامس الهجري) من خلال نصوص الغزالي، وبيئة سلطة الموحدين (القرن السادس الهجري) من خلال نصوص ابن تومرت، وبيئة سلطة المماليك (القرن الثامن الهجري) من خلال نصوص ابن تيمية.

لماذا نفتح نصوص التوحش في تراثنا الآن؟ لأن هناك «وحشًا» يسرق وجوهنا، باسم الدين والخلافة الإسلامية والمدارس الإسلامية، والأئمة الإسلاميين. يعتبرنا هذا الوحش أعداء يجب قتلهم وسبيهم، وينظر إلى ممارساته هذه كعبادة كما سائر العبادات، من حيث كون التكفير شعيرة دينية.

لقد أجاب الفيلسوف المسلم (عبد النور بيدار) إجابة دقيقة عن هذا السؤال في خطابه الصادم الذي وجهه للعالم الإسلامي: «رسالة مفتوحة إلى العالم الإسلامي».



يقول في ختامها: «وإذا كنت تريد أن تعرف كيف لا تنجب مستقبلًا مثل هذه الوحوش، فسأقول لك إنّ الأمر بسيط وصعب في الوقت نفسه. لا بدّ أن تبدأ بإصلاح التعليم الذي تعطيه أطفالك برمّته، أن تصلح كلّ مدرسة من مدارسك، وجميع أمكنة المعرفة والسلطة.. هذه وسيلتك الوحيدة كي لا تُنجب مثل هذه الوحوش، ... وحين انتهائك من هذه المهمّة الضخمة ... فإنّه لا يمكن لأيّ وحش حقير أن يأتي لسرقة وجهك»[1].

مع الأسف، حاضرنا ينتج مثل هذه الوحوش ومستقبلنا يعد بها، وماضينا ما زال هو نفسه حاضرنا ومستقبلنا، ما زال ابن تيمية يُدرّس نصوصه في أمكنة المعرفة (المدارس والجامعات) في عالمنا الإسلامي، وفي أمكنة السلطة يعقد ابن تيمية تحالفاته، حتى صارت كتب فتاويه دستورًا يحكم وفقها ملوك السلطة وولاة الأمر، والجماعات القاتلة.

وجوهنا مسروقة ومشوهة وقاسية وقبيحة بسبب هذا الوحش، لن تجدي معنا عمليات التجميل والترقيع، ولن تتمكن شركات العلاقات العامة مهما ملكت من أساطين الإعلام وأساطيره، من تحسين صورة وجوهنا الكالحة، لا بدّ من قتل الوحش وتفكيك أدواته الفتّاكة بنا.

ذهبت إلى نصوص التوحش لأفكك متفجرات[2] هذا الوحش العابرة

---

(1) عبد النور بيدار، رسالة مفتوحة إلى العالم الإسلامي، ترجمة: محمد الحاج سالم، موقع الأوان. http://s.v22v.net/pSiH

(2) يقول محقق كتاب ابن تيمية (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) «أما بعد؛ فهذا الكتاب قنبلة من أقوى ما ألقى شيخ الإسلام على حزب الشيطان من قنابل الحق والهدى، ص13

للزمان والمكان، في هذه الرحلة سمعت أصوات فتاويه في جبال كسروان (1303م)، كما سمعتها وهي تدوي في القديح (2015) في مسجد الإمام علي بن أبي طالب، وسمعتها (2015) في مسجد العنود بالدمام، والبقية تنتظر.

علي الديري

بيروت، 31 مايو/ أيار 2015

تمهيد

من المفارقات الطريفة أنه في الأول من فبراير/شباط 2015 وأنا أشتغل على نصوص هذا الكتاب تفاجأت، بصورتي إلى جنب صورة الإرهابي تركي البنعلي منظِّر داعش الشرعي في الصحف الرسمية تحت عنوان «إسقاط الجنسية عن 72 مواطنًا»[1] أحسست فعلاً أنه الوحش الذي يريد سرقة وجهي، برسم السلطة البحرينية[2]. هو أحد صناع التوحش، وهو أحد مشرعيه، وهو أحد مروجيه، وأحد باعثي نصوص التوحش من قبرها. تريد

---

(1) أسقطت الجنسية وفق المرسوم الملكي رقم 8 لسنة 2015، وقد جاء مرسوم إسقاط الجنسية البحرينية عن 72 شخصًا وبحسب بيان وزارة الداخلية بسبب قيامهم «بأفعال تسببت في الإضرار بمصالح المملكة، والتصرف بما يناقض واجب الولاء لها.. في إطار الإجراءات التي تتخذها وزارة الداخلية للحفاظ على الأمن والاستقرار ومكافحة المخاطر والتهديدات الإرهابية، ونظرًا لقيام بعض المواطنين بأفعال تسببت في الإضرار بمصالح المملكة، والتصرف بما يناقض واجب الولاء لها».

(2) انظر: كتاب (داعش بيننا) الصادر عن صحيفة مرآة البحرين، وهو تحقيق استقصائي يرصد عمليات التواطؤ بين الحكومة البحرينية والجماعات المتشددة التي تقاتل في الخارج. كما يرصد التحوّل النوعي في تكتيكات الجماعات السلفية المحلية بعد إعلان البحرين انخراطها في الجهد الدولي لمحاربة الإرهاب. كما يتطرّق إلى بوادر انقسام التيار الجهادي في البحرين تبعًا لانقسام الحركة الجهادية العالمية إثر صعود تنظيم «داعش». ويتوصل التحقيق إلى أن كل تفريعات السلفية في البحرين، على الرغم من خلافاتها البيّنة، قد تورّطت في دعم «الجهاد» الخارجي في العراق وسوريا، وأن ذلك تمّ تحت رعاية السلطات. وأن حيثيّات هذا التورّط والدعم معلنة.



السلطة أن تسرق وجهي الذي يصرخ في وجه استبدادها، بمساواتي بتركي البنعلي، وضعتني معه في قائمة إرهاب واحدة، حين جهر بخروجه على إدارتها المباشرة (الخروج على ولي الأمر).

ليس لدى السلطة مشكلة مع التكفير، طالما هو ممارسة تطبق على مكون ليس من مكونات عقيدتها الدينية الرسمية، لكنه يصبح مشكلة حين يصبح ولي الأمر ضمن دائرة التكفير. حين يجاهر حملة هذا الخطاب بكفر الحاكم(1).

إن نصوص تركي تتداول في البحرين، وهي مادة مرجعية لتربية جيل لا يؤمن بفكرة الدولة والمواطنة، لقد تخرج تركي في البحرين، وهو قد تربى في البيئة التي تدرس هذه النصوص وتحتفي بها، لقد خرج تركي من البحرين، لكنه ترك فيها نصوصه، وهي تتداول وتعطي ما فيها من توحش.

على سبيل المثال، تطبع مديرية الإرشاد بوزارة الدفاع البحرينية

---

(1) في 28 سبتمبر/ أيلول 2014، في رسالة مصورة وجه أربعة من المتشددين البحرينيين المقاتلين في صفوف تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» في العراق، رسالة إلى أهل السنة في البحرين، طالبوهم فيها بمقاطعة رموز الحكم الذين وصفوهم بـ «الطواغيت» واعتزالهم، ودعوا المنتسبين إلى الشرطة في البحرين إلى التوبة، وأن يكون قدوتهم «ركب التائبين قادات الموحدين كأبي عمر البغدادي وأبي حفص المصري وأبي سفيان الأزدي».
وقال الضابط السابق بوزارة الداخلية محمد البنعلي، المعروف بكنيته «أبو عيسى السلمي» متكئًا على نصوص التوحش نفسها «إن حمد عيسى طاغوت كافر ورئيس وزرائه وولي عهده وحكومتهم»، معتبرًا أنهم «يكفرون من باب تشريعهم مع الله ما لم يأذن به، ويكفرون من باب طاعتهم للمشرّعين، ويكفرون من باب توليهم الكفار الأصليين والمرتدّين، ويكفرون من باب الامتناع عن الشرائع واستحلال الحرام، ويكفرون من باب الاستهزاء بالدين والترخيص للمستهزئين وحمايتهم».

على نفقتها وباسمها كتاب «نور التوحيد وظلمات الشرك في ضوء الكتاب والسنة» وأمثاله من الكتب التي تقع ضمن كتب تركي البنعلي التكفيرية، يحوي هذا الكتاب مضامين تكفيرية، يكفّر الطائفة الشيعية والإسماعيلية والنصيرية والدروز، ويمثل واحدًا من الكتب التي يتم توزيعها على منتسبي قوة الدفاع البحرينية.

إني أضع تركي البنعلي مدخلًا لقراءة نصوص التوحش، لأنه يمثل أحد المنظرين الشرعيين اليوم لخطاب داعش، وهو الناطق الحي بهذه النصوص الميتة في تراثنا. المواطنة البحرينية التي تجمعني بتركي تجعله موضوعًا قريبا ومثيرًا، غير أنها مواطنة هشة، هي تبدو مواطنة متساوية، فالمواطنة التي تجمعنا جعلتنا نواجه مصيرًا مشتركًا هو الموت المعنوي إذ أسقطت جنسيته وجنسيتي في اليوم نفسه وفي قائمة القرار الحكومي نفسه.

نصوص تركي البنعلي

لقد قلت إنها تبدو متساوية، غير أنها ليست كذلك أبدًا، فأنا محكوم بالموت المعنوي لأني استخدمت الكلمة ضد استبداد السلطة، وتركي يهدد البحرين بجيش داعش، أنا أهددها بكلمة جادة، وهو يهددها بجيش جديته تصل للتوحش. الفرق الآخر الذي يجعل هذه المواطنة هشة ولا تحمل معنى حقيقيًا، هو أنها لا تعصمني من الموت الحقيقي على يد من هو شريكي فيها، فنصوص تركي تبيح قتلي لأني رافضي[1].

---

(1) في الرسالة المصورة نفسها التي وجهها أربعة من المتشددين البحرينيين من الذين يجدون في تركي البنعلي مشرعًا لهم. يقول «قسورة البحريني» تحت هذا الاسم المستعار، والذي خصّص كلمته للتحذير من شيعة البحرين، باعتبارهم كفارًا رافضة كما تصفهم نصوص =

في بداية الحراك البحريني ضمن موجة الربيع العربي، كتب تركي البنعلي «إرشاد الأسود الرابضة، فيما إذا اقتتل الحكام والرافضة» وهي رسالة ترشيدية، كما يقول، لشباب المنهج الحق في الدول التي يحتمل أن تنشب فيها معارك بين الحكام المرتدين والرافضة المجرمين. كان تركي يعد جيشه العقائدي منذ فترة مبكرة، على قاعدة التكفير: الحكام مرتدون والشيعة رافضة مجرمون، لو أن تركي لم يجهر بارتداد الحكام، لكان الآن قد التحق بأبيه في الجيش البحريني، يحمل رتبة متقدمة فيه، ويقدم دروسًا معمقة في تكفير مواطنيه المختلفين معه في العقيدة.

أنا معني بنصوص التوحش، لأني أريد أن أفهم النظام الذي يضعني مع تركي البنعلي في قائمة واحدة، حين أرجع إلى النصوص التي تركتها في وطني بعد خروجي منه، أجدها نصوصًا تحتفي بقيم التسامح والمدنية وتقبل الآخر وتدفع باتجاه بناء المواطنة ونقد الفكر الديني المنغلق، وحين أرجع لنصوص تركي البنعلي، أجدها نصوصًا تحتفي بالتكفير والقتل، ليس ضمنيًا بل بشكل صارخ في عناوينها[1]:

شرح شروط وموانع التكفير، تصنيف التصنيف: رسالة مختصرة في بيان سنية تقصير الثياب إلى نصف الساق، الأقوال المهدية إلى العمليات الاستشهادية، مختصر المقال في مشروعية توفير الشعر للرجال، السلسبيل في قلة سالكي السبيل.

= التوحش، إن «الرافضة لا يستوون معكم يا أهل السنة. الرافضي كافر فكيف ترضون يا أهل السنة أن يكون هؤلاء شركاءكم في الشركات والمؤسسات والتجارات، بل ويكونوا رؤساء عليكم، ولطالما نادى رافضة البحرين بقولهم: بالعلم والولد نحكم البلد، فهم لن يقر لهم قرار حتى يحكموكم ويتسلطوا على رقابكم».

(1) تتوافر كتب تركي البنعلي جميعها على شبكة الانترنت، وتباع في بعض مكتبات البحرين،

التكفير في كتب (تركي)عبادة كما الصلاة والصيام عبادة «تكفير الكافرين عبادة من العبادات كسائر العبادات، لذلك لا يصح بحال أن يوصف قوم بأنهم من التكفيريين. تقول: «التكفيريون»، كأنك تقول: «المصلون»، كأنك تقول: «الحاجون»، كأنك تقول «المجاهدون» إلى غير ذلك. فهذا الوصف بالتكفيريين أو بالجهاديين أو بالمصلين أو بالمعتمرين إلى غير ذلك، إنما تصفهم بعبادة من العبادات ولا يصح ذلك بحال»[1].

التكفير إذن عبادة كسائر العبادات من حيث هو شعيرة دينية، لكنه ليس مثلها من الناحية الاجتماعية والسياسية. فالتكفير يحدد من هو العدو الذي ستدخل في صراع سياسي واجتماعي معه[2]. أما سائر العبادات فهي تحدد هويتك الدينية، يحرص خطاب التوحش التكفيري

---

(1) تركي البنعلي، شرح شروط وموانع التكفير، ص11-12.

(2) أصدرت جمعية الأصالة البحرينية (جمعية سلفية موالية للحكومة) في 30مارس/آذار2015 بيانًا تحت عنوان (التأصيل الشرعي لعاصفة الحزم) وقد وقع البيان معها مجموعة من الجمعيات الموالية المتنوعة النشاط، البيان الذي أخذ مساحة صفحة إعلانية كاملة في جريدة (الوطن) المحسوبة على الديوان الملكي، يؤصل البيان للحرب على اليمن تأصيلًا يستعير أدوات ومصطلحات نصوص التوحش، ويحيل الحرب السياسية إلى حرب دينية، كما توضحها هذه الاقتباسات: قتال الحوثيين داخل في باب القيام بواجب الجهاد قمعًا لأهل الظلم والفساد، ولما اشتملت عليه أحوالهم من الفساد والإفساد، ومعاداتهم للإسلام وأهله، وتحالفهم مع أعداء الدين وخروجهم على أولياء أمور المسلمين، فكل هذا وغيره مما يوجب جهادهم.كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين... وهذه الغزوة (عاصفة الحزم) هي قومة صادقة من القادة والحكام وأصحاب القرار السياسي والفقه الشرعي الديني، من الذين اتفقت كلمتهم في حوادث نادرة في تاريخنا المعاصر على مشروعية قتال الحوثيين دفاعًا عن ثوابت الأديان ومصالح الأوطان. ويختتم البيان بالإشادة بمشاركة ملك البحرين في هذه الحرب والدعاء له.

على تبيين هذا الفرق تبيينًا واضحًا «لا يوجد من يعاديك لأجل صلاتك، صيامك، حجك، عمرتك، لأنه ليس هذا المحك... إنما يترِّبون عليك في هذا المحك الذي هو من قبيل الولاء والبراءة»[1].

كيف تكون البراءة؟ يجيبنا تركي البنعلي: إن أسمى صور البراءة تكفير الكافرين وجهاد الكافرين. والتكفير حكم شرعي كما قال ابن تيمية «فالإسلام والكفر محلهما الشرع» وهذا يعني أن الحاكم الشرعي ليس له أن يعفو عن الكافر أو أن يترك البراءة منه فالتكفير ليس من حقه الشرعي إنما هو حق شرعي لله وللرسول.

إن نصوص التوحش تمارس وظيفتها باعتبارها تمارس عبادة شرعية، لا يمكنها التهاون في أدائها كما لا يمكنها التهاون في أداء الصلاة، وهذا ما يجعل من التكفير ممارسة دينية لا يمكن تركها، ولا يمكن توقيفها كما لا يمكن توقيف الصلاة. النص المتوحش يسعى لامتلاك السلطة التي تمكنه من أداء هذه الفريضة.

التكفير موضوع سياسي

من هنا يجب قراءة النص المتوحش في سياقه السياسي أي سياق اقترانه بالسلطة أو سياق سعيه لامتلاك السلطة. إن السلطة هي التي تملك قوة الأمر وقوة التنفيذ والخطورة تكمن في أن تكون نصوص التوحش برسم السلطة. أسعى في هذا المجال إلى قراءة نصوص التوحش ليس كاجتهادات فقهية أو عقائدية بل كمشاريع سياسية أو

---

(1) تركي البنعلي، شرح شروط وموانع التكفير، ص10،

مرتبطة بالسياسية، كما هو الأمر مع كتاب الغزالي (فضائح الباطنية) الذي كتبه برسم السياسة السلجوقية في حربها ضد الفاطميين.

والتكفير هنا، ليس موضوعًا يحدد دائرة الإيمان، كما هو الأمر في أي دين أو مذهب، حين يريد أن يعرف نفسه، من نحن؟ ومن الآخرون؟[1] بل هو موضوع في خطاب الجهاديين، يحدد من هو العدو؟ من هو الذي يجب أن نحاربه ونقتله؟

الإيمان ممارسة وعمل وليس مجرد عقيدة، وكذلك التكفير ليس مجرد معتقد، بل هو عبادة في خطابهم، تستدعي ممارسة.

يستعيد تركي البنعلي في كتابه (شروط التكفير) مقولة محمد ابن عبدالوهاب «إنما عودينا لأجل التكفير والقتال»[2] التكفير والقتال يحددان دائرة العداوة، وهما موضوع مائز، لذلك عرفوا بالتكفيريين، كما العدل كان الموضوع المائز للمعتزلة والشيعة، فسموا بالعدلية، والإمامة كذلك موضوعا مائزًا للشيعة الاثني عشرية، فعرفوا بالإمامية، وقس على ذلك المرجئة والقدرية.

---

(1) يلفتنا الباحث الأنثروبولوجي المرحوم فؤاد الخوري، أنّه ما من دين أو طائفة أو ملّة أو فرقة إلّا وتعتقد أنّ الله عزّ وجلّ قد خصّها برسالة مميزة أو ميثاق مميّز، وأنّه في سبيل ذلك فهو يقف إلى جانبها يشدّ أزرها ويعمل على انتصارها بطريقة أو بأخرى. كلّ الأديان «شعوب مختارة»، وإلّا لما بقي المؤمنون على إيمانهم، ويوضح «الفرق بين هذه الطوائف والأديان يقع في طبيعة وكيفية الاستجابة للدعوة الإلهية وفي التنظيم الديني الّذي يكفل ويؤمّن هذه الاستجابة. فكما يستجيب أهل السنّة عن طريق بناء الدولة المركزية أو الخلافة الّتي تعمل على إنفاذ دين الله وشرعه في المجتمع البشري ويليهم في ذلك الزيود والإباضيون عن طريق بناء «مدينة الإمام» أو المدينة الدينية، تعمل الشيعة الاثنا عشرية على الاستعداد الدائم عن طريق «الحركة الدائمة والثورة» لتقبل النظام الإلهي الآتي بانتظار الإمام وعودته» إمامة الشهيد وإمامة البطل، فؤاد إسحاق خوري، ص165-166.

(2) انظر: تركي البنعلي، شرح شروط وموانع التكفير، ص10.

التكفير بهذا المفهوم صار حقلًا يستدعي العدواة والقتال، أي إنه صار حقلًا للتوحش، وممارسة التكفير تصبح بهذا المعنى (إدارة للتوحش)[1]وهو عنوان أشهر كتاب في أدبيات التكفيريين الحديثة.

مفهوم التوحش

يحيل موضوع التوحش إلى عالم الحيوان، حيث لا مكان لعقل يتحكم بغريزة. وتوحش الإنسان يتحقق بفقدانه لعقله فيغدو مسيَّرًا بالغريزة. وبالعادة الغرائز تضيق بالآخر وتتسع للأنا، فيها الأنانية والعنف. ما أقصده بالتوحش، هو حالة فقدان الإنسانية التي من أهم سماتها العقلانية، لصالح سيطرة الحالة الغريزية المحكومة بالغضب والاستحواذ.

يلفتنا الفيلسوف سلوترداك في كتابه (بنك الغضب) إلى أن طاقة الغضب التي في الإنسان وما يرتبط بها من دوافع أولية مثل الفخر والاعتزاز والانتقام والحسد والغيرة والتنافس، هي عرضة للاستثمار، عبر الخطابات التي تفجرها.

والنصوص المتوحشة، هي النصوص التي تفجر هذه الدوافع، ولا تعترف بالآخر، وتنظر إليه دون مستوى الإنسانية، ولا تكتفي بتكفيره بل توجب قتله، فهي نصوص غرائزية وتكفيرية وتقتيلية.

---

(1) إدارة التوحش لأبي بكر ناجي، كتاب يشرح فكر واستراتيجية تنظيم القاعدة. التوحش، كلمة استعملها المؤلف ويقصد بها تلك الحالة من الفوضى التي ستدب في أوصال دولة ما أو منطقة بعينها إذا ما زالت عنها قبضة السلطات الحاكمة. ويعتقد المؤلف أن هذه الحالة من الفوضى ستكون «متوحشة» وسيعاني منها السكان المحليون، لذلك وجب على القاعدة -التي ستحل محل السلطات الحاكمة تمهيدًا لإقامة الدولة الإسلامية- أن تحسن «إدارة التوحش» إلى أن تستقر الأمور، وذلك عبر إقامة إمارة تطبق الشرع وترعى مصالح الناس فيها من طعام وعلاج، في حين تتولى القيادة العليا (المركزية) التنسيق بين تلك المناطق وترتيب الأولويات.

الظروف التي تمر بها المنطقة العربية والإسلامية، وظواهر التطرف والتكفير، تحيلنا إلى مراجعة التراث الإسلامي، للبحث عن الأسباب المغذية لهذه النصوص التي لا تنضح بالكراهية فحسب، بل بإعطاء المبررات الدينية للقتل، إنها تخلع شرعية دينية على فعل القتل.

في العام 2000، قدم الأكاديمي السعودي معجب الزهراني[1] قراءة نقدية لكتاب أبي حامد الغزالي (التبر المسبوك في نصيحة الملوك)، وكان عنوان المقاربة النقدية: «فكر التوحش». وما قصده الزهراني بالتوحش هنا، هو النظرة للمرأة على أنها دون مستوى الإنسانية المكتملة كما هو الأمر عند الرجل. وانتقد وضع الغزالي للمرأة في عشرة أنماط حيوانية سلبية، مثل: نمط الغنمة المباركة. سيبدو وصف الزهراني لفكر الغزالي المتعلق بالمرأة بـ(الفكر المتوحش) مجازًا، قياسًا بنصوص الغزالي التي سأفككها في هذا الكتاب، تجعل من وصف التوحش حقيقة، بل تجعل منه مصدرًا لصياغة واقع حقيقي ممعن في التوحش[2].

---

(1) من الطريف أنه وأنا في هذه اللحظات منشغل بكتابة نصوص هذا الكتاب، أقرأ ما حدث للصديق الدكتور معجب الزهراني، الأستاذ بجامعة الملك سعود، الذي أوحى لي بعنوان هذا الكتاب، فقد كان في القاعة الكبرى في معرض الرياض الدولي للكتاب، يتحدث عن «الشباب والفنون.. دعوة للتعايش»، إذ تدخل بعض المحتسبين واعترض على انتقاد المحاضر لما تعرضت له آثار الدول العربية من تدمير على يد بعض المتطرفين في إشارة منه إلى ما قام به أعضاء تنظيم داعش الإرهابي في العراق، واحتج المحتسب بأن الرسول(ص) حطم الأصنام عند دخوله مكة المكرمة، وأن تحطيم هذه الآثار واجب على كل مسلم.

(2) في دراسته لكتاب الغزالي (التبر المسبوك في نصيحة الملوك) للفصل المتعلق بالمرأة يلفتنا الدكتور معجب الزهراني إلى خطورة نص الغزالي، ولو قدر له أن يدرس كتابه (فضائح الباطنية) لوجد خطورة هذا النص بالنسبة للإنسان وليس المرأة فقط، وهذا ما نحاول دراسته في هذا الكتاب. يقول الزهراني «إن أخطر أنواع المرجعيات، هو ما أسميه بالذاكرة المطمورة للنصوص، والذاكرة المطمورة هي التي تميل إلى ثقافات نسيت، وتتم =

وقريب من مفهوم التوحش ما تناوله تزفيتان تودوروف، المفكر البلغاري-الفرنسي، الذي عانى من توحش النظام الشيوعي في موطنه بلغاريا. تحدث عن «الخوف من البرابرة»، ووصف البربرية بأنها حالة نفي الإنسانية عن الآخر. ونبّه إلى أن «الخوف من البرابرة هو الذي يُخشى أن يحولنا إلى برابرة»، ليصبح مبررًا لارتكاب الجرائم باسم حماية الإنسان لنفسه أو لمن يحب، لذلك دعا تودوروف إلى تفكيك النصوص البربرية الغربية.

= استعادتها بطرق معينة، وتأخذ أشكالًا خطيرة، وأخطرها من وجهة نظري ما يحوله بعض المفكرين أمثال الغزالي إلى خطاب يحتمي بإطار يتحول إلى مسألة فقهية دينية بحكم أهمية صاحبه، ومكانته لدى الناس كرجل دين، هنا تكمن خطورة استعادة صور هذا الفكر، وهذه من المواضع الأساسية التي ركزت عليها في قراءتي لنص الغزالي» حوار مع د. معجب الزهراني، جريدة اليوم السعودية.

http://s.v22v.net/6lP

مدخل: التكفير بين رجل الدولة ورجل الملة

الفرضية التي ننطلق منها في هذه الدراسة، يمكن صياغتها في هذه الجملة المختصرة: الوحش يكمن في (أرثوذكسية السنة السلجوقية) هذا هو الوحش الذي يسرق وجوهنا[1].

نحاول عبر هذه الفرضية تفسير السياق التاريخي والسياسي الذي مكّن نصوص التوحش من أن يكون لها شرعيتها الدينية ومكنها من تثبيت أطروحاتها ضمن الحس الإسلامي العام، كيف صار التكفير موضوعًا سياسيًا، يشرعنه الفقهاء (رجل الملة) ضمن أجهزة الخلافة الإسلامية (رجل الدولة)[2].

تربط هذه الفرضية نصوص التوحش بحركة السلاجقة ووصولهم إلى بغداد (447 هـ/ 1055م) وهذا الربط لا يعني أن التكفير موضوع استجد

(1) استعارة الوحش من رسالة عبد النور بيدار، رسالة مفتوحة إلى العالم الإسلامي، ترجمة: محمد الحاج سالم، موقع الأوان. http://s.v22v.net/pSiH

(2) في معركة (شقحب) في 1303م بين المماليك بقيادة السلطان الناصر بن قلاوون والمغول، كان لابن تيمية الفضل في تشجيع الناس والشد على عزيمة الحكام وجمع الأموال، كان أول الواصلين إلى دمشق يبشر الناس بنصر المسلمين، ولما أحس بخوف السلطان من أن يستغل حب الناس له فيثور عليه قال: «أنا رجل ملة لا رجل دولة». سيمتد الدور الذي لعبه ابن تيمية مع رجل الدولة، إلى قتال الشيعة في جبال كسروان بلبنان باعتبارهم كفارًا مرتدين عن الإسلام، هكذا ستكون الفتوى دومًا في خدمة رجل الدولة للتخلص من أعدائه ومعارضيه.

في القرن الخامس الهجري، فالأمر يعود إلى القرن الأول الهجري، لكن هذه الفترة المبكرة ليست ضمن نطاق اهتمام هذه الدراسة، من جانب ومن جانب آخر، نظن أن التكفير صار سياسة ممنهجة ضمن إدارة الدولة ومصالحها، في القرن الخامس الهجري، وأعني بالسياسة الممنهجة هنا أنه صار جزءًا من سياسة الدولة واستراتيجيتها أو تدبيرها حسب تعبير (الماوردي) مؤلف الآداب السلطانية وسفير الخليفة العباسي للسلاجقة قُبيل دخولهم بغداد، وهذا ما أثبته منظر السياسة السلجوقية نظام الملك في كتابه (سياسة نامه) الذي اعتبر دستورًا للدولة السلجوقية.

هذا لا يعني أن السلاجقة اخترعوا التكفير، أو المعنى الأحادي لمفهوم سنة النبي، فقبل أن يدخلوا إلى بغداد كان هناك المعتقد القادري[1] الذي هو النموذج الرسمي المقنن للمعتقد الصحيح لسنة النبي[2]، ففي سنة 408هـ /1017م يقول ابن الأثير: «استتاب القادر بالله المعتزلة والشيعة

(1) يؤسس بعضهم على هذا المعتقد، دليلاً على أن عقيدة أهل السنة والجماعة واحدة، وأن المذاهب هي تنويعات فقهية لا عقدية «ألف هذا الاعتقاد أبو أحمد الكرجي، وكتبه القادر بالله، وكلاهما شافعيان، وهذا يؤكد أن عقيدة أهل السنة والجماعة مقررة عند الأئمة من الحنفية والمالكية، والشافعية، والحنابلة، فليست هذه العقيدة مختصة بالحنابلة فحسب. يقول ابن تيمية: « قال بعض شيوخ المغاربة - العلماء الصلحاء -: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد بن حنبل يعني أن الذي كان عليه أحمد عليه جميع أئمة الإسلام، وإن كان لبعضهم من زيادة العلم والبيان، وإظهار الحق، ودفع الباطل ما ليس لبعض» الاعتقاد القادري دراسة وتعليق، عبدالعزيز عبد اللطيف، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، العدد39، ص252.

(2) يفتتح نص الاعتقاد القادري على هذا النحو: « إن هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد فسق وكفر، وهو: يجب على الإنسان أن يعلم أن الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، وهو أول لم يزل، وآخر لا يزال، قادر على كل شيء» الاعتقاد القادري للخليفة العباسي القادر بالله، إخراج وترتيب أبي يعلى البيضاوي.

وغيرهما من أرباب المقالات المخالفة لما يعتقده من مذاهبهم، ونهى من المناظرة في شيء منها، ومن فعل ذلك نكل به وعوقب»[1]. لقد أصدر الخليفة العباسي القادر ما عُرف بـ(الاعتقاد القادري) وهو مرسوم يحدد مفهوم الألوهية والصفات والأسماء المثبتة لله، ومفهوم الإيمان والكفر، والاعتقاد الواجب اتجاه الله واتجاه الصحابة.

الدفاع عن السنة القادرية

وجد السلاجقة أن مهمتهم في الدفاع عن الإسلام والسنة، تتمثل في تبني هذا الاعتقاد والدفاع عنه، كان هذا المعتقد يُخرج ويقرأ على الناس في المشاهد والمجامع العامة، وفي المساجد والجوامع، وعند حدوث الاضطرابات والنزاعات العقدية بين الفرق والمذاهب. اعتبر هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد فسق وكفر.

تمّ إسكات جميع الأصوات المختلفة خصوصًا أصوات المعتزلة والشيعة، والمدارس الّتي أُنْشِئت منذ العصر السلجوقي، وهي المدارس النظامية، والمدارس النورية في عهد نور الدين زنكي، ومدارس صلاح الدين الأيوبي، كلّ هذه المدارس تكاد لا تخرج على هذا المعتقد «الأرثوذكسي»، ولا مكان فيها للفلسفة وعلم الكلام أو لتدريس المذاهب المختلفة، لم يخرج عن ذلك غير مدارس قليلة مثل المدارس التي عرفتها مصر في العهد الفاطمي، قبل أن يأتي صلاح الدين ويغلقها.

لقد عملت الدولة الزنكية والدولة الأيوبية باعتبارهما امتدادات مباشرة للدولة السلجوقية، على نشر (أرثوذكسية السنة السلجوقية) على جغرافيا أوسع، امتدت إلى الشام ومصر.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص1674.

خلف خارطة هذه المدارس والاتجاهات الكلامية والفقهية يكمن التاريخ السياسي، كما عبر عنه ياسين عبد الجواد «نجد التاريخ السياسي كامنًا خلف تاريخ العقيدة والفقه والأصول»[1].

معنى الأرثوذكسية

يعتبر المفكر الجزائري محمد أركون، أول من استخدم مصطلح تفكيك «الأرثوذكسية» في قراءته للتراث الإسلامي و«الأرثوذكسية» في معناها الحرفي تشير إلى الطريق المستقيم؛ بما يتقاطع مع مفهوم الفرقة الناجية. والطريق المستقيم هو بمثابة السنّة الصحيحة، أي طريق النبي. في الحضارة الاسلامية اعتُبِر المذهب السنّي على الطريقة الأشعرية، ووفق المذاهب الفقهية الأربعة هو الطريق المستقيم الذي ينبغي أن يخضع له الجميع، فتم فرضه عبر سلطة الخلافة الإسلامية.

دعا أركون إلى تفكيك هذه الأرثوذكسية[2]، أي تفكيك النصوص الّتي

---

(1) ياسين عبدالجواد، السلطة في الإسلام: العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، ص92.

(2) الشيء المحير فعلاً فيما آلت إليه الثقافة العربية ومثقفوها، أن باحثًا في مستوى رضوان السيد، يعتبر ما يكتب من نقد للتراث الإسلامي بحثًا عن جذور الإرهاب الحديث، استهدافًا للإسلام السني، ولم يوفر من هذه التهمة أحدًا من الباحثين العرب المتخصصين في هذا المجال، وعلى رأسهم يضع محمد أركون وجورج طرابيشي وعبدالمجيد الشرفي «أمّا جوهر هذه الأُطروحات الضخمة [مكافحة التشدد والإرهاب]، فهو الحملةُ على إسلام العصر الوسيط، أو الأرثوذكسية السنية، أو التقليد الأسود والجامد، أو بصراحة الإسلام السُّنّي. وهذا الفنُّ أو الأدب الإداني يزدهر الآن. أمّا أبوه الشرعي فهو الراحل محمد أركون. فقد أراد أولًا تحطيم كل الأرثوذكسيات لأنها حجبت عنا القرآن والإسلام الأول. ثم قرر أنّ المهمة التحريرية تنقضي أو تتحقق بضرب الأرثوذكسية السنية، كما قال... لجأ هو وتلامذته حتى اليوم (توفي أركون عام 2010) إلى تصفية حساباتهم مع الإسلام السني القديم (من القرآن وإلى محمد عبده) بحجتين: التقليد المتجمد، والأُصوليات القائمة اليوم على ذلك التقليد» الحملة على الإسلام.. والحملة على العرب، رضوان السيد، جريدة الشرق الأوسط، 18 ابريل/ نيسان 2014 العدد 12925.

تدّعي أنها وحدها تمثل الإسلام الصحيح. والمُراد من تفكيكها هو إعادة إنتاجها، بعد تفكيك السياقات السياسية والتاريخية الّتي تقوم عليها، وهذه الأرثوذكسية ليست سنية فقط، فهناك النسخة الشيعية أيضًا. لكن السنية هي التي حكمت العالم الإسلامي بمجمله لأنها كانت تمثل الخلافة المركزية وهي التي تحكمت وصاغت الحس الإسلامي بشكل عام.

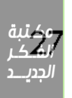
احتاج السلاجقة إلى جيش من الفقهاء والقضاة والعلماء والخطباء والمحدثين، لتثبيت مهمتهم الدينية المتمثلة في الدفاع عن السنة وتثبيت (الأرثوذكسية السنية السلجوقية) وهم وجدوا أن هذه المهمة تعطي لوجودهم شرعية وتعطي لحروبهم ضد أعداء الخلافة العباسية شرعية مضاعفة.

السلاجقة المعروفون بأنهم جماعات قتالية، أخذتهم شهوة الجهاد، وأعطوا لـ(السنة) مفهوما أحاديًا وقطيعًا لا يقبل التعدد والاختلاف، صارت (السنة) أيديولوجيا جهادية، مشبعة بشهوة القتل وغريزة التوحش.

تكفير الباطنية

لقد وصل السلاجقة إلى قصر الخلافة في بغداد قبل بدء الحروب الصليبية (1098م) بأربعة عقود تقريبًا، فبعد القضاء على دولة البويهيين في العراق دخل طغرل بك السلجوقي بغداد في 25 رمضان 447 هـ/23 ديسمبر/كانون الأول 1055م.

وقبل أن يجدوا في الصليبيين العدو الذي يهدد الإسلام والخلافة الشرعية، وجدوا ذلك في الباطنية، وحين بدأت الحروب الصليبية تمّ



توسيع دائرة العدو، فألحق الباطنية بالصليبيين[1]، وتم تعميم صورة أكثر تشويهًا للفاطميين، فاعتبروا خونة وحلفاء مع الصليبيين وسببًا في هزيمة المسلمين واحتلال بيت المقدس.

صار الجهاد هو القيمة الأكثر حضورًا فترة الحكم السلجوقي وما انبثق عنه من حكم الزنكيين والأيوبيين، وصارت الأرثوذكسية السنية كما تبناها هؤلاء هي الأيديولوجيا المعبرة عن فكرة الجهاد، فصار قتال الصليبيين والباطنية مهمة جهادية أولى، أعطت شهوة الجهاد عند المقاتلين الأتراك لـ(السنة الصحيحة) مفهومًا قاطعًا كحد السيف، لا يقبل التعدد والاختلاف، فراحوا يوحدون الجغرافيا والأفكار والعقائد.

هكذا تداخلت العملية العسكرية مع العملية الدينية عبر تجيير جيش من العلماء والقضاة والمحدثين والفقهاء وكتاب التاريخ، ليكتبوا بأقلامهم حدود العداوة والتكفير التي رسمها سيف الجهاديين الذين كانوا حماة الخلافة الإسلامية وشوكتها كما عبر الغزالي.

لقد خلعت (الأرثوذكسية السنية السلجوقية) مدعومة بالسلطة السياسية (السلاجقة، الزنكيون، الأيوبيون) كل المعاني التأثيمية على كلمة (باطني)، وصار معنى السنة يتوضح بمعارضته لمدلول (الباطنية)

---

(1) لقد فصّل حسن الأمين السياق السياسي التاريخي الذي تمّ فيه تخوين الفاطميين في الحروب الصليبية «بل إن فقيهًا من الفقهاء وحافظًا من الحفاظ يبدو أنه من الرملة نفسها هو الحافظ محمد بن أحمد بن سهل الرملي يقول: «لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم ورميت المغاربة [الفاطميين] بتسعة» وقد عمل أميره حسان بن مفرج بهذه الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى بأن ألقى سهامه العشرة كلها على الفاطميين ولم يُلقِ ولو بسهم واحد على الروم، بل أضاف سهامه إلى سهامهم فسلطوها مجتمعة على أفامية فغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها وأسروا كثيرًا من أهلها» حسن الأمين، صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، ص20.

التي صارت تدل على معانٍ متعددة وربما متضاربة من نحو: كافر، مرتد، منافق، إسماعيلي، فاطمي، شيعي، رافضي، يضمر الشر للإسلام، معادٍ للسنة، يكفر الصحابة، عدو، خائن، متهتك، ضال، مبتدع.

مع السلاجقة بدأت حملة موسعة (دينية، سياسية، إعلامية) ضد الإسماعليين والفاطميين الخصوم السياسيين والعقائديين للخلافة العباسية، وجرى تثبيت مفهوم السنة كأحد أسلحة المواجهة. هكذا تم تحويل الفاطميين والإسماعيليين والشيعة والمعتزلة والجهمية كأعداء واعتبرت الجغرافيا التي يسكنون فيها دار كفر، لأنها خارجة عن ولاية الخليفة الشرعي العباسي الذي يمثل الإسلام الصحيح.

الكافر بالخليفة

التكفير مسألة سياسية بوجه ديني، ماذا يعني هذا؟ يعني أن التكفير صراع حول السلطة أو حول شرعيتها، والتكفير هو عقوبة سياسية للمعارضين للخليفة الذي يتمكن من فرض سيطرته (صاحب الشوكة)، وهذا يحيلنا إلى الاختلاف حول من هو خليفة المسلمين: من هو الخليفة صاحب الشرعية؟ وهو السؤال الأول الذي طرح منذ وفاة النبي (ص)، وهذا ما سجله لنا أبو الحسن الأشعري في كتابه (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) «وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم (ص) اختلافهم في الإمامة»[1] وقاد هذا السؤال إلى الاختلاف حول الخليفة الأول ومقتل الخليفة الثاني والثالث والرابع، ولاحقًا إلى دويلات متعددة وحروب كبرى داخلية في الحضارة الإسلامية. ويستمر طرح السؤال نفسه: من هو خليفة النبي محمد؟ هل هو الإمام علي

(1) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص39.

أم إنه أبو بكر، هل هم الأنصار؟ هل هم الأمويون؟ هل هو شخص من خارج قريش؟ هل هو شخص من قريش؟ هل هم العباسيون؟ هل هم الفاطميون؟ هل هم الصفويون؟ هل هم العثمانيون؟ هل هو أبو بكر البغدادي؟

الخلاف على تحديد الخليفة، أوجد الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، وقد دفع بهذه الفرق للاستناد إلى النصوص الدينية لتؤكد صوابية خياراتها ومواقفها: من هو الأحق في حكم المسلمين؟

التكفير عقوبة سياسية

النصوص المتوحشة أنتجت في سياقات تاريخية سياسية كانت تتصارع حول شرعية الخليفة، كما أن إعادة إحيائها من جديد في العصر الحديث فرضتها ظروف سياسية أيضًا. على سبيل المثال، كتاب الغزالي (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) هو كتاب تكفيري وتقتيلي، كتبه ليقدم بيانًا تأصيليًا يجعل من الخليفة العباسي مكلفًا شرعًا بقتل الفاطميين الذين لم يكونوا يقرون بشرعية الخليفة العباسي المستظهر في بغداد، كتب الغزالي كتابه في بلاط الخليفة 488هـ وكما يقول في مقدمته أريد أن «أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية ... بتصنيف كتاب في علم الدين أقضي به شكر النعمة وأقيم به رسم الخدمة»[1] وليس هناك خدمة ممكن أن يقدمها عالم الدين للخليفة أكثر من تأليف كتاب يظهر فضائله ويكفر أعداءه ويشرح له وجوب قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم.

كل ذلك، كان يتم برسم خدمة الشريعة التي كانت برسم خدمة

(1) أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق عبدالرحمن بدوي، ص2.

السياسة أو بدوافعها كما يقول الجابري «أزمة الثقافة العربية كانت - باستمرار- سياسية في دوافعها»[1]

ثقافة التوحش

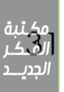
لقد صاغت أسماء كثيرة خطاب التكفير في ثقافتنا، منهم الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية) و(الاقتصاد في الاعتقاد) وابن تومرت في كتابه (أعز ما يطلب) وابن تيمية في كتابه (العقيدة الواسطية) ولعل هذا الكتاب أهونها، فمجمل كتبه مبنية على خطاب التكفير. وهناك تلميذ ابن تيمية وهو ابن القيم الجوزية (ت 751هـ/1175م) وقصيدته (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) المشهورة بالقصيدة النونية، مكونة من (5769 بيتًا) ينتصر فيها -كما يقول محققها- لعقيدة السلف الصالح، ويرد فيها على مخالفيهم، وينقض حججهم ويكشف شبهاتهم وتمويهاتهم «لم يدع الناظم - رحمه الله - أصلًا من أصول عقيدة السلف إلا بينه، وأفاض في ذكره، ولم يترك بدعة كبرى أو مبتدعًا خطيرًا إلا تناوله ورد عليه؛ فغدا هذا الكتاب - النظم - أشبه ما يكون بالموسوعة الجامعة لعيون عقائد أهل السنة، والرد على أعدائها من جهال وضلال وأهل أهواء»

تتوافر القصيدة على الانترنت على شكل ملفات صوتية متعددة الألحان[2]، وهي بمثابة النشيد الحربي ضد الفرق والطوائف والمذاهب. ولعل الحاجة لها اليوم أشد من الأمس، في نظر المحاربين العقائديين.

---

(1) محمد عابد الجابري، مجلة التراث والعمل السياسي، العدد 79 (1984)، نقلاً عن لخضر بولطيف، فقهاء المالكية، ص41.

(2) انظر موقع: ملتقى أهل الحديث، http://s.v22v.net/ZuvI.



يقول ابن القيم في قصيدته:

وكذا ابن سينا والنصير نصير أهـ ـل الشرك والتكذيب والكفران
وكذاك أفراخ المجوس وشِبههم والصابئين وكل ذي بهتان
إخوان إبليس اللعين وجنده لا مرحبًا بعساكر الشيطان

هذه النماذج من المعتقدات هي نسخ مبيضة من مسودة الاعتقاد القادري، وما زالت المسودة تُبيض وتصقل وتزداد توحشًا، لتكون رأس حربة قاتلة في المعارك السياسية.

الغزالي والتكفير السلجوقي

الفصل الأول

1. سياسة التكفير السلجوقية

قلنا في المدخل إن التكفير موضوع سياسي، من حيث الدوافع ومن حيث الخلفيات، وهو بمثابة استراتيجية تضعها السلطة السياسية لمواجهة معارضيها، ويمكن أن نقول هو العدو الذي تصنعه الأحزاب الآيديولوجية أو الأحزاب الحاكمة في الدول الحديثة، لتحشد قواها الاجتماعية والسياسية ضده، وتحقق عبرها وحدة جبهتها (الوطنية). نتعرف هنا على أحد أهم الكتب التي وضعت سياسة التكفير في الدولة الإسلامية، في القرن الخامس الهجريّ (القرن الحادي عشر ميلاديّ) ألّف الوزير السّلجوقيّ المشهور (نظام الملك الطّوسيّ) كتابه (سياست نامه) كتبه بالفارسية ويعني بالعربيّة (سير الملوك). سنتعرّف فيما سيأتي على الطّوسيّ، ثم على محتوى كتابه الّذي يُعْتَبَرُ من أشهر الكتب المعروفة في الآداب السّلطانيّة[1].

---

(1) الآداب السلطانية، وهي كتابات تقوم في أساسها على مبدأ نصيحة أولي الأمر في تسيير شؤون سلطتهم، إذ تتضمن كل موادها مجموعة من النصائح الأخلاقية والقواعد السلوكية الواجب على الحاكم اتباعها، بدءًا مما يجب أن يكون عليه في شخصه إلى طرق التعامل مع رعيته مرورًا بكيفية اختيار خدامه واختبارهم وسلوكه مع أعدائه. ستنتج الدويلات الإسلامية في شرقها وغربها مجموعة كبيرة من الكتب التي تدخل في جنس الآداب السلطانية، ولعل أهمها: الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي، والأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي، بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق، والجوهر النفيس في سياسة الرئيس لابن الحداد، والتاج في أخلاق الملوك للجاحظ ، وسراج الملوك للطرطوشي. الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عز الدين العلام، ص9.

الفترة التاريخية التي أُلّف فيها الكتاب هي ذاتها الفترة التّأسيسيّة لسلطة السّلاجقة. يقول المؤلّف: «إنّ ملكشاه أمر عام (479هـ - 1086م) بضعة من «مشاهير الدولة، والمسنين والحكماء» بأن ينعموا النظر في أمور المملكة ويتأملوها جيدًا، ويكتبوا عن كل ما هو غير محمود فيها لا يجري في نصابه، وعن سنن الملوك السابقين الحميدة، ثم يعرضوها عليه ليجعلها دستوره، ويضعها نصب عينيه. فنفّذ أولئك العظماء ما أمروا به، واختار السلطان من بين ما كتب جميعًا كتاب نظام الملك»[1].

كتاب الحكم

كأنّ الملكشاه يريد من علماء مملكته أن يكتبوا له كتابًا يعينه في الحكم. يقول نظام الملك في مقدّمة كتابه: «يقول العبد الفقير حسين الطّوسيّ: لمّا صدر الأمر الملكيّ العالي من لدن معزّ الدّنيا والدّين [أحد الألقاب التّي كانت تطلق على الملك أو السّلطان السّلجوقيّ] أبي الفتح ملكشاه ابن محمّد يمين أمير المؤمنين، أعزّ الله أنصاره وضاعف اقتداره، إليّ وإلى آخرين غيري عام(479هـ - 1086م) بأن: ليقلّب كلّ منكم صفحات فكره ويتأمّل: أيوجد ثمّة شيء غير محمود على عهدنا، أو إنّه جرى على غير شرطه، أو غاب عن أعيننا وخفي علينا تنفيذه سواء في البلاط أم الدّيوان أم القصر أم المجلس؟ هل من أمر سار فيه الملوك قبلنا سيرًا صحيحًا وفاتنا ذلك؟ أنعموا النّظر في كلّ شيء من أنظمة الملك وقواعده وعادات الملوك في عهد السّلاجقة السّالفين. تأمّلوها جيدًا، وقيّدوها بجلاء، ثم اعرضوها علينا كيما ننظر فيها...»[2].

هذه المقدّمة تبيّن أن الكتاب أُلّف بـ(أمر) أصدره الملكشاه إلى علماء مملكته. ومن بين الكتب جميعها اختار كتاب الوزير السّلجوقيّ

---

(1) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص27.

(2) المصدر نفسه، ص47.

نظام الملك. وفي الحقيقة إنّ هذا الكتاب يُعْتَبَرُ وثيقة تاريخيّة هامّة جدًّا في كيفيّة نظر السّلطة السّلجوقية إلى الدّولة، وإلى سياسة ملكها والمناوئين لها، وإلى الأنظمة الإداريّة الّتي كانت تطبّق في وقتها.

تحوّل هذا الكتاب إلى دستور، لكن ليس دستورًا إلى النّاس، لأنّنا قلنا إنّ هذا الدّستور ينتمي إلى الآداب السّلطانيّة. والآداب السّلطانيّة هي الآداب الّتي تعين الملك على كيفيّة إحكام إدارته على الدّولة؛ كيف يسوس النّاس ويتمكّن منهم وكيف يبسط سيطرته على الدّولة.

آداب الاستبداد

هذه الكتب غير معنية بإعانة الملك على كيفية إدارة الدّولة إدارة ديمقراطيّة، إنها لا تنتمي إلى جنس الكتب السّياسيّة الّتي نتحدّث عنها اليوم ككتاب «العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية» لجان جاك روسو (1712-1778) أو كتاب (اللفياثان .. الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة) لتوماس هوبز (1588-1679) هذه كتب أخرى تتحدّث عن أشكال السّلطة في الدّولة، عن كيف نحن نؤسّس إدارة الدّولة بحيث يكون للنّاس فيها صوت، كيف نؤسّس دولة قائمة على العقد الاجتماعي، هذا موضوع مختلف.

الآداب السّلطانيّة كانت تعلم الملوك آداب الاستبداد، تكرّس سياسة الفرد، الملك الفرد المتفرّد بالسّلطة أكثر، ولعلّنا نتذكّر هنا، مثلًا، كتاب (الأمير) لـنيكولا مكيافيللي (1469 – 1527)، وهو من أهمّ الكتب السّياسيّة الّتي كُتِبَت في إيطاليا ولكن كُتِبَت لتمكين الأمير من بسط

سيطرته. عمومًا، إنّ ملكشاه أُعْجِبَ بهذا الكتاب وقال: «لقد اتّخذت هذا الكتاب إمامًا لي، وعليه سأسير»[1].

لقد كتب نظام الملك كتابه باللغة الفارسية، لأن السلاجقة اتخذوا الفارسية لغة الدواوين والرسائل إلى جانب العربية التي لم يكن أول سلاطينهم (طغرلبك) يتكلمها. وكتاب (تاريخ دولة آل سلجوق) الوزير السلجوقي أنوشروان بن خالد الكاشاني 532هـ/ 1137م، ألفه أيضًا بالفارسية.

من هو نظام الملك

من هو نظام الملك؟ ما هي شخصيّته؟ وما الّذي تركه من أثر في هذه الدّولة؟ وكيف وجّه سياستها هذا التّوجيه الّذي ترك أثرًا كبيرًا لقرون طويلة في تاريخنا؟

نحن لا نبحث في هذا الكتاب عن الأنظمة الإداريّة في تيسير الدّولة في ذلك الوقت، إنّما نبحث عن كيفية إدارة الدّولة للفرق والطوائف المختلفة معها، نحن معنيّون هنا بنصوص التّوحّش، كيف تنتج سياسة الدّولة نصوصًا متوحّشة دينيًا، إنّ النّصّ الدّينيّ حين يأمر بقتل الآخر المختلف معه، فإنّ هذا النّصّ ليس منزلًا من السّماء وإنّما هو نصّ مدار ضمن سياسة الأرض، لقد رسم نظام الملك هذا بدقّة شديدة في هذا الكتاب، وهي سياسة مثلت الخلافة العباسية التي كان يحكم باسمها السلاجقة[2].

---

(1) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص27.

(2) كان السلاجقة قد ورطوا أنفسهم في حروب طويلة، وكانوا جاهزين لتقديم خدماتهم لمن يطلبها ويدفع أكثر. بدأ السلاجقة الاتصال بالخليفة العباسي، لكسب عطفه والتعريف =

نظام الملك رجل عصاميّ بنى نفسه بنفسه وتمكّن من دخول الدّولة، شخصيّة لا تملك مالًا ولا جاهًا، ولم يأت من عائلة لديها حضور في بلاطات السّلطة. هو نموذج للرّجل الّذي استطاع عبر قدراته الخاصّة بناء اسم وموقع له في الدّولة.

عاش طويلًا وترك أثرًا طويلًا، وُلِدَ في (408هـ - 1017م) وتوفّي في (485هـ - 1092م) لذلك فإن الدّكتور غلام اليوسفيّ عنون تصديره الطّويل للترجمة العربية للكتاب بـ «السّياسيّ العجوز». عاش فترة تقترب من الثّمانين عامًا، فماذا جرى خلالها؟ وكيف ساس الدّولة؟

اقترب نظام الملك من الدّولة السّلجوقيّة التي كانت في مرحلة التّأسيس حينها، قدّم نفسه إلى ألب ارسلان (1029 – 1072) وهو أحد الشّخصيّات المؤسّسة لهذه الدّولة. ثمّ تسلم الوزارة من (451 هـ - 1059م) واستمرّ إلى لحظة وفاته وزيرًا للدّولة. حظي بمكانة واسعة وسطوة وصارت إدارة الدّولة كلّها تحت سلطته. كان الملكشاه يخضع لتعاليمه لثقته به. لقّب بـ «تاج الحضرتين»[1] لأنّه عمل في حضرة ألب أرسلان ثمّ في حضرة ملكشاه.

بحالهم والحصول على شرعية لدولتهم، فكتبوا سنة 433هـ/ 1042م إلى الخليفة القائم بأمر الله العباسي: «إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائمًا الحضرة النبوية المقدسة، وأحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائمًا في غزو الكفار، وإعلان الجهاد»انظر: محمد أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري،ص39، ص55، ص232.

(1) لقب نظام الملك كذلك بـ: قوام الدين، صدر الإسلام، سيد الوزراء، الخواجة الكبير، الصدر الأجل، خليفة السلطان، غياث دولة السلطان. انظر: محمد أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص232.

استئصال المعارضين

كتب نظام الملك معرّفًا الجهد الكبير الّذي قام به في هذه الدّولة في وصيّته الّتي تركها: «لي في هذه الدّولة خدمات جليلة وآثار مشهورة. لم أخالف أولياء نعمتي ممّن لهم عليّ حقّها، أو أخنهم قطّ، ولم أقصّر عن لأيٍ في محبّتي وخدمتي. لقد أنعشتُ الرّعيّة، وعمّرتُ الخزانة، واستأصلتُ مخالفي الدّولة من جذورهم، ونشرتُ العدل والإنصاف والأمن في الأرض. لقد كان كلّ ما فعلتُه في مصلحة الدّولة، وصلاح الرّعيّة كافّة، وسيتّضح هذا جليًا بعدي حين تناط الأمور بشخص آخر. وأحسب أنّه لن يتمكّن أيّ شخص بعدي أن يسيّر شؤون الملك على النّظام الصّحيح شهرًا واحدًا»[1] هكذا كانت ثقته في نفسه وهي ثقة نابعة من قدرته فعلًا على إدارة الدّولة هذه الإدارة الجبّارة.

تهمنا كثيرًا عبارته التي تخصّ موضوع بحثنا: «واستأصلتُ مخالفي الدّولة من جذورهم»، فعلًا هو قد استأصل مخالفي الدولة السلجوقية من جذورهم، وفي الحقيقة قام بتوجيه علماء الدّين في هذه الدّولة لإنتاج نصوص متوحّشة تكفيريّة تقتيليّة لتقوم بمهمّة هذا الاستئصال.

المدارس النّظاميّة

كيف أدار (نظام الملك) الدّولة إدارة أنتجت نصوصًا متوحّشة؟ هذا يتطلّب منّا أن نركّز على منجزه المهمّ وهو المتعلّق بإنشاء المدارس النّظاميّة. فقد أنشأ مجموعة أطلق عليها «المدارس النّظاميّة» وهذا الاسم مستلّ من لقبه نظام الملك. لم يكن اسمه بعيدًا عن منجزه، فهو فعلًا كان نظام الملك لأنّه كان النّظام الّذي يسيّر هذه الدّولة الكبرى

---

(1) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص26.

العظمى في ذلك الوقت. وهو قد أنشأ مدارس لتكون على الدّستور الّذي تحدّث عنه في هذا الكتاب. أنشأ المدارس النّظاميّة في نيسابور، وفي بغداد أيضًا، وكان يحضر في هذه المدارس ما يقرب من 300 طالب يوميًا، وعلى مدى 30 سنة في الفترة الّتي كان فيها نظام الملك مؤسسًا، كان هناك إمام الحرمين الجوينيّ[1] الذي توفّي في (478 هـ - 1085م) وأيضًا الغزاليّ تلميذ الجوينيّ.

أسّس مدرسة نظاميّة بغداد في سنة (457هـ- 1064م) وأوقف لها موقوفات كثيرة من أسواق وحمّامات ودكاكين وضيع لكي يؤمّن أجورًا للعمّال والأساتذة والإداريّين والمباني، وأنشأ فيها أيضًا مكتبة قيّمة. لقد قام بجهد إداريّ ضخم جدًا لينشئ هذه المدارس، وأوجد أيضًا نظاميّات أخرى في البصرة وفي أصفهان وبلخ وهراة ومرو والموصل. وكان أكثر أساتذة النّظاميّات وطلّابها من مشاهير القرن الخامس والسّادس والسّابع.

ينبغي أن نتساءل لماذا أنشأ هذه المدارس؟ هو أنشأها لمواجهة المدّ الإسماعيليّ الّذي كان يقوم على جذب الموالين له عبر القدرة الإقناعيّة المبنيّة على المنطق والفلسفة وأساليب الدّعوة. كان الدّعاة

---

(1) الجويني يعد المعلم المؤسس في المدراس النظامية ومن خلالها نشر المذهب الأشعري «إلا أن التأثير الأكبر في انتشار المذهب الأشعريّ يعود إلى إمام الحرمين الجوينيّ. فبعد أن قام الخواجة نظام الملك بتأسيس المدرسة النظاميّة في بغداد عام 459 للهجرة، دعا الجوينيّ إلى التدريس فيها. وهناك عمل الجوينيّ على الترويج لأفكار الأشعريّ لما يقرب من ثلاثة عقود، وحيث كان يلقب بشيخ الإسلام وإمام مكّة والمدينة، فقد حظيت آراؤه بالاحترام في كافّة أنحاء العالم الإسلاميّ. وبذلك فقد اتّسعت رقعة أفكار الأشعريّ وآراؤه من خلال مؤلّفات إمام الحرمين الجوينيّ، حتى أضحت تعرف بوصفها الكلام الرسميّ لمجتمع أهل السنّة». الشيخ رضا برنجكار، مدخل إلى العلوم الإسلامية، ص40. نقلًا عن مقدمة تحقيق كتاب النور المنجلي من الظلام لأبي جمهور، رضا يحيى فارمد، ص48.

الإسماعيليّون متمكّنين تمامًا من الحجّة والمنطق والفلسفة، فهم يدرسون دراسات مستفيضة في هذا المجال. أراد(لنظّام الملك) أن ينشئ جهازًا يبرمج العقول وينتج جيشًا من الفقهاء والدّعاة والخطباء الّذين يقومون بعمل مضادّ لعمل هؤلاء. وكان ينفق كل سنة على الفقهاء والقراء والمتصوفة ستمائة ألف دينار، وقيل سبعمائة ألف، حتى قيل «لو جيش بها جيش لغزا باب القسطنطينية»[1].

تطويع العلماء

كانت المدارس النّظاميّة تعتمد المذهب الشافعي أساسًا وتطرحه بطريقة متعصّبة، وقد أفسح نظام الملك المجال للمذهب الحنفيّ لأنّ السّلطان السّلجوقيّ كان حنفيًّا. تمكّن عبر هذه المدارس أن يترك له نفوذًا هائلًا بين طبقة المتعلّمين لأنّه ينتخبهم وفق رأيه ويسلمهم راتبًا، وكانوا مطيعين لأوامره.

استطاع نظام الملك أن يُخَرِّج في كلّ عام فريقًا كبيرًا من طلّاب العلم المشبّعين بالبرنامج الّذي أراده وأقرّه، تمكّن عبر السّياسة المبرمجة من إحكام سيطرته على الدّولة، وتوجيهها نحو الوجهة الّتي كان يريدها، وقد استطاع تسميم عقائد الإسماعيليّين وكلّ الفرق الّتي لها مذهب ثانٍ لا يتّفق مع مذهب الدّولة.

نظام الملك قام عبر مدارسه بعمليّة توحيد للفكر والعقائد[2] بحيث

---

(1) انظر: محمد أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص232.

(2) إن عملية توحيد العقائد تواجه الصعوبة نفسها التي ترافق توحيد الأراضي في الدولة، تحتاج لمجهودات تذليل كبيرة وكسر للممانعة، ومذهب الأشعري واجه صعوبة كبيرة حتى صار مقبولًا من الجميع، وتحول بعدها إلى أداة سياسية تستخدم ضد المعارضين «لقد كان =

يجعلها جميعها في خدمة السلطان، جنبًا إلى جنب مع العمليّة السّياسيّة في توحيد الأراضي وفتحها وجعلها تحت سلطة الملك السّلجوقيّ.

عمل أبناء نظام الملك في هذه المدارس وكانوا يديرونها بأنفسهم، وفي الحقيقة، لقد منح الوزير أولاده وظائف كبرى في الدّولة، وراح يدير عبرهم سياسته.

تعصب نظام الملك

كان نظام الملك مشهورًا بالتّعصّب للمذهب الشّافعيّ، وصف بأنه «كان متعصّبًا ضيّق المشرب ينفي كلّ شيء يخالف عقائده الدّينيّة ويردّه، وكان يرى وهو في كرسيّ الوزارة أنّ مصلحة الملك والأمّة في السّعي لمحو أتباع الفرق الإسلاميّة الأخرى لا سيّما الشّيعة الإسماعيليّة»[1].

وقد حظر نظام الملك تعليم العلوم العقليّة وتعلّمها في المدارس الّتي أُنْشِئَت بخراسان في القرن الخامس (القرن الحادي عشر ميلاديّ) وما بعده ثمّ في العراق وسائر البلاد الإسلاميّة. هذه العلوم العقليّة هي الّتي كان يدرسها الإسماعيليّون، ويستخدمها الدّعاة في دعواتهم، اعتبرها بدعًا وضلالًا.

مذهب أبي الحسن الأشعري عرضة للتغيرات على طول التاريخ. فإنّ آراءه في بادئ الأمر لم تحظ بالقبول من قبل علماء أهل السنة، وكانوا يقاومونها بشدة. إلّا أنّ هذه المعارضة لم تؤثّر في هذه الآراء على المستوى العملي وتمكن المذهب الأشعري تدريجًا من فرض هيمنته على الساحة الفكرية لأهل السنّة. وإن أول شخص ظهر في هذه الساحة بعد الأشعري هو أبو بكر الباقلاني حيث عمل على بثّ وعرض آراء الأشعري». مقدمة تحقيق كتاب النور المنجلي من الظلام لأبي جمهور، رضا يحيى فارمد، ص47.

(1) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص29.

لذلك إذا أردنا أن نفسّر موقف الغزاليّ المحارب للفلاسفة وعلم الكلام، ولماذا كتب الغزاليّ كتابه «تهافت الفلاسفة» فالجواب المباشر هو لأنّه كان يعمل موظّفًا عند نظام الملك، ولأنّ نظام الملك كان متعصّبًا، وكان يريد لهذه المدارس أن تدرّس الفقه والحديث فقط على الطّريقة الأشعريّة والشّافعيّة.

أنتجت هذه المدارس جيلًا متعصّبًا وضيّق الأفق[1]، وهذا هو العمل الخطير الّذي قام به نظام الملك وترك آثاره الكبرى فيما بعد في إدارة الدّولة. فالفقهاء الّذين يتخرّجون من هذه المدارس لديهم موقف متصلّب من العلوم والآراء الّتي ليست على منهجها المنتصر لأهل الحديث، ومثل هؤلاء العلماء السنة الرسمية التي تمثل الخلافة[2].

---

(1) لقد لاحظ المستشرق غولد تسيهر، في دراسته لتطور السنة، كيف أخذ التشبّهُ بالسّلَفِ (وهم أولئك الذين تربّوا علىَ يدِ النّبيِّ، وكانوا به يقتدون) يتزايد أكثر فأكثر، وأصبح المثل الأعلى للمسلمين الصالحين. وبالتدريج أصبح نَعتُ الرّجُلِ بأنه سلفيٌّ (أيّ المشتبه بالسّلَفِ) أسمىَ علاماتِ الإكبارِ في المجتمع الصالح. والنظر للحياة بهذه الصورة أنجب قطعًا المتعصبين للسنة الذين كان هَمهم البحث عن الأدلة في عادات النبي وأصحابه، والبحث عن المناسبات لتطبيقها خوفَ النسيان.غولد تسهير، دراسات محمدية، ترجمة الصديق بشير نصر، ص39.

(2) نظام الملك كان يدرك جيدًا أن إدارة الدولة وسياستها تتطلب سياسة طبقة العلماء من أجل التحكم في صناعة الرأي العام والشرعية، وكانت المدارس النظامية أداة من أدوات التحكم في صناعة العلماء وضمان ولائهم للبلاط «أدرك وزراء السلاجقة العظام، أمثال الكندري، ونظام الملك، خطر العلماء البغداديين إذا تُركوا وشأنهم، أو إذا انضموا الى الخلافة العباسية لذا حاول السلاجقة الحدّ من حرية العلماء قدر الإمكان فأنشأ نظام الملك المدارس بغية تنظيم طبقة العلماء، ودمجها بالجهاز الحكومي، ووضعت المدارس تحت مراقبة الوزراء السلاجقة الجديدة، فكانوا مسؤولين من دون غيرهم عن تعيين المدرسين فيها، ولم يكن هناك أي أمل للمعارضين بالحصول على مركز تعليمي في هذه المؤسسات، وبالتالي تلقت المعارضة ضربة شديدة وخاصة في مطلع الحكم السلجوقي، عندما اضطروا الحنابلة منهم =

لم يكن هذا العمل سياسيًا فقط؛ فهو لم يعتبر المخالفين والمعارضين السياسيين مجرّد مناوئين سياسيّين يحاربهم لأنّهم ضدّ الدّولة، بل جيّر الفقه والمدارس النّظاميّة لكي ينتج طبقة من الفقهاء والقضاة ورجال الدّين يكفّرون هؤلاء ويرون أنّ قتل الخليفة لهم واجب لأنهم مرتدّون.

الغزالي ونظام الملك

هذه النّصوص بقيت وما زالت تعمل إلى اليوم، وسياسة نظام الملك هي التي أنتجت هذه النّصوص. لذلك إذا أردنا نحن أن نفسّر موقف الغزاليّ قبل أن يفر من بغداد ويقوم برحلته الروحية علينا أن نبدأ بنظام الملك، وكتاب «سياسة نامه» الدّستور الّذي حكم الدّولة السّلجوقيّة، وحكم ما تفرّع عنها من الدّولة الزّنكيّة. نور الدّين زنكي مثلًا، كان أيضًا متّبعًا للسّياسة نفسها الّتي رسّختها الدّولة السلجوقية. بنى المدرسة النّوريّة وفق اسمه، وكانت تدرّس فقط الفقه والحديث. واستمرّ ذلك أيضًا مع الدّولة الأيّوبيّة، ونحن نعرف أنّ صلاح الدّين الأيّوبي كان أحد القادة الّذين عملوا مع نور الدّين زنكي، كما كان والد نور الدّين زنكي أيضًا أحد القادة الّذين عملوا مع السّلاجقة.

التكفير والإذلال

يمكننا أن نستشهد بفقرة وردت في كتاب «النّقض» لعبد الجليل القزويني الرّازي (مكتوب باللّغة الفارسيّة ولم يترجم)، يوردها الدّكتور غلام يوسفيّ في تصديره يقول: إنّ «نظام الملك كان يعدّ الشيعة أو الرّافضة» - على حدّ قوله - والإسماعيليّة، سياسيًّا ومذهبيًّا، من خصوم

= إلى تقديم الطاعة والتملق إلى السلاجقة». محمد أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص328.

المملكة والدّين الّذين لا سبيل إلى مهادنتهم، وذهب إلى أنّ أصلهم وأصل المزدكيّة والخرمدينيّة واحد هكذا قضى عمره كلّه سعيًا في دفعهم. لقد عدّهم في كتابه - ما أتيح له المجال وواتته الفرصة - ضالّين غواة، ولم يتورّع عن سبّهم وإلصاق كلّ أنواع التّهم بهم، وأن تصرّفه مع فقهاء الشّيعة في الرّي لنموذج على شدّة مسلكه في هذا الأمر. تأمّل هذه الرّواية: «ولمّا كان عهد ملكشاه الكريم - سقاه الله رحمته - استطاع نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق أن يتبيّن سرّ عقيدتهم - أي فقهاء الشّيعة - فأذلّهم جميعًا، وكان كلّما ادّعى أحدهم في الرّيّ أنّه عالم من مثل: حسكا بن بابويه، وأبي طالب بابويه، وأبي المعالي الأمانتي، وحيدر الزّيارتي المكي، وعلي العالم، وأبي تراب الدّوريستي، وأبي المعالي بخارجر، وغيرهم من الرّافضة، كان يأمر بإصعادهم إلى المنابر حاسري الرّؤوس، وأن يقال لهم باستخفاف ودون أن تراعى لهم أيّة حرمة: أنتم أعداء الدّين الّذين يلعنون السّابقين في الإسلام. إنّ شعاركم شعار الملحدين، آمنوا. فكانوا يؤمنون طوعًا أو كرهًا، ويعلنون نفرتهم من مقالة [مذهب] الرّافضة»[1].

هكذا عمل نظام الملك عبر تمكّنه من أجهزة الدّولة، وأحد أهم أدواتها المدارس النّظاميّة من صياغة الأرثوذكسيّة السّنيّة[2]، بمعنى أنّه وضع التّسنّن المستقيم الصّحيح الّذي على الجميع أن يلتزم به، إنّ العقيدة الصحيحة هي العقيدة التي أرساها الأشعريّ وما عداها ضلال وباطل وكفر. تمكّن نظام الملك من تجذير هذا الفهم الأرثوذكسي

(1) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص30.

(2) مصطلح الأرثوذكسيّة السّنّيّة يعادل مصطلح أهل السنة والجماعة، أي المذهب الحق الذي تتبعه الغالبية وتقره السلطة.

وجعله بمثابة الأيديولوجيا المعبّرة عن وجهة نظر الدّولة السّلجوقيّة وما جاء بعدها من الزّنكيّين ومن الأيّوبيّين. حين نريد أن نفهم الخطاب التّكفيريّ في هذه الفترة، سنجده يرتدّ إلى هذه السّياسة الّتي اتّبعها نظام الملك.

دراسات محمدية

المستشرق اليهودي المجري غولد تسيهر، كتب منذ فترة مبكرة 1890م كتابه المهم، (دراسات محمدية)، وفيه تتبع طريقة تشكيل السنة النبوية، وكيف تم استخدام الأحاديث النبوية استخدامًا سياسيًّا، وكيف صارت السنة سلطة سياسية وأرثوذكسية دينية يُنازع بها، يقول «والحديث لا ينفع وثيقةً لتاريخ الإسلام في مراحل نشأته الأولى، ولكنه يمكن أن يُعَدَ إلى حدّ ما انعكاسًا للنزعات التي ظهرت في الجماعة أثناء المراحل الناضجة من تطوره»[1].

أرسى نظام الملك نظامًا تربويًّا وسياسيًّا وإداريًّا يقوم على اعتبار الباطنية والشيعة والرافضة كفرة وخونة وعناصر مهددة لأمن الدولة: قال الرسول «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» والرافضة كلهم قدريو المذهب[2]...تلكم هي حال الرافضة، فما ترى حال الباطنية، وهي أسوأ من الرافضة بكثير؟ إنه ليس ثمة فرض أولي على أي ملك يظهر هؤلاء على عهده من محوهم من على وجه المعمور[3]... وإذا ما نزلت بهذه الدولة القاهرة نازلة سماوية،

---

(1) غولد تسيهر، دراسات محمدية، ترجمة الصديق بشير نصر، ص18.

(2) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص201.

(3) المصدر نفسه، ص201.

فإن هؤلاء الكلاب يظهرون من أوكارهم ومعاقلهم ويخرجون على دولتنا بدعوى التشيع، مستمدين أكثر قوتهم ومددهم من الرافضة والخرمية[1].

راية الباطنية

ولعلّه من المستحسن أن نختم بما قاله مترجم هذا الكتاب الدّكتور يوسف بكّار في مقدمته للتّرجمة: «لم يكتفِ نظام الملك بأن يلبّي رغبة مليكه «ملكشاه السّلجوقيّ» فيؤلّف كتابًا يكون «دستورًا» يتّبع في إدارة الحكم والدّولة وتسيير الأمور بالعدل والحقّ والعزم والحزم وحسب، إنّما انعطف بقوّة وشدّة، لكن في حدود الرّغبة الملكيّة ونطاق التّكليف وآفاقه، إلى الكشف عن أحقاد مخالفي الدّولة من وزراء وعمّال طامعين وأعداء متربّصين؛ وإلى فضح ذوي المذاهب الخبيثة الفاسدة، وقد تصدّى لهم ما وسعه الجهد، الّتي كانت - على تعدّدها وكثرة أسمائها - تنضوي تحت راية «الباطنيّة» الكبرى لا هدف لها سوى تقويض الإسلام ومحق المسلمين وإزالة دولتهم»[2].

ظل مترجم الكتاب في القرن العشرين يردّد الفكرة نفسها الّتي عمل على تجذيرها نظام الملك في القرن الحادي عشر عبر المدارس النّظاميّة، إنّ كلّ من خالف مذهب الدّولة السّلجوقيّة كان يعدّ من مقوّضي الإسلام وماحقي المسلمين، وهي الدعاية السياسيّة التي عمل نظام الملك على تحويلها إلى نصوص متوحشة وفتاوى دينيّة عبر مدرسته النّظاميّة.

---

(1) نظام الملك الطوسي، سير الملوك أو سياسة نامه، ص227.

(2) من مقدمة المترجم، سير الملوك أو سياسة نامه، نظام الملك الطوسي، ترجمة يوسف بكار، ص9.

في نهاية الصراع، دفع نظام الملك حياته ثمنًا لسياسته «قضى عمره [نظام الملك] كله سعيًا في محاربتهم [الباطنية]، وعدهم ضالين غواة، حتى كانت نهايته على أيديهم سنة 485هـ/ 1092م»[1].

---

(1) انظر: محمد أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص22.

2. الغزالي والتكفير على الباطن

نحاول أن نقارب (نصوص التوحش) التي كتبت في سياق سياسي في تراثنا الإسلاميّ، وبرز فيها الضيق من الآخر العقائدي والسياسي، ضيقًا يصل إلى حدّ تكفيره أو حدّ اعتباره زنديقًا أو اعتباره ضالًا أو مبتدعًا، وإلى ما هنالك من أوصاف تدخل في النهاية ضمن نطاق التكفير، أو الهرطقة كما عُرِف في المسيحيّة مثلًا.

يشكل كتاب (فضائح الباطنيّة وفضائل المستظهريّة)[1]، لأبي حامد الغزالي، مادة دسمة في تبيان المقصود من نصوص التوحش. وسنركز من خلال هذا البحث على ما جاء في الفصل الثامن من الكتاب، الذي تناول قضية تكفير الباطنية ووجوب سفك دمهم، كما نستعرض ما جاء في الفصلين التاسع والعاشر المتعلقين بالخليفة العباسي، لكن قبل ذلك نحتاج إلى أن نقف على الظروف التاريخية والسياسية التي أُلف فيها الكتاب.

ما المقصود بعنوان كتاب الغزالي؟ من هم الباطنية؟ ومن هو المستظهر؟

---

(1) فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، كتبه أبو حامد الغزالي في نهاية القرن الخامس الهجري، ونشر لأول مرة أجزاء منه المستشرق غولدتسيهر في 1916، وحققه تحقيقًا كاملًا، عبدالرحمن بدوي، ونشرته مؤسسة دار الكتاب الثقافية الكويت، في 1964.

الباطنية، يقصد بها الإسماعيلية[1] - على وجه الخصوص[2]- وضمنًا تدخل فيها باقي الفرق المنضوية تحت لواء التشيع، الّذين يعتقدون بالإمامة، وبأنّ الإمام هو الّذي يوصل تعاليمه إلى أتباعه.

يعدد الغزالي أسماء الباطنيين التي تقع تحت عنوان كتابه: «في ألقابهم التي تداولتها الألسنة على اختلاف الأعصار والأزمنة وهي عشرة ألقاب: الباطنية، والقرامطة، والقرمطية، والخُرَّمية، والخُرَّمْدينية، والإسماعيلية، والسبْعية، والبابكية، والمحمِّرة، والتعليمية»[3].

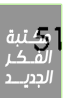
أراد الغزالي كما يقول فضح عقائد الباطنية ومتبنياتهم الفكرية، فكتب محذرًا الناس منهم، وكفَّر فئة منهم وأجاز قتالها. إنه ينفذ خطة نظام الملك الذي اعتبر الباطنية العدو الأول للدولة في كتابه (سفر نامه) وهو قد حدد أسماء الباطنيين قبل أن يعتمدها الغزالي «لقد كان للباطنية، في كل وقت خرجوا فيه اسم ولقب يختلف عنه في وقت آخر. وعرفوا بأسماء وألقاب متفاوتة في كل مدينة وولاية، وإن تكن -مع ذلك- واحدة في معناها. فقد كان يُقال لهم (الإسماعيلية) في حلب ومصر، و(السبعية) في قم وكاشان وطبرستان وسبزوار، و(القرامطة) في بغداد وما وراء النهر وغزنين،

---

(1) إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الاثني عشرية. يشترك الإسماعيلية مع الاثني عشرية في مفهوم الإمامة، إلا أن الانشقاق وقع بينهم وبين باقي الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق، فرأى الإسماعيلية أن الإمامة في ابنه الأكبر إسماعيل ، بينما رأى فريق آخر أنها من حق موسى الكاظم لثبوت موت إسماعيل في حياة أبيه.

(2) ركز الغزالي في هجومه على الاسماعيلية نظرًا للصراع السياسي الذي كان قائمًا بين الفاطميين (الإسماعيليين) من جهة وبين الخلافة العباسية التي كانت تحت حكم السلاجقة.

(3) فضائح الباطنية، ص 11. والتعليمية تعني هنا الذين يتلقون تعليمهم عن الإمام ولا يستخدمون عقلهم كما يقول. وفي الحقيقة هذه القائمة قد وضعها نظام الملك في سياق تحديده لأعداء الدولة السلجوقية.



و(المباركية) في الكوفة، و(الراوندية) و(البرقعية) في البصرة، و(الخلفية) في الريّ، و(المحمَّرة) في جرجان، و(المبيّضة) في الشام، و(السعيدية) في المغرب، و(الجنابية) في الأحساء والبحرين، و(الباطنية) في أصفهان. أما هم فكانوا يطلقون على أنفسهم (التّعليمية) وأمثال هذا، وكان هدفهم تقويض دعائم الإسلام والمسلمين، والعمل على غواية الخلق وضلالهم»[1]

التكفير هو أحد العمليات التي مارسها الفقهاء لتشويه صورة الإسماعيليين، في ظل التنافس السياسي المحموم حول مشروعية الخلافة، خصوصًا وأن الفاطميين كانوا يتطلعون تحت شعار (الدعوة الهادية) إلى توسيع حكمهم ليشمل جميع الأراضي الإسلامية وخارجها. فرهاد دفتري أحد أهم الباحثين المتخصصين في دراسة النصوص الإسماعيلية، يستخدم مصطلح (الخرافة السوداء) لوصف عمليات التشنيع التي مارسها الغزالي وغيره من علماء الخلافة العباسية ضد الإسماعيليين، كما أسهم الصليبيون الذين اشتبكوا مع الإسماعيليين في صناعة هذه الخرافة، لقد كان الصليبييون بحاجة لإعطاء تفسيرات مقنعة لعمليات الاغتيال والسلوك الجريء للفدائيين الذين نفذوا مهمات هادفة في الأماكن العامة، كان ذلك يبدو مدهشًا للعقل الأوروبي في العصر الوسيط، وهو بحاجة لتفسيره، لذلك جاءت (خرافة بستان جنة سري)، و(خرافة الحشيش) و(خرافة قفزة الموت)[2].

---

(1) نظام الملك، سير الملوك أو سياسة نامه، ص272.

(2) وحول صناعة خرافة الحشيش يقول دفتري. «بدأ كتاب الأخبار الغربيون من الصليبيين وعدد من الرحالة الأوروبيين والمبعوثين الديبلوماسيين الكتابة عن الإسماعيليين النزاريين الذين عرفوهم باسم «الحشاشين». إن مصطلح «حشاش: Assassin» نفسه المبني بوضوح على صيغ متنوعة لكلمة «حشيشي» (جمعها حشيشة) العربية، والذي أطلقه المسلمون الآخرون على الإسماعيليين النزاريين بمعنى «الكفار المنبوذين اجتماعيًا» للحطّ من قدرهم =

الجزء الثاني من عنوان الكتاب (فضائل المستظهرية) يشير به إلى لقب الخليفة العباسي المستظهر بالله[1]، أراد الغزالي تكريس شرعية الخليفة العباسي كخليفة حق، وولي أمر مفترض الطاعة، مقابل (الباطنية) كأهل باطل خارجين على ولي الأمر والإسلام وإجماع الأمة.

يفتتح كتابه بهالة تقديسية وتبجيلية للمستظهر يقول فيها: «أما بعد: فإني لم أزل مدة المقام بمدينة السلام [بغداد] متشوقًا إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية ضاعف الله جلالها، ومدّ على طبقات الخلق ظلالها – بتصنيف كتاب في علم الدين أقضي به شكر النعمة، وأقيم به رسم الخدمة»[2].

الملفت فيما كتبه الغزالي نعته مواقف الخليفة بالمواقف «المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية»، لإضفاء قداسة على مواقف المستظهر بالله، مستعيرًا خطاب الباطنية في تقديس الإمام، الذي يعتقدون به، وهو ما أخذه عليهم.

النزوع المدافع عن الخليفة العباسي يقابله هجوم شرس على مناوئيه السياسيين وهم الباطنية؛ وهم على وجه التحديد الفاطميون الّذين كانوا في مصر، إضافة إلى حسن الصباح[3] وجماعته التي أقامت في «قلعة

= وسمعتهم ، التقطه الصليبيون في بلاد الشام» الإسماعيليون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامية، فرهاد دفتري، ص50-51

(1) هو المستظهر بالله أبو العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله (471-515هـ).

(2) الغزالي، فضائح الباطنية، ص2.

(3) حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري (430 هـ/ 1037م - 518 هـ/ ص1124م)، هو صاحب قلعة (آلموت) وهو -وفق الخرافة الشائعة كما يقول فرهاد دفتري- مؤسس فرقة الحشاشين أو الـ Assassin، التي كانت تقوم بالعلميات الفدائية كما يقال.

ألموت»، في إيران. وقد شكل هؤلاء تهديدًا وخطورة سياسية لحقت بالحكم العباسي، حتى إنه في فترة من الفترات صار اسم الخليفة الفاطميّ يذكر في خطب الجمعة في بغداد[1].

لنأتِ الآن إلى عناوين الأبواب التي تناولها الغزالي في كتابه: يتحدث في الباب الأول عن المنهج الّذي استخدمه في هذا الكتاب، واستعرض الباب الثاني ألقاب الباطنية، وتناول في الباب الثالث «درجات حيلهم وسبب الاغترار بها مع ظهور فسادها»[2] وفي الباب الرابع يتحدث عن مذهبهم، معتقداتهم في الإلهيات والنبوة والإمامة والقيامة والمعاد والتكاليف الشرعية. وفي الباب الخامس يتوقف عند إفساد تأويلاتهم للظواهر الجلية. وفي الباب السادس يكشف -كما يقول- تلبيساتهم الّتي زوّقوها بزعمهم في معرض البرهان على إبطال النظر العقلي وإثبات وجوب التعاليم من الإمام المعصوم. وفي الباب السابع يبطل تمسكهم بالنص في إثبات الإمامة والعصمة.

وأبرز ما يهمنا هو ما تضمنه الباب الثامن (كشف عن فتوى الشرع في حقهم من التكفير وسفك الدم) وسنتوقف طويلًا عند هذا الباب. كذلك

---

(1) «طالت خلافة المستنصر ستين سنة وأربعة أشهر، تحقق له في القسم الأول ما لم يتحقق لأحد من أسلافه، إذ خطب باسمه في بغداد بعد أن طرد منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله» صلاح الدين الأيوبي، حسن الأمين، ص92.

(2) يقصد بالحيل الطرق التّي تستخدم في الدعوة. كان الباطنيون يعتمدون على الدعاة في جلب المناصرين، وحيل الدعاة تشمل الدرجات التالية: التفرس، التأنيس، التشكيك، التعليق، الربط، التدليس، التلبيس، الخلع والسلخ. انظر: فضائح الباطنية، ص5.كلمة (داعية) مستخدمة من قبل حركات ومجموعات إسلامية عديدة مثل الزيدية والمعتزلة والعباسيين، غير أن المصطلح اكتسب أوسع تطبيق له مع الإسماعيليين. انظر: الإسماعيليون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامية، فرهاد دفتري، ص91.

يهمنا الباب التاسع التي يقدّم فيه الغزالي البراهين الشرعية على أنّ الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو «الإمام المستظهر بالله»، ويفرد الباب العاشر للحديث عن الوظائف الدينية التي يقوم بها الخليفة.

وقبل الخوض في مضمون ما جاء في كتاب أبي حامد الغزالي، لا بد من تسليط الضوء على السياق السياسي الذي رافق تأليف الغزالي لهذا الكتاب. لأنه كما بدا لنا من خلال استعراض عناوينه، هو دفاع سياسي عقائدي، هو دفاع عن الخليفة العباسي ضد خصومه السياسيين الذين شملهم الغزالي باسم (الباطنية)[1].

كيف كان وضع العالم الاسلامي في تلك الفترة؟ ما الظروف والأحداث التي تزامن معها تأليف الكتاب؟ وكيف كان وضع السلطة السياسية في بغداد والقاهرة؟ وماذا عن الصليبيين أو الفرنجة أو أعداء المسلمين في تلك الفترة؟

الإجابة عن هذه النقاط ستوضح لنا الأفق الّذي كان الغزاليّ يكتب من خلاله، عند تأليفه للكتاب، عام 488 هـ - 1095م. ستجيبنا على سؤالنا، لماذا استخدم الغزالي خطاب التكفير؟

---

(1) الباطنية كما فسرها الغزالي هي خروج على ظاهر الشريعة ورفض لها وتبني عقائد كافرة، فضيحة كما سماها، إلا أنها في حقيقتها كانت ثورة سياسية وفكرية «ومن هنا يمكننا الحكم بأن الإسماعيليين لا يعملون بالتفسير الظاهري فحسب بل يؤولون الشرائع والأحكام والقرآن تأويلًا باطنيًا مأخوذًا عن مصدر ثقة يعتبر بنظرهم ممثل العقل الكلي، إذن فبإمكاننا أن نسميهم «العقليين» أو أهل العقل «Rationalistes» الذين لا يركزون عقائدهم إلا على هذه القواعد مضافًا إلى ذلك أن الحركة الإسماعيلية هي حركة عالمية أو بلغة أفصح هي «نظام فكري» كان الغرض منه قلب النظام السياسي السائد المسيطر على العالم الإسلامي وتحقيق هدف رئيس انقلابي في الأفكار والنظم والمعتقدات» مقدمة عارف تامر، محقق كتاب القاضي النعمان، أساس التأويل، ص16.

السياق السياسي

سنضطر لتقديم خلاصة تاريخية مركزة عن الأحداث السياسية الكبرى التي تزامنت مع تكفير الغزالي للباطنية في كتابه، فهذه الأحداث توضح سياق هذا التكفير الذي اقترن معه التخوين أيضًا، فقد صاغت الخلافة العباسية تحت سلطة السلاجقة عبر أدواتها رأيًا عامًا بين الفقهاء والمؤرخين، يذهب إلى أن الفاطميين كفار وخونة.

وُلِد الغزاليّ بطوس في450هـ - 1058م، وتوفّي في505هـ - 1111م. ورغم أن عمره لم يكن طويلًا، إلا أن إنتاجه كان كبيرًا وضخمًا ومتينًا، وصاغ إشكاليات مهمة ترك أثرها في الجدل السياسي والعقائدي والديني في العالم الإسلامي. عاش في حدود 55 عامًا قضاها متنقلًا بين نيسابور وبغداد وبلاد الشام. وكان أستاذًا بنيسابور في المدارس النظامية[1]، قبل أن ينتقل إلى بغداد، ليكون مدرِّسًا في المدارس النظامية هناك. بعدها خرج سائحًا في رحلة روحية دامت في حدود 11عامًا تنقل فيها بين القدس وبلاد الشام، ثم عاد إلى بغداد ومنها إلى مسقط رأسه طوس وتوفي هناك[2].

عايش الغزاليّ حدثًا تاريخيًّا هامًّا جدًّا، وهو بداية الحروب الصليبية عام (490هـ- 1098م)، واحتلال أنطاكيا ثم القدس واستمرّ هذا الاحتلال ما

---

(1) هي مدارس دينية أقامها الوزير السلجوقي نظام ملك، كانت تعتمد المذهب الشافعي في الفقه وتعتمد المذهب الأشعري في العقيدة، وقد أنشئت بعد انتشار الإسماعيلية ومدارسها في العالم الإسلامي.

(2) يحظى الغزالي بمكانة مهمة في العالم الإسلامي، وقد أمر رئيس الوزراء التركي أردوغان في ديسمبر/كانون الأول 2009، ببناء ضريحه في إيران، عندما زار مشهد.

يقرب 90 عامًا، حتى عام (582هـ - 1187م)، تاريخ تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي.

انتقل الغزالي إلى بغداد في فترة سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية، والسلاجقة كانوا يحكمون باسم الخليفة العباسي كما كان يفعل قبلهم البويهيون[1]. كان الحل والعقد بيد السلطان السلجوقي، أما الخليفة العباسي فكان مجرد رمز لشرعية الخلافة بالنسبة إلى العالم الإسلامي السني في تلك الفترة. إذ إنّ الخليفة العباسي يمثّل الخليفة الشرعي الذي تتوافر فيه مواصفات خليفة المسلمين المتفق عليها بين أغلب الفرق الإسلامية، ومن أهمها أن يكون قرشيًا عربيًا ومن آل النبي، وبالتالي لا يستطيع السلجوقي أو البويهي سابقًا أن يحكم كخليفة للمسلمين، فهذا المقام يحتاج إلى من يمثّله من الناحية الرمزية، فكان الخليفة المستظهر في زمن الغزالي.

بالمقابل، كان هناك الفاطميون[2]، الذين يمتدون إلى فاطمة الزهراء(ع)، وهم علويون شيعة، ينحدرون من نسل الإمام علي، وقد اتخذوا النسل الفاطمي لكي يؤكدوا على أنّهم أولى بالخلافة لأنّهم

---

(1) البويهيون (350هـ_961م) من قبائل الديلم، حكموا جزءًا من إيران والعراق في ظل الخلافة العباسية.

(2) «وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء إلى الزهراء؛ لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي، وأنهم أبناء الوصي علي بن أبي طالب، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها، ويقولون: إن الانتساب إلى النبي من جانب عمه العباس أقرب من جانب علي ابن عمه أبي طالب، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم؛ لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون. أما تغليب اسم الإسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقولهم: إنه هو الإمام بعد أبيه، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين». عباس محمود العقاد، فاطمة الزهراء والفاطميون، ص67.

ينتمون إلى بنت النبي(ص) فاطمة الزهراء، وبالتالي هم أوثق صلة به من العباسيين، أبناء عمومة النبي(ص). من هنا جاءت تسميتهم بالفاطميين، وفي الحقيقة الفاطميون هم علويون أيضًا لأنّهم ينتمون إلى الإمام علي، وهم إسماعيليون لأنّهم آمنوا بإسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق.

في هذه الفترة، من (350هـ ـ961م) إلى (466هـ ـ1074م)، كان الحكم الفاطمي حكمًا قويًا ومتمكنًا في القاهرة. بعدها بدأ هذا الحكم يضعف وجاءت عائلة الجمّاليّ[1]. كان بدر الدين الجمّالي، قائدًا عسكريًا عند المستنصر الفاطمي. والجمّالي أرمني ومملوك، تمكن بسبب قوته العسكرية، من الاستيلاء على السلطة والحكم، فجعل الخليفة الفاطمي مجرد رمز شرعي، كما هو حال الخليفة العباسي في بغداد، وأصبحت عائلة الجمّاليّ هي الحاكمة، وبعد وفاة بدر الدين الجمّاليّ انتقل الحكم إلى ابنه الأصغر (الأفضل) (474هـ ـ 1082م) في العام نفسه، كانت الخلافة في بغداد تنتقل للمستظهر الذي كان يبلغ من العمر 16 عامًا.

وخلاصة القول، توزعت المنطقة بين خلافتين إسلاميتين: عباسية تقابلها فاطمية؛ الأولى اعتمدت في قوتها العسكرية على السلاجقة وكانت المنطقة على أعتاب الدخول الصليبي إلى القدس (قبل خمس سنوات من الحملة الصليبية) والثانية اعتمدت في قوتها على الجمّاليّة في ظل تهديد الغزو الصليبي.

في هذه اللحظة التاريخية المهمة، انقسمت الروايات التاريخية لهذه الأحداث، فمنها ما حمّل الدولة الفاطمية مسؤولية هزيمة المسلمين

---

(1) هي النموذج الأول لحكم المماليك في مصر، فبدر الدين الجمالي، مملوك أرمني. انظر: صلاح الدين الأيوبي، حسن الأمين، ص97.

في القدس واحتلالها، وأخرى اتهمت السلاجقة الّذين كانت شوكة الحكم العباسي بيدهم. وهنا نكتفي بالقول إنّ السّلاجقة جهّزوا حملة كبرى ضمت جيوش العالم الاسلامي وقادها كربوقا[1]، الذي انطلق من الموصل وحاصر أنطاكيا، حيث كان الصليبيون، الذين كانوا في حالة ضعف شديدة، بسبب وضعهم اللوجستي. كان كربوقا يشعر بالزهو ويريد أن يحقق انتصارًا عسكريًا سريعًا وقويًا على الصليبيين، فاختلف أمراء الجيوش ممن كانوا معه وتركوه، فأضحى وحيدًا، فهُزم.

الهزيمة والتخوين

هذه الهزيمة الكبيرة لجيش الخلافة العباسية الذي كان قد جمع جموعه من الموصل حتى بلاد الشام واستطاع أن يحرك العرب والأتراك[2]، جعلت وضع الفاطميين صعبًا. أوكل الفاطميون الأمر لـ «الأفضل الجمالي» فدخل في مفاوضات، لكي يؤمن القدس ويحميها لكنه لم ينجح في ذلك، فاضطر فيما بعد أن يخوض معركة خاسرة ضدّ الصليبيين، فطلب من والي القدس (وكانت القدس والشام تخضعان لسلطة الفاطميين أو الجمّاليّ بصورة أوضح) أن يسمّم الآبار ويغلق الأقنية ليمنع الاستفادة منها، ولكن ذلك لم يحل دون احتلال القدس، وهنا دخل العالم الإسلامي مرحلة رهيبة جدًا من الضياع والشعور بالخوف، وعمّت الفرقة والفوضى العالم الإسلامي في تلك الفترة، ولم يجد مؤرخو الخلافة الإسلامية غير أن يعلقوا سبب هزيمتهم على شماعة الباطنيين (الفاطميين)[3] الكفرة الخونة.

---

(1) هو الأمير قوام الدين أبو سعيد كربوقا بن عبد الله الجلالي، أمير تركماني من مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان، حارب ضد الصليبيين. وعُيِّن أميرًا للموصل.

(2) انظر: حسن الأمين، صلاح الدين الأيوبي، ص106.

(3) ينبغي التدقيق هنا في التسميات، فالفاطميون هم السلالة التي حكمت مصر وحكمت =

قبل ثلاث سنوات من تلك الأحداث، كتب الغزالي (فضائح الباطنية) في ظل ظروف سياسية طغى فيها الخلاف السياسي بين الفاطميين والعباسيين. لم يكتف الغزالي بالنيل من الفاطميين كخصم سياسي، بل قارب القضية من منطلق عقائدي ليخدم أهدافًا سياسية، ولم يجد أفضل من التكفير.

بعد تأليف هذا الكتاب وكتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) الذي يحمل الأجواء التكفيرية نفسها دخل الغزالي في مرحلة جديدة، وساح في العالم الإسلامي وصار يكتب في التصوف بعيدًا عن الكتب العقائدية والفكرية، وتلك مرحلة عبّر عنها في كتابه (المنقذ من الضلال) ولكن هذه التجربة ليس لها علاقة ببحثنا.

مرتبة التضليل والتبديع

بعد استعراض الظروف السياسية والتاريخية التي أتى في سياقها كتاب أبي حامد الغزالي، ندخل إلى نصوص التوحش التي تضمنها الكتاب، وهي النصوص التي تضيق بالمختلف الآخر إلى درجة تكفيره وتضليله وسفك دمه، وهي نصوص الباب الثامن من كتابه «فضائح الباطنية» الذي يوحي عنوانه بالحرب الدعائية على الخصوم السياسيين، إلى حد تحويلهم إلى خصوم عقائديين.

= في المغرب، والإسماعيليون هم أصحاب المذهب الباطني والفاطميون منهم «لم نجد بدراساتنا اي ذكر لتسمية (فاطمية) ويقيننا أن التسمية يجب أن تنحصر بالأسرة التي حكمت الإسماعيلية وهم «الأئمة» وليس في كل ما يمت إلى هذه الفلسفة بصلة، ومن هنا يمكننا أن نقول إن إطلاق لفظة «فاطمية» يجب أن لا تتجاوز الأسرة الفاطمية في عهديها في المغرب وفي مصر، وسبب ذلك كما هو معروف رغبتها بالتقرب من العالم الإسلامي الذي يقدر اسم فاطمة الزهراء ابنة محمد، ومن جهة أخرى تمييزًا لهم عن أولاد علي الآخرين من غير فاطمة. إذن فكل تسمية لأدب أو لفلسفة أو لعقيدة أو لغيرها مما يخص هذه الدعوة فيجب أن لا يخرج عن نطاق كلمة «الإسماعيلية» مقدمة عارف تامر، محقق كتاب القاضي النعمان، أساس التأويل، ص20.

عنوان الفصل نفسه يشي بالتوحش: «في الكشف عن فتوى الشرع في حقّهم من التكفير وسفك الدم»، و(هم) يقصد بها الغزالي الباطنية التي هي فرقة أو فرق من المسلمين، يؤمنون بـ «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله»، قولًا باللسان وعملًا بالأركان، كما يقولون، لكن يتمايزون عن غيرهم كما تتمايز باقي الفرق الإسلامية.

لكن قبل الخوض في نص الغزالي، ينبغي التوقف عند المعيار الذي اعتمده الغزالي لتصنيف الباطنيين بين فئة ضالة وأخرى كافرة.

إن موقف الغزالي من الباطنية، أساسه عدم إيمان هؤلاء إيمانًا يتوافق مع الأرثوذكسية الإسلامية حسب مصطلح المفكر محمد أركون[1]، والغزالي أحد أهم الشخصيات التي صاغت أرثوذكسية إسلام السلطة في نهاية القرن الخامس الهجري. لعب دورًا كبيرًا في بلورتها بما أوتي من قوة في المنطق، وفي الفلسفة، وفي علم الكلام، وأصول الفقه، وقوة في الفقه نفسه، وقوة حتى في التصوّف لاحقًا.

الغزاليّ كان عالِمًا فذًّا، وتوفرت كتبه على حجج مصاغة صياغة خطابية قوية وعلى منهج متماسك، لأنّه درس المنطق دراسة عميقة وكتب فيه، وقرأ الفلاسفة قراءة خلافية، وإن كانت قراءته للفلاسفة انتهت به إلى أن يكفّرهم، باعتبارهم انحرفوا عن طريق الأرثوذكسية المستقيمة[2]، ولكنه

---

(1) مفكر وباحث ومؤرخ جزائري (1928 - 2010)، درّس تاريخ الفكر الإسلامي والفلسفة في جامعة السوربون عام 1980، وعمل كباحث مرافق في برلين عام 1986 و1987وفي العام 1993شغل منصب عضو في مجلس إدارة معهد الدراسات الإسلامية في لندن.

(2) استخدمه المصطلح في السياق العربي الإسلامي المفكر الجزائري محمد أركون. الأرثوذكسية: أي الطريق المستقيم الصحيح الّذي يفرضه الإجماع وتفرضه السلطة كطريق للتدين، وهذه الأرثوذكسية أي الطريق المستقيم أو السّنّة الصحيحة هي موجودة في =

بقي متشبّثًا بحججهم ومنطقهم، أي بآلية إنتاجهم للخطاب، إنّ تلميذ الغزالي (أبو بكر ابن العربي) كان يقول: «شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيّأهم فما استطاع».

هذه المتانة والقوة الّتي توفّر عليها خطاب الغزالي جعلت منه مثبّتًا ومدعّمًا للأرثوذكسية السّنّية في مفهومها للألوهية، وفي مفهومها للخليفة، وفي مفهومها للدين والصراط المستقيم، ومن ثم يتحدد وفقًا لهذه الأرثوذكسية الطريق الصحيح، وبموجبها يتحدد الضلال والبدعة والكفر.

مراتب الغزالي

«لمقالاتهم[1] مرتبتان: إحداهما توجب التخطئة والتضليل والتبديع، والأخرى توجب التكفير والتبري»[2].

= الإسلام والمسيحية، وتسميتها مأخوذة من المسيحية، كما أنها وموجودة أيضًا في اليهودية. غالبًا ما تفرض السلطة في كل دين أو يفرض الإجماع فيه مذهبًا معينًا، معتقدًا معينًا، هكذا تتبلور الأرثوذكسية التي يُفرض على الجميع التقيّد بها، وإلّا اتهم بالضلال.

تبلورت الأرثوذكسية الإسلامية منذ العهد الأموي تقريبًا، وفي العصر العباسي على وجه التحديد، بعد أن أصبح هناك من يؤمن بالأشعرية باعتبارها المذهب الرسمي الّذي اعتنقته الدولة بعد أن تخلّصت من المعتزلة بعد محنة (خلق القرآن) الّتي عُرِفَت في عصر المأمون. وأصبحت المذاهب الأربعة المعتمدة الشافعي والمالكي والحنبلي والحنفي هي المذاهب الرسمية، فتحدّدت الأرثوذكسية الإسلامية بذلك.

كان محمد أركون يجاهد طوال مشروعه النقدي على تفكيك هذه الأرثوذكسية وبيان كيف تكوّنت، وكيف لعبت السياسة فيها، وكيف تمّ فرض رأي واحد أو منهج واحد أو طريق واحد على الإسلام، طبعًا هذا على مستوى العالم الإسلامي، والتي لم يُستثن منها العالم الشيعي.

(1) جمع مقالة، والمقالة في التعبير القديم، يُقصد فيها المعتقد، القول: حين يقول ما قولك في ذلك يعني ما معتقدك في ذلك، ما مقالتك في كذا يعني ما معتقدك في كذا، ونحن الآن في العصر الحديث المقالة هي تعبّر عن الرأي، نقول مقالات الرأي، وفي القديم المقالة هي تعبّر عن الرأي وتعبّر، أيضًا، عن المعتقد وهناك الكتاب الشهير للأشعري «مقالات الإسلاميين».

(2) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 146.

وضع الغزالي الباطنية في مرتبتين: إحداهما توجب التخطئة والتضليل والتبديع، والأخرى توجب التكفير والتبرّي. صنف، في المرتبة الأولى، المعتقدين باستحقاق الإمامة لأهل بيت النبي (ص) الذين يؤمنون بأنّ المستحق لها في العصر الأول كان علي (ع)، وهذا معتقد الشيعة -على مختلف مذاهبهم-. وبموجب هذا المعتقد فإن الأحق بحكم الخلافة الإسلامية في عهده هم الفاطميون لا العباسيين، كون نسبهم يتصل بفاطمة(ع)، فاكتفى الغزالي بتضليل هذه الفئة وتخطئتها.

«فلا يستحل (الباطني) سفك دمائنا ولا يعتقد كفرنا، ولكنه يعتقد فينا أنّا أهل البغي، زلّت بصائرنا عن درك الحق خطأ، اذ عدلنا عن اتباعه، عنادًا ونكدًا. فهذا الشخص لا يُستباح سفك دمه، ولا يحكم بكفره لهذه الأقاويل، بل يُحكم بكونه ضالًا مبتدعًا فيُزجر عن ضلاله وبدعته بما يقتضيه رأي الإمام[1]»[2].

(فنقلات) التكفير

يناقش الغزالي وضع هذ المرتبة، ويبرر سبب عدم تكفير أهل هذه المرتبة، عبر اعتماد آلية خطابية، تقوم على الفنقلات[3]، فيقول: «فإن قيل هلّا كفرتموهم بقولهم إنّ مستحق الإمامة في الصدر الأول كان عليًا دون

(1) ويقصد الغزالي بالإمام أي الخليفة، والخليفة في العصر الّذي يتكلّم عنه هو المستظهر، الذي حاول الغزالي من خلال كتابه إظهار فضائله، لتثبيت خلافته. واللافت أن المستظهر حين تسلّم الخلافة سنة 487 هـ كان يبلغ من العمر16 عامًا، وكتاب الغزالي كُتب عام 488هـ ما يعني أن عمر المستظهر كان يومها 17 عامًا أو كأقصى حد 20 عامًا.

(2) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 147.

(3) تسمى في علم الجدل أو علم الحوار الفنقلات لأنه يورد شبهات الخصم بصيغة (فإن قالوا ... قلنا...) من (الفاء) تُشتقّ كلمة الفنقلة وهي تطلق على الخطاب الذي يعتمد هذه الصيغة من الفرضيات (فإن قالوا ... قلنا ...).



أبي بكر وعمر ومن بعده وأنّه دُفِع بالباطل إلخ... قلنا لا ننكر ما فيه من القحوم [هذه أمور مقحمة] على خرق الإجماع، لذلك ترقّينا من التخطئة المجرّدة إلى التضليل والتفسيق والتبديع»[1].

هكذا يردّ الغزالي، يقول نحن نعرف أنّ في ذلك خرقًا لإجماع الأرثوذكسية، المتمثلة بالمذهب الحق، مذهب أهل السنة والجماعة والطريق المستقيم، والسّنّة الصّحيحة، مذهب الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية، إنّ هذا الرأي فعلًا يخرق الإجماع، ولذلك نحن نقلناه من التخطئة المجردة إلى التضليل. لكن ماذا يعني بالتخطئة المجردة؟

التخطئة المجردة تُطْلَق على الفروع المتعلقة بالمسائل الفرعية، أمّا الخطأ في المسائل الرئيسية فلا يُطلق عليها تخطئة؛ بل يُقال ضلّ ودخل البدعة وارتكب الخطيئة لا الخطأ، لذلك يقول الغزالي ترقينا من التخطئة المجردة إلى التضليل والتفسيق والتبديع، ولكن لا ننتهي إلى التكفير. إذن هذه هي المرتبة الأولى التي للباطنيين.

قذف الخلفاء والكفر

وعلى طريقته في تفريع المسائل وتوضيحها عبر استخدام آلية (الفنقلة) يورد اعتراضًا آخر، فيقول: «فإن قيل: وهلّا كفّرتموهم لقولهم إنّ الإمام معصوم والعصمة عن الخطأ والزلل، وصغير المآثم وكبيرها من خاصّيّة النبوة، فكأنّهم أثبتوا خاصّيّة النبوة لغير النبي، قلنا: هذا لا يوجب الكفر، وإنّما الموجب له أن يثبت النبوة لغيره بعده»[2] يعني الّذي يوجب الكفر أن تُثْبِت النبوة إلى شخص غير النبي وليس أن تعطي العصمة وهي إحدى صفات النبوة.

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص147.

(2) المصدر نفسه، ص148.

ينتقل خطاب الغزالي إلى (فنقلة)أخرى بقوله: «فإن قيل فلو اعتقد معتَقِدٌ فسق أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) وطائفة من الصحابة فلم يُعْتَقَد كفرهم فهل تحكمون بكفره؟ قلنا لا نحكم بكفره أيضًا، وإنّما نحكم بفسقه وضلاله ومخالفته لإجماع الأمّة، وكيف نحكم بكفره ونحن نعلم أنّ الله تعالى لم يوجب على قاذف محصنًا بالزنا إلّا ثمانين جلدة»[1].

إنّ قذف أبي بكر أو عمر بالفسق يعتبره الغزالي، كقذف أي مسلم، وهذا يستوجب الحدّ ولا يستوجب الكفر، لكنه من وجه آخر يستوجب الكفر، وهذا ما سيوضحه في الفنقلات اللاحقة.

هكذا يتنقل خطاب الغزالي عبر الفنقلات، من مسألة إلى أخرى : «لو صرّح مُصرِّح بكفر أبي بكر وعمر ينبغي أن ينزَّل منزلة مَن لو كفّر شخصًا آخر من آحاد المسلمين والقضاة والأئمة من بعدهم؛ هكذا نقول، فلا يفارق تكفيرهم تكفير غيرهم من آحاد الأمّة والقضاة»[2] يعني إن كفّرت أبا بكر وعمر مثل أن تكفر أحدًا من القضاة أو من عامة المسلمين، لأنّ أصل مسألة تكفير المسلم فيها إشكال. إلّا أنّه يقول إن مسألة تكفير أبي بكر وعمر تتمايز في نقطتين:

الأولى: تشكّل مخالفة وخرقًا لإجماع المسلمين.

والثانية: إنه بمثابة تكذيب للرسول، لناحية الأحاديث المنقولة عنه فيما ورد في حقهم من الوعد بالجنة والثناء عليهم والحكم بصحة دينهم وثبات يقينهم.

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص149.

(2) المصدر نفسه، ص149.

إنها استثناءات ملغومة، وذلك يرجع إلى أن الخلافات بين الفرق الإسلامية قائمة أساسًا على فكرة الاختلاف حول خلفاء النبي، وهناك مساحة كبيرة لتأويل عدم الإيمان بصحة خلافة أبي بكر وعمر، بأنه عدم إيمان بأنهما مسلمان أصلًا، أي من السهل أن تفسر عدم إيمان شخص بخلافة أبي بكر وعمر بأنه يراهما كافرين، وهذا من شأنه أن يوسع باب التكفير بدل أن يسده. كما هو الأمر في موقف الشيعة من تكفير الأئمة، فمن يكفر إمامًا من الأئمة الاثني عشر، يعتبر كافرًا، وهناك مساحة كبيرة لتأويل الخلاف حول إمامتهم تأويلًا يقربه من القول بكفرهم.

يتداخل التكفير بموضوع التضليل تداخل الظلال بالظلال، لذلك نجد خطاب الغزالي وهو يتحدث عن مرتبة التضليل تدخل عليها حالات التكفير، ليس لدقة الفرق بل السبب يكمن في عدم حسم قاعدة الكفر على نحو يقطع الأمر على إمكانية تكفير المسلم، والغزالي لا يستطيع أن يحسم قاعدة الكفر لأنه بحاجة لتوسيعها لاصطياد المعارضين السياسيين، لإدخالهم في قوائم التكفير.

التضليل المخترق بالتكفير

في معرض إيضاحه لمن حكم بتضليلهم، يتابع تفاصيل مرتبة التضليل المخترقة بالتكفير:«فما قولكم فيمن يكفّر مسلمًا: أهو كافر، أم لا؟ قلنا: إن كان يعرف أنّ معتقده التوحيد وتصديق الرسول فهو كافر، لأنّه رأى الدين الحقّ كفرًا وباطلًا. فأمّا إذا ظنّ أنّه يعتقد تكذيب الرسول أو نفي الصانع أو تثنيته أو شيئًا ممّا يوجب التكفير فكفّره بناء على هذا الظنّ فهو مخطئ في ظنّه المخصوص بالشخص، صادق في تكفير من يعتقد ما يظنّ

أنّه معتَقَد الشخص. وظنّ الكفر بمسلم ليس بكفر، كما أنّ ظنّ الإسلام بكافر ليس بكفر. فمثل هذه الظنون قد تخطئ وتصيب، وهو جهل بحال الشخص من الأشخاص»[1].

المسألة هنا تتعلق بالتبرير لمن يستخدم خطاب التكفير، حين تكفر شخصًا، فأنت كافر إذا كان هذا الشخص من أتباع الأرثوذكسية التي يعتقد بها الغزالي وينظّر لها، بمعنى حين تكفر شخصًا من أهل السنة والجماعة فأنت كافر، وحين يتعلق الأمر بشخص خارج السنة والجماعة وتظن أن معتقده يمكن أن يؤدي للكفر فكفرته، فأنت حينها مخطئ فقط. فالغزالي في تكفيره للباطنية والفلاسفة مثلًا قد يكون مخطئًا، لكنهم حين يكفرونه فهم ليسوا مخطئين بل كافرون. إنه ما أسميه بالتضليل المخترق بالتكفير، نحن هنا في مرتبة الضلال التي تنزلق بسهولة إلى الكفر.

(فنقلات) الغزالي وافتراضاته تفتح باب التكفير على مصراعيه، باب تكفير المسلم للمسلم لاختلافهما في اعتقاد الألوهية من حيث الصفات أو لاختلافهم في مرجعية الخلافة. مع أن القاعدة الأساسية تقضي بإسلام كل قائل بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، عندما يتم وضع تفريعات واستثناءات و(فنقلات) على هذه القاعدة الواضحة، فإن باب التكفير سيُفتح واسعًا[2].

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص150.

(2) يلفت فاروق ميثا الباحث في معهد الدراسات الإسماعيلية إلى أن الغزالي لم يكن يهدف لضبط قواعد التكفير من سوء الاستخدام، بل هو يريد استخدام التكفير لتثبيت أركان الأرثوذكسية السنية السلجوقية «كان الغزالي على دراية عميقة بالطريقة التحكمية التعسفية التي استخدم بها (التكفير) منذ زمن ظهور الخوارج. لذلك كان حريصًا على صياغة نظرية من الإلحاد لم تكن أهميتها لحماية (التكفير) من سوء الاستعمال، وإنما =



يختم الغزاليّ المرتبة الأولى بافتراض رائع، يحرر الإيمان من إكراهات السياسة (معرفة الخلفاء) يقول: «ليس من شرط دين الرجل أن يعرف إسلام كلّ مسلم، وكفر كلّ كافر...بل إذا آمن شخص بالله ورسوله وواظب على العبادات ولم يسمع باسم أبي بكر وعمر ومات قبل السماع مات مسلمًا. فليس الإيمان بهما من أركان الدين حتى يكون الغلط في صفاتهما موجبًا للانسلاخ من الدين»[1].

الإيمان هنا، لا يتحدّد بمعرفة الأشخاص، هذه عبارة واضحة ورائعة، ولكن روعتها لا تكتمل، لأنّ هناك فرضيات أو فنقلات أخرى في نصّ الغزالي تهدم ما بناه هنا، مثلًا يذهب الغزالي إلى أنّ من يعتقد بكفر أبي بكر يخالف الأحاديث المجمع عليها ومن يخالف الأحاديث المجمع عليها فهو يكذب النبي، وتكذيب النبّي كفر، إن المشكلة ليست في تكفير الخلفاء، وإنما في أن هناك من يخطئ ويؤوّل معتقدات الآخرين على أنّها تكفير للخلفاء ومن ثم يصل إلى أنها كفر وتكذيب بما جاء به النبي وهذا كفر بالله. سيأتي من يؤوّل معتقد المذاهب الأخرى في أبي بكر وعمر ويقول إنّه يعني تكفيرهما، وهو ليس كذلك، ربما هو نقد تاريخي، أو موقف سياسي، أو نقد سياسي فيُصنف في خانة كفر، وبالتالي ندخل في مأزق تكفير المسلمين بعضهم بعضًا.

ألا تعرف باسم (أبي بكر وعمر) لا يؤثر ذلك في إسلامك، لكن أن

= ستخدم كأساس في دعم فكرة (السنة) أو لوضعها بصورة مختلفة، تساعد في تأسيس قيودها وقواعدها الثابتة» فاروق ميثا، الغزالي والإسماعيليون، ص 94.

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص150.

تعرفهما ولا تعترف بهما، فهذا يفتح عليك باب الكفر، هكذا يعيدنا الغزالي إلى مشكلة التكفير العويصة، وهي ربط التكفير بالمقولة السياسية (الموقف من الخلفاء) لا بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وفي النهاية يقول الغزالي بعد أن فتح عنان الكفر: «وعند هذا ينبغي أن يُقْبَض عنان الكلام، فإنّ الغوص في هذه المغاصة يفضي إلى إشكالات وإثارة تعصّبات، وربّما لا تذعن جميع الأذهان لقبول الحق في ذلك»[1].

هذا ما يتعلق بالفئة الأولى، ولكن ماذا عن الفئة الثانية المتعلقة بالمقالات الموجبة للتكفير، هنا المسألة تزداد خطورة والنص يزداد توحشًا، لندخل في منطقة النصوص المتوحشة فعلًا!

مرتبة التكفير

يفتتح الغزالي مرتبة التكفير، بعد أن ينتهي من رتبة التضليل والتبديع التي هي في حقيقتها مخترقة بالتكفير، وتفتح بابًا للتكفير أكثر مما تضع حدًا له، حدًا اجتماعيًا وسياسيًا وفقهيًا. بمعنى أن المعالجة الفقهية والأصولية والسياسية لمرتبة التضليل في خطاب الغزالي، لا تحد من ظاهرة التكفير بين المسلمين، بل إنها تفتح ثغرات يمكن النفاذ منها لإطلاق أحكام الكفر.

تضيع رتبة التضليل في بحر التكفير، بل إنها تصبح مجرد عتبة موصلة لمرتبة التكفير، والعنوان الذي وضعه الغزالي للباب هو «فتوى الشرع في حقهم من التكفير وسفك الدم» يعطي دلالة الغلبة للتكفير على التضليل.

سيذهب الغزالي أبعد في خطاب التكفير في هذه المرتبة، ليشمل

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص150.



كل من يقع خارج المعتقد القادري[1]، سيكون مضمون المعتقد القادري (نحن) أهل السنة والجماعة والطريق المستقيم (الأرثوذكسية) و(هم) من لا يؤمن بمضمون هذا المعتقد من باطنية وفلاسفة.

سيتعمق الانقسام والعداء بهذا الخطاب التكفيري الحاد، سيتعمق ليس فقط بين من يمثلون السنة السلجوقية وبين الشيعة الفاطميين أو الإسماعيليين، بل بين السنة السلجوقية وبين من يشتغل في الخطاب الفلسفي، وضمنًا يدخل الفاطميون في المشتغلين بالخطاب الفلسفي، ذلك لأن الدعوة الفاطمية تقوم على العناية الكبيرة بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة، واستخدام خطابها في بناء شخصية الداعية[2].

حدّد الغزالي أعداء الخليفة (العباسي) بأنّهم كلّ من لا يقف أو لا ينصاع أو لا يقرّ بأنّ خليفة المسلمين هو المستظهر العباسي وخاض مع هؤلاء (الباطنية) معركته الفقهية والعقائدية والفكرية.

---

(1) معتقد الخليفة العباسي القادر، تمّ إعلانه قبل دخول السلاجقة إلى بغداد، لكنهم لاحقًا هم من عملوا على تثبيته «سنة 409 هـ/1018م أصدر القادر رسالته الشهيرة وفيها شرح لعقيدته الدينية، السياسية والشرعية وهي ترتكز على العقيدة السُنيّة الحنبليّة معتبرًا أنها عقيدة الخلافة الرسميّة. قُرئت هذه الرسالة التقليديَّة جدًا والمُعادية للشيعة» فيرينا كليم، مذكرات رسالة: العالم ورجل الدولة والشاعر المؤيد في الدين الشيرازي، ص45.

(2) تقوم الدعوة الإسماعيلية على الدعاة وهم من يبلورون العقيدة وينشرونها ويدافعون عنها، ورئيس الدعاة يسمى (داعي الدعاة) ويقع منصب داعي الدعاة في التراتبية الهرمية مباشرةً تحت إمرة الوزير والقاضي الأعلى أي قاضي القضاة، وتحدد الأدبيات الإسماعيلية بوظائف الداعية على هذا النحو «ينبغي على الدّاعية أن يهتم بحاجات المؤمنين، وإذا دعت الحاجة ينبغي عليه أن يلعب دور الوسيط بينهم وبين الدولة. والدّاعية له السلطة المطلقة في الجماعة فلا السلطان ولا القاضي لهما أية سلطة قانونية على الجماعة. أما المؤمن الذي لا يطيع حكم الدّاعية فيعتبر شاذًا عن الدرب القويم» مذكرات رسالة: العالم ورجل الدولة والشاعر المؤيد في الدين الشيرازي ص182.

في الباب الثامن من كتابه، يتناول الغزالي «فتوى الشرع في حقهم من التكفير وسفك الدم»، ويقصد بعبارته المقالات الموجبة تكفير الباطنية وذلك بعد وقوفه على تخطئة وتضليل فئة منهم.

تكفير المسلم

يرى الغزالي وجوب تضليل المعتقدين بالإمامة، وعصمة الإمام، وبأخذ التعاليم منه فقط، وبالقائلين بفكرة أن الخلافة اغتُصِبَت من هؤلاء الأئمة. أما التكفير فيوجبه تكفير هؤلاء للسنة وإباحة أخذ أموالهم وسفك دمائهم. فبحسب الإمام أبي حامد من قال بكُفر مسلم فهو كافر «لأنهم عرفوا أننا نعتقد أن للعالم صانعًا واحدًا قادرًا عالمًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا حيًّا ليس كمثله شيء، وأن رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما جاء به من الحشر والنشر والقيامة والجنّة والنار. وهذه الاعتقادات هي التي تدور عليها صحّة الدين، فمن رآها كفر فهو كافر لا محالة»[1].

يعتمد الغزالي (الفنقلات) استراتيجية خطابية في عرض تفاصيل حالات التكفير والتضليل، وهي تفصيلات يكمن فيها شيطان التكفير، لنأخذ هذه (الفنقلة)» فإن قيل: لو اعتقد معتقد وحدانية الإله ونفى الشرك ولكنه تصرف في أحوال النشر والحشر بطريقة التأويل للتفصيل من دون الإنكار في الأصل، بل اعترف بأن الطاعة وموافقة الشرع وكفّ النفس عن المحرمات والهوى سبب يفضي إلى السعادة، وأن الاسترسال على الهوى ومخالفة الشرع فيه أمر ونهي يسوق صاحبه إلى الشقاوة، ولكنّه زعم أنّ السعادة عبارة عن لذّة روحانية تزيد لذّتها على اللذّة الجسمانية...»[2].

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 151.

(2) المصدر نفسه، ص 152.

يقصد الغزالي لو أنّ أحدًا اعتقد بوحدانية الإله لكنه بدأ التأويل من دون أن ينكر أصل الألوهية، مثلًا كأن يعتقد بالله ولكنه يرى بأنّ السعادة مسألة روحية، كبعض المتصوّفة الّذين يرون أنّ الجنة والنار والعذاب والوعيد وغيرها هي مجرّد تأويلات، رموز ضُرِبَت في القرآن لعوام الناس، ما حكم هؤلاء؟ هل يقعون في مرتبة الضلال أو مرتبة الكفر؟

النزاع في التفصيل

يقدم الغزالي جواب (فنقلته): «قلنا: أمّا القول بإلهين فكفر صريح لا يتوقف فيه. أمّا هذا فربما يتوقف فيه الناظر، ويقول إذا اعترفوا بأصل السعادة والشقاوة وكون الطاعة والمعصية سبيلًا إليهما، فالنزاع في التفصيل كالنزاع في مقادير الثواب والعقاب، وذلك لا يوجب تكفيرًا، فكذلك النزاع في التفصيل»[1] يتوقف الغزالي فعلاً للنظر، لكن ليس توقفًا عن الحكم، أو امتناعًا عن إصدار التكفير، بل بحث عن مخرج يدخل منه شيطان التكفير.

يقول الغزالي «والّذي نختاره ونقطع به أنّه لا يجوز التوقف في تكفير من يعتقد شيئًا من ذلك لأنّه تكذيب صريح لصاحب الشرع ولجميع كلمات القرآن من أوّلها إلى آخرها، فوصف الجنة والنار لم يتفق ذكره مرة واحدة أو مرتين، ولا جرى بطريق كناية أو توسع وتجوّز بل بألفاظ صريحة لا يُتمارى فيها ولا يُستراب، وأن صاحب الشرع أراد بها المفهوم من ظاهرها»[2].

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية ص 153.

(2) المصدر نفسه، ص 153-154.

من يعتقد أنّ الجنّة والنار والثواب والعقاب إلخ، هي مسائل مجازية، قابلة للتأويل الرمزي، فهذا يعدّ تكذيبًا صريحًا ويجب تكفيره، وهنا هو يفرق بين مصطلح التكذيب والتأويل، فالتكذيب أن تكذّب شيئًا صريحًا، الشيء الصريح لا يحتمل التأويل بالنسبة إليه، وورود الجنة والنار مسائل لا تحتمل أي تأويل، مسائل تصريحية، وحين لا تؤمن بها فأنت تكذّبها.

الصريح والكفر

الصريح في القرآن لا يقبل التأويل، وتأويله يعد تكذيبًا، ومن يكذب صريحًا في القرآن فهو كافر، هكذا يوظف الغزالي معرفته بالمنطق الأرسطي، في صياغة معادلات التكفير، صياغة منطقية، لا تقبل التأويل.

يتوسع الغزالي في موضوع الصريح الّذي لا تأويل فيه، فالألفاظ الواردة في الحشر والنشر والجنة والنار صريحة لا تأويل لها، ولا معدل عنها إلا بتعطيلها وتكذيبها، فلا مجال لأي تأويل فيها. أمّا الموضوعات المتعلّقة، مثلًا، بالصورة، أنّ الله خلق آدم على صورته، ووضع القدم في النار، والاستواء، فيعتبر أنّ هذه المسائل تحتمل التأويل، هو يسميها كنايات وتوسّعات عن اللسان تحتمل التأويل في وصف الذات الإلهية، فهناك الصريح الممتنع عن التأويل، وهناك ما هو قد جرى على اللسان مجرى التشبيه ومجرى المجاز وبالإمكان التأويل فيه.

فإذن، من لا يعتقد بالصريح فهو كافر، ومن لا يعتقد بالأخبار التي وقع عليها الإجماع عند المسلمين فهو كافر أيضًا. يبقى تحديد الصريح وغير الصريح وتحديد المجمع عليه وغير المجمع عليه، مسائل قابلة للاختلاف وقابلة للتوظيف السياسي، خصوصًا موضوع الإجماع، فالسلطة السياسية، يمكنها أن تلعب بموضوع الإجماع، فتعمّم معتقدًا أو رأيًا فقهيًا أو حديثًا

نبويًا، وتحقق حوله إجماعًا، فيتحول إلى أرثوذكسية، تفرض نفسها على الآخرين وترغمهم بأن ينصاعوا لها، أو فالتكفير يسلط عليهم.

إنكار الحور العين

في سياق تدعيم فكرة تكفير من يكذب الصريح يستخدم الغزالي افتراضًا يقول فيه: «لو صرّح مصرّح بإنكار الجنة والنار والحور والقصور في ما بين الصحابة لبادروا إلى قتله واعتقدوا ذلك منه تكذيبًا لله والرسول»[1] يعني لو أن أحدًا في زمن الصحابة أنكر الجنة أو النار والحور العين، لكان يُقتل كونه يكفر بما لدى النبي(ص)، والّذي لا يؤمن بما يقوله النبي فهو كافر، هذه هي الفكرة التي يبني عليها الغزالي رأيه، ويتابع «فإن قيل: لعلّهم كانوا يفعلون ذلك ويبالغون فيه حسمًا لباب التصريح به»[2] أي إن الصحابة كانوا يقتلون هذا الشخص ليس لأنه كذب النبي بل حتى لا تكون هناك بلبلة وتشكيك عبر السماح للآخرين بالتصريح، وخصوصًا أنّ في عهدهم كان زمن تأسيس العقيدة، والمصلحة تقتضي منع أي بلبلة.

يرفض الغزالي هذا التبرير، ويرد على هذا الرأي، والعقيدة قد تمّ تثبيتها ولا خوف عليها، والحكم اليوم ثابت وهو القتل. إن سبب تكفير من ينكر الجنة والنار والحور العين ليس مراعاة مصلحة العوام، وإنما تكذيب الصريح، والصحابة كانوا يعتقدون أن في ذلك تكذيبًا صريحًا لله ولرسوله، وموضوع تكذيب النبي يستدعي الكفر.

«فقد اعترفت بإجماع الصحابة على تكفير هذا الرجل وقتله لأنه مصرحٌ به، ونحن لم نزد على أن المصرح به كافر يجب قتله، وقد وقع الاتفاق

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 154.

(2) المصدر نفسه، ص 154.

عليه، وبقي قولكم إن سبب تكفيرهم مراعاة مصلحة العوام، وهذا وهم وظن محض لا يغني عن الحق شيئًا، بل نعلم قطعًا أنهم كانوا يعتقدون ذلك تكذيبًا لله تعالى ورسوله»[1].

إذن هذه هي المرتبة الثانية، موضوع التكفير هو مرتبة تتجاوز التضليل إلى التكفير. وتحدث حين يعتقد المعتَقِد أو الباطني أو المخالف لمنهج الأرثوذكسية السّنّيّة، بأنّ أتباع هذا النهج نهج أهل السنة والجماعة يجوز تكفيرهم، أو يجوز سفك دمائهم واستحلال أموالهم، وكذلك الّذي يرفض الصريح في القرآن والسنة، ويعتبر أنّ ما ورد في القرآن عن الجنة والنار هو مجرّد مجازات ، وهنا التكفير يتجاوز الباطنية ليشمل آراء الفلاسفة والمتصوّفة.

إن شيطان التكفير الذي يكمن في تفاصيل (فنقلات) الغزالي ارتدّ في ما بعد عليه ، فعلى سبيل المثال، في دولة المرابطين، في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، ثاني الأمراء المرابطين، وصل الأمر إلى أنّهم أحرقوا كتاب الإحياء للغزالي، واعتبروه كتاب ضلال، وهذا لأنّ الغزالي نفسه فتح المجال أمام تكفير الآخرين بناء على تأويلاته، ولم يكتف بمقياس من قال « لا إله إلّا الله محمد رسول الله» لإثبات إيمان أي شخص، وإغلاق باب الكفر بهذه الجملة.

في التكفير ليس الموضوع تكذيب الرسول صراحة، إنما تأويل ما يعتبر تكذيبًا، ولا تكذيب الصريح في القرآن وإنما تأويل ما يعتبر صريحًا في القرآن، ولا تكفير الخلفاء، وإنما تأويل ما يعتبر تكفيرًا للخلفاء، ولا خرق الإجماع وإنما تأويل ما يعتبر خرقًا للإجماع. في هذه التأويلات يكمن شيطان التكفير.

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 154.

بعد آراء التضليل والتي تلاها التكفير ينتقل أبو حامد الغزالي إلى حكم من قُضِي بكفره منهم ليغرق بالتوحش: ماذا يُفعَل به؟ هل يبقى له حق إنساني يحتفظ به أم إنّه مهدر من كل شيء؟

3. توحش أحكام التكفير

لقد كفّر الغزالي مَن يعتبر أنّ الآيات المتعلّقة بالنار والجنة هي آيات مجازية. وكفّر مَن ينكر، الأحاديث الكثيرة الواردة حول فضائل الخلفاء، وكفّر من يكفر الخلفاء، وكفّر من يخالف صريح القرآن، وكفر من يكفر أهل السنة والجماعة، وكفر من ينكر الحور العين، وكفر من يخالف ما أجمع عليه العلماء. واعتبر أن المُضِلُّ هو مَن يعتقد بخلاف ما يعتقده أهل السّنّة.

بعد أن بسط خطاب التكفير، في الفصل الأول من الباب الثامن، يفتتح الفصل الثاني من الباب نفسه بعنوان (في أحكام من قُضي بكفره منهم).

ما هو الحكم الفقهي، أحكام مَن قُضِي بكفره منهم؟

يُوجز الحكم في فقرة واحدة مكثفة، ثم يأتي على تفصيلها: «والقول الوجيز فيه أنّه يُسْلك بهم مسلك المرتدّين في النظر في الدم والمال والنكاح والذبيحة ونفوذ الأقضية وقضاء العبادات»[1] الباطنية بالنسبة إليه مرتدّون، حكمهم حكم المرتدّ في موضوع دمهم، وموضوع مالهم، وموضوع زواجهم، وموضوع ذبائحهم، وموضوع الأقضية (ما قُضِي فيه من أحكام وعقود)، موضوع العبادات (يقضونها أو لا يقضونها).

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص156.



يقرر الغزالي أنّه لا يُسْلك بهم مسلك الكافر الأصليّ، لأنّ الإمام مخيّر مع الكافر الأصلي فممكن أن يمنّ عليه (يُطلقه من غير شيء) أو أن يفديه (بمال أو أسرى) وممكن أن يسترقّه (يصبح عبدًا)، وممكن أن يقتله، لديه كل هذه الخيارات. أمّا المرتدّ فلا يمكن للخليفة أن (يتخيّر فيه)، «لا سبيل إلى استرقاقهم، ولا إلى قبول الجزية منهم، ولا إلى المنّ والفداء، وإنّما الواجب قتلهم وتطهير وجه الأرض منهم - هذا حكم الّذين يُحْكَم بكفرهم من الباطنية»[1].

يتوحش نص الغزالي أكثر من ذلك، فليس شرطًا أن تقتلهم فقط عندما يكونون في حالة قتال معك، بل يقول «نغتالهم ونسفك دماءهم، فإنّهم مهما اشتغلوا بالقتال جاز قتلهم. وإن كانوا من الفرقة الأولى التي لم يحكم فيهم بالكفر، فهم عند القتال يلتحقون بأهل البغي، والباغي يُقْتَل»[2] إنها حرب مفتوحة، لا يحتاج فيها الخليفة إلى تبرير دفاعي أو ما يشبهه، وفي هذه الحرب، يُقتل أيضًا الضالون الذين يلتحقون بمعسكر المرتدين، يُحكم عليهم أنهم التحقوا بأهل البغي في القتال «والباغي يُقْتَل ما دام مقبلًا على القتال وإن كان مسلمًا»[3].

ثغرات القتل

كما في خطاب التكفير ثغرات تفتح الرتق واسعًا لمزيد من إطلاق أحكام التكفير، فإن في خطاب التقتيل أيضًا ثغرات تتيح المزيد من القتل. المجال مفتوح، وتستطيع أن تقول إنّ هذا سيلتحق أو سيكون مقاتلًا، وهذا

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص156.

(2) المصدر نفسه، ص 156.

(3) المصدر نفسه، ص 156.

سيكون باغيًا، ويمكننا أن نستبق ونطبق الحكم عليه، ويمكنك أن تقيس الحالات المشابهة عليه أو يمكنك أن تضم حالات قريبة أو شبيهة تحت العنوان نفسه، وما أسهل هذه الممارسة في الفقه.

يستثني الغزالي المسلم الباغي في حالة فراره من الملاحقة «والباغي يُقْتِل ما دام مقبلًا على القتال وإن كان مسلمًا، إلّا أنّه إذا أدبر وولّى لم يتبع مدبرهم ولم يوقف على جريحهم. أمّا من حكمنا بكفرهم فلا يتوقف في قتلهم إلى تظاهرهم بالقتال وتظاهرهم على النضال»[1] تبدو هذه الحالة الاستثنائية مكرمة من الغزالي، إذا ما قسناها بالأحكام القاسية المتوحشة في هذا الفصل.

عرفنا حكمهم، لكن ما هو حكم نسائهم؟ ما هو حكم صبيانهم؟ كيف نتصرّف معهم؟

بحكم قاطع يقرر «وأمّا النسوان فإنّا نقتلهم مهما صرّحن بالاعتقاد الّذي هو كفر على مقتضى ما قرّرناه[2]، فإنّ المرتدّة مقتولة عندنا... نعم، للإمام

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 156.

(2) لقد قرر الغزالي أن معتقدات الباطنية كفر من دون أن يرجع لكتبهم، وشنع عليهم بأنهم لا يؤمنون بالظاهر (الشريعة) وهذا خلاف ما تقوله كتبهم، فهذا القاضي والفقيه النعمان يقول بالظاهر«وليس الأمر كذلك، ولكن الله تعالى عوّض على آدم حواء بدلًا من إبليس الذي كان مؤهلًا ليكون حجة لآدم كما قلنا، وجعله من الاثني عشر النقباء، لأن أمثالهم في الخلق الظاهر من الإنسان أضلاع الجسد، ولأن الإنسان له اثنا عشر ضلعًا من كل جانب، ومثل الجانب الأيمن مثل العلم الباطن، ومثل الجانب الأيسر العلم الظاهر، والنقباء بعلم الباطن اثنا عشر وكذلك مثلهم بعلم الظاهر. ثم أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجته الجنة، وهي في الباطن حدود الرسل من التأييد، فمن دونهم إلى النقباء. وليس قولنا في هذا وغيره من الباطن نفيًا منا للظاهر كلا إذ إنه مزدوج، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ القاضي النعمان، أساس التأويل، ص59.

أن يتّبع فيه موجب اجتهاده، فإن رأى أن يسلك فيهم مسلك أبي حنيفة ويكفّ عن قتل النساء فالمسألة في محلّ الاجتهاد»[1] النساء يقتلون لأنّهم بالغات ويُؤخذْن على هذا المنحى، هنّ غير مقاتلات ولا باغيات لكنهن معتقدات اعتقادًا قرر الغزالي أنه كفر، ولكن الخليفة أو الإمام يستطيع أن يجتهد ويذهب إلى رأي أبي حنيفة ولا يقتل النساء.

أما بالنسبة للأطفال (الصبيان)، ما الحلّ معهم؟ يقرر في البداية «لا يؤاخذ الصبي، وسيأتي حكمهم»[2] ما هو هذا الحكم الذي سيأتي «مهما بلغ صبيانهم عرضنا الإسلام عليهم، فإن قبلوا قُبِل إسلامهم ورُدَّت السيوف عن رقابهم إلى قُرُبها. وإن أصرّوا على كفرهم متّبعين فيه آباءهم مددنا سيوف الحقّ إلى رقابهم وسلكنا بهم مسلك المرتدّين»[3] الأطفال لا يُقْتَلون مباشرة، فهناك تفصيل، النساء يُقْتَلن مباشرة، ولا يُعرض عليهن الإسلام، الصبيان يُعرض عليهم الإسلام، فإن قبلوا وإلا قتلوا. هذا هو حكم الأرواح، محكومة بسفك الدم، نصّ في غاية التوحش ، قتل للإنسان وزوجته وابنه على معتقده، وموقفه السياسي.

حكم أموالهم

نأتي الآن إلى المال، ما حكم أموال الباطنيين (المرتدّين)؟ إذا وقع الظفر بهذه الأموال «ما وقع الظفر به من غير إيجاف الخيل والركاب فهو فيء، كمال المرتد»[4] يعني إذا أنت تمكّنت من الاستيلاء على أموالهم من

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 156.

(2) المصدر نفسه، ص 156.

(3) المصدر نفسه، ص 156.

(4) المصدر نفسه، ص 157.

غير القوة فهو فيء، فيوزّع بحكم الفيء، وأمّا إذا «استولينا عليه بإيجاف خيل وركاب، فلا يبعد أن يُسْلك به مسلك الغنائم»[1] هي قواعد القتال مع الكفار نفسها «ومما يتعلق بالمال أنهم إذا ماتوا لا يتوارثون فلا يرث بعضهم بعضًا، ولا يرثون من المحقّين، ولا يرث المحقّ ما لهم إذا كان بينهم قرابة، بل ولاية الوراثة منقطعة بين الكفار والمسلمين»[2] هكذا يجرد خطاب الغزالي التكفيري التقتيلي، الإنسان من دينه وحياته وماله وإرثه، لا يعود إنسانًا.

حكم نكاحهم

وبالنسبة للنكاح، «أما أبضاع نسائهم فإنها محرّمة»[3] لا يحلّ نكاح مرتدّة ولا باطنية «فكما لا يحلّ نكاح مرتدّة لا يحلّ نكاح باطنية معتقدة لما حكمنا بالتكفير بسببه من المقالات الشنيعة الّتي فصّلناها»[4] ثمّ يفصّل، موضوع العدة والعادة والمسيس (النكاح) إن كانت هي قد التحقت بالباطنية قبل أو بعد، لكن في كل الأحوال عقدها يصبح باطلًا، بمعنى أنّ الشخص بمجرّد أن يلتحق بهؤلاء فإنّ عقده مع الإنسانية يصبح باطلًا، تنتفي الإنسانية منه، فلا يصبح إنسانًا.

وبالنسبة للذبائح، فإنّ «الذبيحة والمناكحة تتحاذيان»[5] فكما لا يجوز لك أن تنكح منهم لا يجوز لك أن تأكل من ذبائحهم.

---

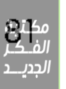
(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 157.

(2) المصدر نفسه، ص 157.

(3) المصدر نفسه، ص 157.

(4) المصدر نفسه، ص 157.

(5) المصدر نفسه، ص 158.



ويبقى موضوع الأقضية، تعتبر باطلة غير منعقدة، ولو قمت بعقد بينك وبين شخص تبيّن أنّه مرتدّ، يصبح هذا العقد باطلًا وأنت غير ملزم به «وأما أقضية أحكامهم فباطلة غير نافذة وشهادتهم مردودة، فإن هذه الأمور يشترط الإسلام في جميعها»[1].

توبة المرتد

يتوسع الغزالي في موضوع قبول توبة الباطني، ويخصص لها فصلًا، هو الفصل الثالث (في قبول توبتهم وردها) يقول «قبول التوبة من المرتدّ لا بدّ منه، بل الأولى ألّا يبادر إلى قتله إلّا بعد استتابته وعرض الإسلام عليه وترغيبه فيه. وأمّا توبة الباطنية (لاحظ هنا هو ألحقهم بالمرتدّين ولكن في موضوع التوبة لا) وكلّ زنديق مستتر بالكفر يرى التقيّة دينًا ويعتقد النفاق وإظهار خلاف المعتقد عند استشعار الخوف حقًا - ففي هذا خلاف بين العلماء»[2].

في كل الأحكام، ألحقهم بأحكام المرتد، لكن في حكم التوبة وقبولها، توقف عن تطبيق أحكام المرتد، التي تفترض قبول توبته، تُعْرَض على المرتدّ التوبة ولكن في الباطنيّ، هناك أقوال، القول الأول: قول العلماء الّذين ذهبوا أن تُعْرَض عليه التوبة على اعتبار «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها» لكنّ الغزالي لا يأخذ هذا الرأي، ويذهب أنّه لا تُقْبَل توبته لأنّ «هذا الباب لو فُتِح لا يمكن حسم مادّتهم وقمع غائلتهم، فإنّ من سرّ عقيدتهم التدين بالتقية والاستسرار بالكفر عند استشعار الخوف. فلو سلكنا هذا المسلك

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 158.

(2) المصدر نفسه، ص 160.

لم يعجزوا عن النطق بكلمة الحق وإظهار التوبة عند الظفر بهم»[1] إنه لا يقبل توبته لأنّ التقية عين دين هذا المرتدّ الباطني[2]، فبهذه الطريقة لن نتخلّص منهم، ولذلك هو يذهب أنّهم لا يُستتابون، ولكنّه يوضّح مجموعة من الاحتمالات:

الاحتمال الأول: أن يسارع الشخص إلى إظهار التوبة من غير قتال ولا إرهاق ولا اضطرار، ولكن على سبيل الإيثار والاختيار متبرّعًا به ابتداء من غير خوف، هذا تُقْبَل توبته.

الاحتمال الثاني: شخص تاب ولكنه عامّي عادي وهو مع المصلحة، فعندما وقعت مصلحته مع الباطنيّة صار معهم، ومعروف كما يقول الغزالي أنّ العامي سريع التقلّب فنصدّقه في انقلابه إلى الحقّ كما نصدّقه في إضرابه عنه، إذا ظهر عن معتقده خلاف الحقّ، هذا الشخص العامي لو تاب، حتى لو تحت ظلّ السيف، تُقْبَل توبته.

الاحتمال الثالث: أن يكون واحد من الدعاة[3]، فتقبل توبته إذا كان

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 160.

(2) ينبغي هنا توضيح مسألة الإيمان بالظاهر، فالغزالي في تشنيعه على الإسماعيليين، اعتبرهم لا يؤمنون بالظاهر، وأنهم يسترون عقائدهم الهدامة، وهذا خلاف ما سطره داعي الدعاة الإسماعيلي الفاطمي الذي كتب كتابه (دعائم الإسلام) قبل ولادة الغزالي بأكثر من قرن «كنا قد بسطنا كتابًا للمستجيبين الى دعوة الحق، المعتصمين بحبل خالق الخلق، المتمسكين بالعروة الوثقى، الملازمين للطريقة المثلى، في ظاهر علم الشريعة سميناه كتاب (دعائم الإسلام) ذكرنا فيه حدود الإيمان، والفرق بينه وبين الإسلام، وواجب الولاية والدلالة على ولاة الامر، ولوازم الفرض، وأبواب الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، ليعلم المستجيبون ذلك من أمر ظاهر دينهم، ويعتقدونه ويعملون به، وأن لا يخالفوه ولا يتركوه، إذ هو أول حدود التعليم، وأدنى درجات العلم والتفهيم» القاضي النعمان، أساس التأويل، ص23.

(3) على عكس ما يوحي به كلام الغزالي، فالداعية في التنظيم الإسماعيلي، شخصية تختار بعناية =

اتّخذ الدعوة «طلبًا للرياسة وطمعًا في حطام الدنيا»[1] يعني ركب مع الموجة وأراد أن يستفيد منها.

هذه هي الحالات الّتي من الممكن أن تُقْبَل التوبة فيها، وفي الحقيقة كلّها مورد تقديرات وتأويلات، يمكن لأي تكفيري أن يعتبر أي شخص خارج السنة والجماعة كافرًا مرتدًّا، ويقرر أنّ توبته لا تُقْبَل لأنّه يستبطن شيئًا. حتى الاحتمالات الثلاثة التي وضعها الغزالي أو وضع حكمًا فيها بجواز قبول التوبة فبالإمكان أن تُغلَق عمليًا، فبإمكانك أن تنقلها من مرتبة إلى مرتبة بمجرّد تأويل حالة ما، بإمكانك أن تقول إنّ هذا العامّي الّذي جاء وأعلن التوبة من غير حدّ سيف، ربما أتى ليكون جاسوسًا أو ليمارس عملًا عدائيًا مستترًا، فيجب أن نقتله ابتداء من غير استتابة، أو تقول إنّ هذا الشخص العامي الّذي أسلم تحت ظلال السيف وتاب الآن لا نقبل توبته. الغزالي يسامحه ويقول ربما التحق بهم للمصلحة فلا بدّ أنّ مصلحته الآن تتحقّق بالتوبة فنقبل توبته، لكن هناك من قد يؤول التوبة على أنها من باب التقية وإنّما تاب من أجل أن يمارس خداعًا معينًا.

عمومًا، كون باب التكفير، نصّ التكفير، قد فُتِحَ على مصراعيه، أو فُتِحَ

= شديدة وحسب مؤهلات فكرية وقيادية وروحية، وهناك تراتبية هرمية للدعاة وتنظيم صارم، في الرسالة الموجزة الكافية في (آداب الدعاة) لأحمد بن إبراهيم النيسابوري، يطلب من الداعية أن يراقب بحذر كل عضو من الجماعة وأن يصغي إلى كلامه ويقرر من منهم يصلح للدين، وفي سياق بيان وظائف الداعية يقول: يحضر المؤمنون ليشاركوا الداعية في تلاوة القرآن والصلاة، وفي المجلس يقوم الداعية بتثقيف مريديه... وعلى الداعية أن يتيقن من طاعة المؤمنين ومحبتهم ووفائهم للإمام، إذا أعلن الجهاد على أفراد الجماعة أن يتبعوه ويسلموه أموالهم كما يودعوا أرواحهم بين يديه فنجاتهم في طاعته.انظر: فيرينا كليم، مذكرات رسالة، ص179.

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 163.

بمحدّدات سهلة الخرق، غير المحددات الّتي وضعها النبي حين قال: إنّ من قال لا إله إلّا الله محمد رسول الله فإنّه يعصم حياته ويعصم ذمّته من سيفي، حين تتجاوز هذا الحدّ وتدخل في التفاصيل فإنّ هذه التفاصيل تفتح مجالًا لعمل الكفر ولعمل السيف.

نص التكفير لا يموت

من هنا نقول: إنّ هذا النص الّذي تركه الغزالي لنا في التعامل مع المختلفين سياسيًا في لحظة صراع سياسي، يؤسّس لحالة تفتح مجال التكفير على مدى الزمان، لأنّ الغزالي لم يشرع لحرب هؤلاء لأنّهم فقط باغون، أو لأنّهم ضدّ الدولة، أو لأنهم أعداء، وإنّما هو أسّس نصًا خطيرًا في تكفيرهم[1]. نص التكفير يبقى لأنّه بمثابة الحكم الشرعي، أو الفتوى، فبالتالي هذا الحكم يبقى ما بقي الزمان، ويمكن أن نستخدم نص الغزالي حينما نريد، مثلًا، أن نكفّر جماعة معيّنة، ولكن الخلاف السياسي لا يبقى، فمن كانوا يقفون ضدّ (المستظهر) ليسوا موجودين الآن، هم كانوا مختلفين معه سياسيًا، وتم توظيف الدين لتدعيم مشروعية كل طرف مختلف.

نصّ التكفير يبقى ويُستَخدم ويولّد نصوصًا أخرى، ويجعل الاختلافات السياسية حالة عداء لا تنتهي، في حين الخلاف السياسي قد ينتهي.

---

(1) هنا، ممكن أن نستذكر موقف الإمام علي في طريقة تعامله مع المختلفين معه من الخوارج، وهم خرجوا عليه وكفّروه فلم يقل عنهم إنّهم كفّار أبدًا. فقد سئل عن أهل النهروان هل كفروا؟ قال: «من الكفر فروا، قيل: فمنافقون؟ قال: إنّ المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وهؤلاء تحقرون صلاتكم بجانب صلاتهم. قيل: ماذا تقول فيهم؟ قال: قوم تأولوا فأخطأوا»[المجموع للنووي: ج19 ص193].وقد وضع الإمام علي حدًّا بينهم وبين المجتمع «كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا ولا تقطعوا سبيلًا ولا تظلموا أحدًا» [سبل السلام: ج3 ص260].

4. اقتصاد التكفير

الكتاب المكمل لنصوص توحش كتاب (فضائح الباطنية) هو نصوص كتاب الغزالي (الاقتصاد في الاعتقاد). يفصل في هذا الكتاب مراتب الُمكفَّرين، يبدو وكأنه استكمال للفصل الّذي كتبه في الباب الثامن من (فضائح الباطنيّة) الذي عرض فيه لمرتبة التضليل والتبديع ومرتبة التكفير. هنا يوسّع مراتب الذين يكفرهم، وتضم هذه المراتب الباطنية وغير الباطنية، وهذه التوسعة تقدم لنا فكرة أشمل عن طبيعة (الأرثوذكسية/النظامية/السلجوقية/السنية) في موقفها الفكري والعقائدي من المختلف معها، وعن الفئات المستهدفة بالتكفير من قبلها.

كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» في حقيقته كتاب في عقيدة أهل السّنّة والجماعة وفق العقيدة الأشعرية. هو يمثّل ما أسميناه الأرثوذكسية الدينية السّنّيّة خير تمثيل، أي الّتي تعتقد أنّ هذا هو الطريق المستقيم الصحيح الّذي يؤمّن الإنسان من الضلال والكفر.

هذا الكتاب هو آخر إنتاج للغزاليّ قبل تخلّيه عن التدريس في المدارس النظامية ودخوله مرحلة العزلة الروحية، وقد أنتج خلالها كتبًا مهمّة وقد تركت وما تزال أثرًا بالغًا في العالم الإسلاميّ، ولعلّنا نتذكر أهمها (إحياء علوم الدين). لكن قبل هذه المرحلة كتب أسوأ كتبه، وفيها كتب «تهافت الفلاسفة»، وقد كتبه قبل «الاقتصاد في الاعتقاد» وقبل «فضائح الباطنية»،

كان عمره ما بين 39 سنة إلى 40 سنة، وفي (تهافت الفلاسفة) كفّر الفلاسفة ووجّه ضربة موجعة إلى الفلسفة في عصره قبل أن يأتي في ما بعد ابن رشد ويكتب في زمن الموحدين كتابه «تهافت التهافت».

نحن نعرف أنّ المدارس النظامية هي مدارس أُنشِئَت في بغداد وفي نيسابور وقد أنشأها ألب ارسلان، مؤسّس الدولة السلجوقية، وتولّى زمامها الغزالي في نيسابور ثمّ في بغداد.

مواجهة الدعاة

وفي الحقيقة إنّ هذه المدارس أُنشِئَت لمواجهة المدّ التعليميّ لدعاة الباطنية أو جماعة حسن الصباح أو جماعة الفاطميين، أو الإسماعيليين وهي التسمية التي تجمع الجميع. هذه الجماعة لم تكن تسير وفق عقيدة أهل السّنّة والجماعة أو طريق الأشعريّة. هؤلاء كان لديهم تعاليم ومؤلّفات كما لديهم اهتمام بالفلسفة، ويعقدون حلقات تدريس نشطة، وبالتالي كانوا يمثّلون موجة فكرية عارمة ومثيرة جدًا، فأراد ألب ارسلان أن يواجه هذا المد ليس على الصعيد العسكري وحسب إنّما أراد أيضًا أن يواجهه فكريًا وتربويًا، فأنشأ هذه المدارس، وكان الغزاليّ بمثابة العقل النظريّ المشغّل لها.

يتناول الغزالي في الباب الرابع من كتابه بيان من يجب تكفيره من الفِرَق. هو يقول «للفِرَقِ في هذا مبالغات وتعصّبات. فكلّ طائفة تنتهي أحيانًا إلى تكفير كلّ فرقة سوى الفرقة الّتي تنتسب إليها. وإذا أردنا الوصول إلى الحقيقة فعلينا أن نعلم أوّلًا المسألة الفقهية والأصل المقطوع بها أنّ كلّ من كذّب محمدًا فهو كافر، أي مخلّد في النار بعد الموت، ومستباح

الدم والمال في الدنيا»[1] طبعًا هذا أصل فقهيّ مقطوع وقاطع بالنسبة للغزاليّ. إنّ نصوص التوحش تستند إلى أصول مبالغ في ضيقها، فكلّ من كذّب النبي محمدًا فهو كافر ولكن سنجد من خلال تفاصيل مراتب التكفير، أنّ موضوع التكذيب هو موضوع تأويلي، فحين تؤوّل أنت كلام فرقة من الفرق على أنّها تكذّب النبي، فستكفّرها، فأنت هنا تقيم الكفر على تأويل ولا تقيمه، كما تقول، على أصل مقطوع ولا أصل قاطع.

لنر ما هي مراتب الفِرَقِ الّتي يكفّرها؟[2].

مراتب الكفر

رتب الغزالي مراتب الكفر حسب درجة وضوح تكذيبها للرسول والقرآن، ودرجة التكذيب تتوضح حسب الجهد التأويلي الذي يقوم به الغزالي، بمعنى أن التكذيب ليس معطى، بل هو مبني، وقدرات الغزالي المنطقية والأصولية منكبة من بناء خطاب التكفير عبر اللعب بفكرة التكذيب.

المرتبة الأولى: هم اليهود والنصارى وأهل الملل وعبدة الأوثان والمجوس. فبالنسبة إليه هذا موضوع مفروغ منه، لأنّهم لا يؤمنون بالنبي، وبالتالي هم يكذّبون النبي ويعتبرونه بمثابة المتنبّئ وليس نبيًا، أي لا يقولون إنّه قد جاء من الله سبحانه وتعالى.

المرتبة الثانية: هم البراهمة المنكرون لأصل النبوّات والدهرية المنكرون لصانع العالم، فهؤلاء أيضًا كذّبوا النبي وغيره من الأنبياء، فبالتالي

---

(1) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص175.

(2) انظر الباب الرابع: بيان من يجب تكفيره من الفرق، من كتاب الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص175.

هم أيضًا كفّار، وهم أولى بالتكفير بالنسبة إليه من النصارى واليهود لأنّهم، على الأقلّ، أهل كتاب.

المرتبة الثالثة: الّذين يصدّقون بالصانع (أنّ الله صانع العالم) والنبوّة، ولكن هم يعتقدون أمورًا تخالف نصوص الشرع «هؤلاء هم الفلاسفة، ويجب القطع في تكفيرهم في ثلاث مسائل»[1] الفلاسفة يعتقدون بالله ويعتقدون بالنبوة ويعتقدون بالنبي، ولكن هم بالنسبة إليه كفّار، فباعتقاده يكذبون على النبي، وهو الأصل الّذي أقام عليه فكرة التكفير، لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أنهم ينكرون الحشر، حشر الأجساد والتعذيب بالنار، يعتبرونها مجرّد أمثلة ومجازات في القرآن.

السبب الثاني: يقولون إنّ الله لا يعلم بالجزئيات وإنّما يعلم بالكلّيّات ولا يعرف تفاصيل الحوادث، وإنّ هذه التفاصيل تعلمها الملائكة في السماوات العليا.

والسبب الثالث: هو قولهم إن العالم قديم وإن الله متقدم على العالم بالرتبة مثل تقدم العلة على المعلول، وإلا فلم تر في الوجود إلا متساويين.

لهذه الأسباب يكفّرهم «لأنه [الفيلسوف] عرف قطعًا من الشرع أنّ من كذّب رسول الله فهو كافر، وهؤلاء مكذّبون ثمّ معلّلون للكذب بمعاذير فاسدة، وهذا لا يخرج الكلام عن كونه كذبًا»[2] يعني فلسفتهم وتعليلاتهم وتأويلاتهم يعتبرها ضدّهم وأنّ إيمانهم بالله والنبي لا يشفع لهم، فهؤلاء كفّار.

---

(1) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص176.

(2) المصدر نفسه، ص176.

المرتبة الرابعة هي مرتبة المعتزلة والمُشَبِّهة والفرق كلّها سوى الفلاسفة، لأنّ الفلاسفة قد ذكرهم في المرتبة الثالثة. هؤلاء الّذين يصدّقون بالإله وبالنبي، ولا يجوّزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب بل بالتأويل. يكفرهم لأنهم مخطئون في التأويل «فهؤلاء يجب الاحتراز من تكفيرهم لأنّ الخطأ من ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم مسلم»[1] يعني أن تخطئ فلا تكفّر ألف كافر أهون من أن تخطئ في سفك دم مسلم. تقرأ هذه الجملة وتجدها جملة عظيمة، ولكن في خطاب الغزاليّ كأنّها تعوم وتختفي في بحر التكفير الّذي ينبع من نصوصه.

إذا كان الغزالي محترزًا بقدر أنه مستعد أن يتحمل وزر الخطأ في عدم تكفير ألف كافر، وقد كفر كل هذه الفئات، فكيف لو كان غير محترز؟

المرتبة الخامسة: هي من ترك التكذيب الصريح، ولكن ينكر أصلًا من أصول الشرعيات المعلومة بالتواتر عن رسول الله. مثلًا، من يقول إنه يعترف بوجود الحجّ، لكن لا يدري أين مكة وأين الكعبة. فهذا ينبغي أن يحكم بكفره لأنّه مكذِّب ولأنّه محترز عن التصريح. يعني هو لم يصرّح بكذبه ولكنّه كاذب، لأنّ هذه المسائل كلّها مسائل مجمع عليها ومعروفة، وكأنّ الغزاليّ يلاحقه ويضيّق عليه، يقول له أنت إن لم تكن تصرّح بكذبك، فنحن سنلاحقك وسنضع لك مرتبة تليق بطبيعة كذبك. وكأنّ كلّ مرتبة هي تكييف أو تأويل من الغزالي يربطها بالكذب الّذي جعله معيارًا للكفر.

---

(1) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص176.

المرتبة السادسة: تشمل كلّ من ينكر ما عُلِمَ صحته بالإجماع، والإجماع مسألة خطيرة[1]، فممكن أن يكون لعبة سياسية تعمل السلطة على ترويجها وتصيّرها إجماعًا، وهنا يستشهد بالنّظّام المعتزلي[2]، فيقول إنّ النّظّام الّذي أنكر كون الإجماع حجة قاطعة في أصله، فكلّ ما يُسْتَشْهَد به من الأخبار والآيات له تأويل، وهو في قولهم خارق لإجماع التابعين، ويعتبر هذا محلّ اجتهاد منهم فهذا يمكن أن يؤدي إلى أمور شنيعة، مثلًا لو قال قائل يجوز أن يُبْعَث رسول بعد نبيّنا محمد فبهذا يكون قد أبعد تفكيره عن التوقف في إرسال الأنبياء. وطبعًا استحالة إرسال الأنبياء، يقول إنّها مستمدّة من

---

(1) يُمثِّل الإجماع مصدرًا من مصادر التشريع، وقد اكتسب بهذا التمثيل دورًا هامًّا في تاريخ علم الأصول، وأخذ بفعل هذه الأهميّة، يمثّل سلطة على تفسير الأصوليّين، فلم يكن أحد يجرُؤ على مخالفة الإجماع في أي مسألة دينيّة. وهذا ما عزّز من سلطته المعرفيّة، خصوصًا بعد ما قعّد له الأصوليّون في علمهم ابتداء من رسالة الشافعي الذي كان يفسّر معنى أمر النبي (ص) بلزوم الجماعة بقوله: «ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليهم جماعتُهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما. ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتَهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أُمِرَ بلزومها، وإنما تكون الغفلة في الفرقة، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافةً غفلةٌ عن معنى كتابٍ ولا سنّةٍ ولا قياسٍ إن شاء الله» الشافعي، الرسالة، ص475-476.

(2) هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ النظّام البصري، وُلد(185 هـ/777م) في البصرة، تتلمذ على يد أبي هذيل العلاف في الاعتزال، ثم انفرد عنه وكوّن له مذهبًا خاصًا (النظامية) وهي على عكس منهج المدرسة النظامية التي أسسها الجويني والغزالي ونظام الملك، وكان أستاذ الجاحظ، توفي وهو شاب في نحو السادسة والثلاثين من عمره سنة 221 هـ/836م في بغداد. هو الشخصيّة الثالثة للمعتزلة ومن متخرّجي مدرسة البصرة للاعتزال. « الأوائل يقولون : في كلّ ألف سنة رجل لا نظير له. فإن كان ذلك صحيحًا فهو : أبو إسحاق النظّام » أكثر مصادر الأفكار التي اتهمته بالانحراف والضلال والكفر هي كتب الأشاعرة كـ «مقالات الإسلاميين » للأشعري، و« الفرق بين الفرق » وغيرهما من كتب الأشاعرة الّذين ينظرون إلى المعتزلة بعين العداء. له كتاب «النُكت» وفيه أثبت أن الإجماع ليس بحجة، ولعل من جاء بعده كابن حزم الظاهري تأثر به في القول باستحالة إمكان الإجماع عادة، ونفي القياس.

الإجماع لا محالة، فإنّ العقل لا يحيله. فإذن الرتبة السادسة تختصّ بالّذين ينكرون الإجماع على الأمور العقديّة الّتي تمّ الاتفاق عليها.

الطريق الصحيح

إذن، هذه هي المراتب الّتي تستوجب الكفر عند الغزاليّ، إنّ هذه المراتب لم توفّر أحدًا، كأنّه وضع السيف أو الحد القاطع بين الطريق الّذي يمثّل السّنّة وأهل الجماعة أي الأرثوذوكسية الإسلامية المعممة من السلطة، وبين الفروع (طوائف، فرق، اتجاهات كلامية وفلسفية) التي تحاول الخروج عليها أو منها، قطعها تمامًا، لقد عبّد الطريق الواحد (السنة الأشعرية لأهل الجماعة) وأوضح معالمه وصراطه، من يمشي على هذا الطريق فهو المسلم وإلا فهو كافر.

إرث نصوص التكفير

هذا النص بهذا الوضوح الّذي بلوره الغزالي فتح أصلًا مؤسّسًا لفكرة التكفير، وهو خطير لأنه مبنيّ على قواعد شرعيّة وعقديّة، وخطاب عالِم قريب من السلطة، بل هو جزء من السلطة وهنا المسألة أشد خطورة من الخوارج، فالخوارج لم ينتجوا نصوصًا، كانوا فِرَقًا تتحدّث وتجادل وتعمل ولكن لم تترك لنا نصوصًا مكتوبة كما هو حال نصوص الغزالي. من هنا، يمثّل كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» وكتاب «فضائح الباطنية» نصًا متوحشًا.

لقد اقتصد في هذين الكتابين حالات التكفير وتفاصيلها في هذه المراتب، وضع مخططًا مقتصدًا (ملخصًا) وكأنه خارطة طريق لتعرف السلطة أعداءها الخارجين على سنتها (مذهبها) المجمع عليها.

الفاروق بين الكفر والإيمان، هو الخليفة المستظهر، هذا ملخص الباب التاسع من كتاب الغزالي (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) وقد عنونه (في إقامة البراهين الشرعية على أن الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا هو الإمام المستظهر بالله، حرس الله ظلاله).

الإمام القائم بالحق، الواجب على الخلق طاعته وفق الغزالي هو (المستظهر) كان خليفة المسلمين في بغداد سنة (487 هـ/1094م)، قبيل الحملة الصليبية على بيت المقدس بما يقرب خمس سنوات.

الخليفة ابن 17 عامًا

والخليفة المستظهر هو أحد خلفاء بني العباس في فترة الحكم الصوري الشكلي، حين كانت السلطة فعليًا بيد السلاجقة. تسلّم المستظهر الخلافة بعد وفاة أبيه، وكان عمره 16 عامًا، والغزالي عندما كتب هذا الكتاب في سنة (488هـ /1095م) كان عمر المستظهر 17 عامًا تقريبًا وربّما لم يدخل سنّ البلوغ في لحظتها، مع ذلك فالإمام الواجب الطاعة هو ابن السبعة عشر عامًا «وأنه يجب على كافة علماء الدهر الفتوى، وعلى البتّ والقطع، بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أقضيته بمنهج الحق، وصحة توليته للولاة وتقليده للقضاة، وبراءة ذمة المكلفّين عند صرف حقوق اللّه تعالى إليه، وأنه خليفة اللّه على الخلق، وأن طاعته على كافة الخلق فرض»[1].

يستنفر الغزالي جميع قدراته الأصولية والمنطقية لبيان (فضائل المستظهرية) بالقدر الذي يفوق ما بذله في فضح الباطنية وإثبات كفرهم

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص169.



ووجوب سفك دمهم، بل عملية فضح الخصوم هي جزء من عملية إثبات فضائل الخليفة، فالأشياء بضدها تبان، يقول الغزالي: «هذا باب يتعين- من حيث الدين- صرف العناية إلى تحقيقه وإقامة البرهان على منهج الحق وطريقه، فإن الذي يسير إليه كلام أكثر المصنفين في الإمامة يقتضي ألا نعتقد في عصرنا هذا وفي أعصار منقضية خليفةً غير مستجمع لشرائط الإمامة متصف بصفاتهم فتبقى الإمامة معطلة لا قائم بها، ويبقى المتصدي لها متعديًا عن شروط الإمامة غير مستحق لها ولا متصفًا بها وهذا هجوم عظيم على الأحكام الشرعية وتصريح بتعطيلها وإهمالها، ويتداعى إلى التصريح بفساد جميع الولايات وبطلان قضاء القضاة وضياع حقوق الله تعالى وحدوده وإهدار الدماء والفروج والأموال، والحكم ببطلان الأنكحة الصادرة من القضاة في أقطار الأرض، وبقاء حقوق الله تعالى في ذمم الخلق»[1].

كل شيء دون الخليفة باطل

كل شيء باطل في عصر الغزالي بدون اتباع الخليفة المستظهر، ودون الإقرار بهذا الخليفة، فالإمامة تكون مغتصبة كما هو حال إمامة الفاطميين، والأحكام الشرعية معطلة، وأحكام القضاة والأنكحة باطلة، وولاية الولاة فاسدة، أي إن كل شيء فاقد للشرعية بدون الخليفة المستظهر.

وقبل أن نستعرض الحجج والبراهين الّتي يقدمها الغزالي على إمامة المستظهر، لنسأل السؤال التالي: ما هي علاقة موضوع نصوص الكفر بموضوع نصوص الخليفة؟ ما علاقة الباب التاسع المتعلّق بشرعية الخليفة المستظهر بكلّ ما ورد في الأبواب من الباب الأول إلى الباب الثامن حول

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص169.

عقائد الباطنية وتكفيرهم، وحول الأحكام المتعلقة بسفك دمهم، وبإمكانية قبول توبتهم؟

إنّ سؤال مَن هو الخليفة يرتبط بسؤال مَن هو الكافر، يكاد يكون هذان السؤالان المركزيان في تراثنا قد لعبا دورًا كبيرًا في تشكيل مدوّنات الفقه ومدونات الحديث ومدونات العقائد. بدأ سؤال من هو الخليفة منذ وفاة النبي، واختلف المسلمون حول هذا الموضوع. إنّ الحرب التي استعرت طوال التاريخ الإسلامي كلّها كانت تدور حول من هو الخليفة الشرعي الّذي يحقّ له أن يحكم المسلمين؟

النسب القرشي

يكاد يتفق الجميع على أنّ الخليفة يجب أن يكون قرشيًا، عدا الخوارج قالوا إنّ الخليفة ممكن أن يكون عبدًا حبشيًا، ولا علاقة للنسب في هذا الموضوع. أشعل موضوع نسب الخليفة الخلاف بين العلويين والعباسيين، إذ إن العباسيين ينتمون إلى النبي من جهة عمه العباس، والعلويون ينتمون إلى النبي من جهة الإمام علي ومن جهة ابنته فاطمة الزهراء، واتخذ الفاطميون من النسب إلى فاطمة الزهراء ذريعة وحجة لتثبيت أنّ لهم الولاية الحقّة، إذ إنّ البنت هي الأقرب من العم وأبناء العم، وهم ينتمون إلى هذه السيدة، وينتمون كذلك إلى الإمام علي، فهم علويون وفاطميون كذلك.

أرّق سؤال من هو الّذي يحكم المسلمين علماء الكلام والفقه والعقائد، كما أرّق العلماء الّذين كتبوا في السياسة وفي الآداب السلطانية، لأنّ موضوع خليفة المسلمين يمثّل رمزية وشرعية كبيرة لإقامة أي دولة من الدول، لذلك كلّ الدول الّتي أُقيمَت بحثت عن شرعيّتها عبر هذا السؤال.

حتى قبيل العصر الحديث، ادعت السلالة الحاكمة في الدولة العثمانية والصفوية نسبًا بالنبي، وهذا يعني أنهم سادة قرشيون ولهم الحقّ في الخلافة.

يتعلّق سؤال مَن هو الكافر بسؤال الخليفة، فمَن لا يؤمن بشرعية الخليفة فهو كافر، لأنّه لم يؤمن بالنبي، فالخليفة يمثّل النبي، ومن ثم هو يمثّل السلطة الشرعية، ومَن يخرج عنها سيدخل في دائرة الكفر. وقد أقام الغزالي الحجج على أنّ الباطنية كفّار، وأنّ معتقداتهم تخالف المسلمين، وأن مخالفتهم الخليفة ليست سياسية فقط وإنّما هي عقائدية، ومَن يخرج على الخليفة ليس مختلفًا سياسيًا فحسب إنّما هو باغٍ، فيجوز قتله، فهو لم يمتثل للخليفة وخرج على إجماع المسلمين.

الغزالي يعرف خطورة هذا الموضوع، لذا خصّص الباب التاسع في كتابه لإقامة الحجج[1] على أنّ الخليفة هو المستظهر. يضع الغزالي عشر مواصفات للخليفة، ست منها خُلقية لا تُكْتَسَب، وأربع تعتبر اكتسابية.

صفات الخليفة

الصفات الخُلقية هي البلوغ والعقل والتكليف (أن يكون مكلَّفًا، يعني مثلًا لا تكليف على صبي ولا على مجنون)، والحرية (لا يمكن أن يكون الخليفة عبدًا ولا مملوكًا)، والصفة الأهمّ في هذه الصفات أن يكون قرشيًا، نسبه إلى قريش، وهذه الصفة لعبت دورًا كبيرًا في تشكيل مفهوم الخلافة في العصر الإسلامي، وتستند هذه الصفة إلى حديث ينسب للنبي، يقول

(1) يصف محقق الكتاب عبدالرحمن بدوي، الفصل التاسع من هذا الكتاب بأنه «جاء ضعيفًا لا يتناسب في قوة حجاجه مع قوة حجاج الفصول الأخرى». انظر: مقدمة المحقق، الغزالي، فضائح الباطنية، ص (ى).

فيه إن الأئمة من قريش، لذلك يقول الغزالي «نسب قريش لا بد منه لقوله(ص) الأئمة من قريش. واعتبار هذا مأخوذ من التوقيف ومن إجماع أهل الأعصر الحالية على أن الإمامة ليست إلا في هذا النسب. ولذلك لم يتصد لطلب الإمامة غير قرشي في عصر من الأعصر، رغم شغف الناس بالاستيلاء والاستعلاء، وبذلهم غاية الجهد والطاقة»[1].

المشكلة كانت تتمثل أيضًا في أن العباسيين قرشيون والفاطميين أيضًا قرشيون، لذلك كانت هذه الصفة محل نزاع، وقد قاد هذا النزاع إلى حرب كبرى لتشويه نسب الفاطميين، وهذه جزء من الحرب السياسية، فقد بدأت حملات التشكيك في نسبهم ووضع أنساب لهم تقرّبهم من اليهود مثلًا، أو تجعلهم ينتسبون إلى نسب وضيع ومشكوك فيه. ونجد أيضًا أنه حتى في العصر العباسي السابق لهذا العصر، في العصر البويهي، في عصر الشريف الرضي، أدت هذه المسألة إلى أن تُكتب العرائض وطلَب من العلويّين أن يوقّعوا عليها ويتبرّؤوا من الفاطميّين، ويعتبروا أنّ نسبهم ليس نسبًا علويًا[2]، طبعًا كانت هذه العرائض سياسيّة.

على أيّة حال، نأتي إلى المتطلّبات الأخرى، أي الصفات الاكتسابية وهي النجدة والكفاية والعلم والورع، يقول: «ونحن نتبيّن وجود هذا القدر

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص180.

(2) واجه الفاطميون حملات دعاية وإنكار نسب، وكتاب الغزالي واحد من التي وظفها العباسيون ضد خصومهم، وقد دعا الخليفة العباسي القادر بالله، إلى كتابة عريضة تشهد ببطلان نسب الفاطميين، وطلب من العلويين أن يوقعوا عليها، يقول العقاد «وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا أنهم ينتسبون إلى ميمون القداح ابن ديصان الثنوي القائل بالإلهين، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين، وهم صنوف ينتمون إلى كل مذهب ونحلة، منهم كما أسلفنا الإخشيديون والأغالبة والأمويون والأندلسيون» عباس العقاد،فاطمة الزهراء والفاطميون، ص134.



المشروط لصحة الإمامة في الإمام المستظهر بالله، أمير المؤمنين ثبّت الله دولته، وأنّ إمامته على وفق الشرع، وأنّه يجب على كلّ مفتٍ من علماء الدهر أن يفتي على القطع بوجوب طاعته، ونفوذ أقضيته بالحقّ [يعني ما يقضي فيه] وبصحّة توليته للولاء، وبتقليده للقضاة، وبصرف حقوق الله إليه ليصرفها إلى مصارفها ويوجهها إلى مظانّها ومواقعها»[1]. كما نرى فإن هذا نص صريح وهو أقرب إلى فتوى شرعيّة، إنّ هذا الإمام هو واجب الطاعة.

الصفة الأولى: النجدة، والمقصود بها كما يقول «مراد الأئمة بالنجدة، ظهور الشوكة، وموفور العدّة، والاستظهار بالجنود، وعقد الألوية والبنود، والاستمكان بتظافر الأشياع والأتباع، من قمع البغاة والطغاة ومجاهدة الكفرة»[2] وتظهر الشوكة بأن يمتلك الخليفة جيشًا لتحقيق النجدة إذا طُلِبَت منه. أين هي الشوكة هنا؟ يقول الغزالي: «والشوكة في عصرنا هذا من أصناف الخلائق للترك»[3] الّذين هم السلاجقة، بمعنى أن الله جعل قوة الخليفة في السلاجقة، وكأنه سخره له.

طاعة العبيد

هنا يثير الغزالي إشكالًا، يقول، «فإن قيل كيف تحصل نجدته بهم وإنّا نراهم يتهجمون على مخالفة أوامره ونواهيه، ويتعدّون الحدود المرسومة لهم فيه... قلنا هذا سؤال في غاية الركاكة، فإنّ الطاعة المشروطة في حق الخلق لقيام شوكة الإمام لا تزيد على الطاعة المشروطة على الأرقّاء

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص181-182.

(2) المصدر نفسه، ص182.

(3) المصدر نفسه، ص182.

والعبيد في حقّ ساداتهم»[1] يبرر الغزالي هنا بحجج ضعيفة فهو يعتبر أنّ العبد أيضًا يعصي مولاه، ولكنّه في النهاية عبد لديه ويطيعه، كذلك بالنسبة إلى هؤلاء السلاجقة، قد يختلفون مع الخليفة أو قد يعصون أوامره لكن بالمجمل هم ضمن قيادته، ومنصاعون له[2]، وكما يقول وفق تعبيره، وما من شخص من هؤلاء السلاجقة، يقدر على مخالفته في أمر من الأمور إلّا وهو بعينه إذا انتهى للعتبة الشريفة، أي ديوان الخليفة، صفع على الأرض خاضعًا، وعفّر خدّه في التراب متواضعًا، ووقف وقوف أذلّ العبيد على باب الخليفة[3].

الكفاية والنجدة

الصفة الثانية: هي الكفاية، والمقصود بها كما يقول، «التهدي لحق المصالح في معضلات الأمور، والاطلاع على المسلك المقتصد عند تعارض الشرور»[4] أي أن يكون لدى الخليفة عقل راجح، واتزان وقدرة على أن يرى المصلحة، وكفاية في تشخيصها، وبالنسبة للغزالي فإن هذه الصفة قد تحصّل من خلال الغير، فيقول: «وقد وفّق الله الإمام بتفويض مقاليد أمره إلى وزيره الّذي لم يقطع ثوب الوزارة إلا على قده حتى استظهر بآرائه السديدة في نوائب الزمان»[5].

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص182.

(2) هذا غير صحيح تاريخيًا، فالسلاجقة هم الحكام الفعليون، والخليفة مجرّد صورة رمزية، خصوصًا أنّ الخليفة المستظهر، كان له من العمر 17 عامًا، حين تولى الخلافة وحين كتب الغزلي كتابه.

(3) الغزالي، فضائح الباطنية، ص185.

(4) المصدر نفسه، ص185.

(5) المصدر نفسه، ص 186.

يعتمد الخليفة في الصفة الأولى (النجدة) على السلاجقة، وفي الصفة الثانية (صفة الكفاية ورجحان العقل وتدبير أفضل الطرق لإدارة الأمة) على وزيره. وسنرى أنّ هذا الاعتماد على الغير هو محاولة من الغزالي لكي يسدّ ثغرة صغر السن.

الصفة الثالثة: وهي الورع، هذه الصفة التي لا يمكن أن تعتمد فيها على الغير، وهي كما يقول الغزالي رأس المال ومصدر جملة الخصال، وهو يصف ورع الخليفة على هذا النحو: إنّ الخليفة يلبس الثياب الخشنة ويجتنب الترفع ويواظب على العبادات.

الصفة الأخيرة هي صفة العلم، وهي صفة ممكن أن يُعتمد فيها على الآخرين أيضًا. ويقول في هذا الإطار اتّفق رأي العلماء على أنّ الإمامة لا تنعقد إلّا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع، ولكن ممكن أن تتحقّق هذه الصفة بوجود علماء وهم كثر في بلاد الخليفة العباسي، أيضًا في هذه الصفة هو يعتمد على الغير، ويُجمل الغزالي ذلك بقوله: «كما كمل بأقوى أهل الزمان مقصود الشوكة، وبأدهى أهل الزمان وأكفاهم رأيًا ونظرًا مقصود الكفاية، فلا تزال دولته محفوفة بملك من الملوك قوي يمدّه بشوكته وكافٍ من كفاه الزمان يتصدّى لوزارته فيمدّه برأيه وهدايته وعالم مقدّم في العلوم يفيض ما يلوح من قضايا الشرع في كلّ واقعة إلى حضرته»[1].

التحقق بالغير

هكذا فإن كلّ هذه الشروط متحقّقة في حضرة الخليفة، ولكن نراها متحقّقة بالغير وليست متحقّقة بالشخص ذاته. وهذا ناتج عن فكرة عند

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص192.

الغزالي، وهي أنّ صاحب الشوكة أو من يحكم أمر المسلمين هو الّذي يجب طاعته، وهذا نجده في مجمل النظرية السياسية الإسلامية، التي تنص على أنّ الثمرة المطلوبة من الإمامة، هي «تطفئة الفتن الثائرة في تفرق الآراء المتنافرة»[1] ويصل الأمر إلى أنّه حتى لو خلا الزمان من قرشي مجتهد يستجمع جميع الشروط، وجب الاستمرار على الإمام المعقودة له إن قامت له الشوكة، أي إنه حتى لو كان الخليفة غير قرشي، ولكن لديه الشوكة فالإمامة تنعقد به.

ينتهي الغزالي بعد ذلك إلى أنّه لو أجمع أهل الدهر، وتألّبوا على أن يصرفوا الوجوه والقلوب عن الحضرة المقدسة المستظهريّة [يطلق على مقام المستظهر الحضرة المقدسة المستظهرية] لم يجدوا إليها سبيلًا، فيتعيّن على كافة العلماء الفتوى بصحة هذه الإمامة وانعقادها بالشرع.

خلاصة الأمر أنّ الخليفة الحق الواجب الطاعة بالصفات الّتي أوردها الغزالي هو المستظهر، وبهذا الاستحقاق فإن طاعته واجبة، ومن لا يقر بتوافرها في الخليفة يكون خارجًا على الإمام الشرعي، وبذلك يكون أقرب إلى الكفر في هذا الموضع، وهذا يوضّح كيف أنّ تحديد الكافر هو موضوع سياسيّ، فالخليفة الحاكم لا يستطيع أن يفرض طاعته ويفرض سلطته السياسية إلا بالشرعية أولًا، أي بالإيمان بخلافته. وهذا يتطلب أن يكيّف الشرع لكي يضمن لنفسه الشرعية، ومن ثم الطاعة، وحتى يثبّت هذه الشرعية يحتاج إلى خطاب تكفيري، ليكون بمثابة الرد الشرعي على المخالفين السياسيّين، والفاطميون والباطنيون في ذلك الوقت كانوا منافسين سياسيين ومعارضين للخلافة العباسية، فلا بدّ إذن من أن يُعمل فيهم التكفير والسيف.

---

(1) الغزالي، فضائح الباطنية، ص192.



ابن تومرت ونصوص التوحش الموحدية

الفصل الثاني

1. خريج مدرسة التكفير النظامية

ما علاقة ابن تومرت بنصوص التوحش؟ وما علاقته بالسنة السلجوقية والعقيدة الأشعرية ومدرسة نظام الملك؟

أنا أدرس الدوافع السياسية وكيف صاغت نصوص التوحش عند السلاجقة حتى غدت (السنة السلجوقية) سنة متوحشة، لكن هل الأمر يتوقف على السلاجقة في صناعة ثقافة التوحش؟ بالطبع لا، والسلاجقة هنا نموذج، وكي نرى المشهد بصورة أكثر اتساعًا وحيادية، دعونا نيمم وجوهنا اتجاه المغرب العربي والأندلس، ماذا هناك فترة الحكم السلجوقي وامتداداته في الدولة الزنكية والأيوبية؟

ابن تومرت (473-524هـ/1080-1130م) فقيه مغربي، رجل دولة الموحدين الأول. عاش في الفترة نفسها التي حكم فيها السلاجقة بغداد، وحين بدأ دعوته في 515هـ كان الحاكم السلجوقي حمود بن محمد ابن ملكشاه، وهو الحاكم الحادي عشر في السلالة السلجوقية. أخذ معظم تكوينه الروحي والفكري في المشرق، إذ إنه قام برحلة مشرقية كعادة العلماء الكبار في المغرب، فهم يعتبرون المشرق هو مهد الإسلام والمعرفة ومكان اكتساب المشروعية لأي داعية أو فقيه أو عالم يريد أن يثبت مكانته العلمية.



ابن تومرت جاء إلى المشرق في سنة 500هـ ، وبقي 10 سنوات فيه، ذهب إلى مصر والشام والعراق وغيرها من البلدان. هناك التقى بوجوه الثقافة في ذلك الوقت، العلماء الكبار، الأصوليين، علماء العقيدة، وتتلمذ على أيديهم. هناك حديث عن لقائه بالغزالي وتأثره بمدرسته (مدرسة نظام الملك) التي بلورت المفهوم الأشعري للعقيدة الذي تبنته دولة السلاجقة في ذلك الوقت.

ابن تومرت هو أحد خريجي المدارس النظامية، بشكل مباشر أو غير مباشر، المدراس النظامية بما هي جهاز لتكوين نسخة مسيسة من العقيدة الأشعرية. على مستوى الاستخدام السياسي للعقيدة الأشعرية، يعتبر ابن تومرت أحد الشخصيات الدعوية التي بنت دولتها على هذه العقيدة، وقد وجد ابن خلدون في هذا البناء إحدى ركائز نظريته في الدولة التي تقوم على: أولًا العصبية القبلية وهي الشوكة السياسية القادرة على حماية الحكم. وثانيًا الدعوة العقائدية التي تعطي لحمة اجتماعية وتمنع تنافر العصبيات وتوحدها في دائرة مشتركة وهدف واحد.

على مستوى الوقائع التاريخية، هناك أخبار غير مؤكدة في أغلب الكتب التاريخية عن لقائه بالغزالي أحد أبرز منظري المدارس النظامية، فابن خلدون يقول «ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة، وتقويض أركان السلطان الجامع للأمة المقيم للملة بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التي تكون بها الاعتزاز والمنعة، وبشأنها يتم أمر الله في درك البغية وظهور الدعوة»[1] أخذ ابن تومرت

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 1974.

يفكر بتأسيس دولة في المغرب وتحدث عن فكرته مع علماء العراق وفي مقدمتهم الغزالي، ويبدو أن الإمام الغزالي بحث معه في الأمر ودرس أسباب اختلال الدولة في المغرب وتمزق الإسلام آنذاك في تلك الديار ونجاح الفرنجة في الأندلس في تسجيل انتصارات وانتزاع المدن والحواضر من المسلمين[1].

ويخبرنا ابن خلدون أن ابن تومرت لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم «واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية، والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدور أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث»[2].

وبلغة غير مؤكدة يتحدث ابن الأثير عن هذا اللقاء «ووصل في سفره إلى العراق، واجتمع بالغزالي ... وقيل إنه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بالمغرب من التملك... كذا قال بعض مؤرخي المغرب، والصحيح أنه لم يجتمع به»[3].

ربما يكون لقاء ابن تومرت بالغزالي[4] مختلقًا لتعزيز مكانته الروحية

---

(1) وليد نويهض، لقاء ابن تومرت مع الإمام الغزالي في بغداد، جريدة الوسط ، العدد2025.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 1974.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص1956.

(4) يبدو أن تثبيت فكرة لقاء ابن تومرت بالغزالي، كانت تعني الشيء الكثير، حتى إنها دخلت في مقدمة أحد الكتب المنحولة على الغزالي، وهو كتاب (سر العالمين وكشف ما في الدارين) ففي مقدمة هذا الكتاب يذكر الغزالي أن ابن تومرت هو أول من قرأه عليه سرًّا وأنه استحسنه وأنه رأى في ابن تومرت علامات الملك «وضعت لهم كتابًا، وسميته بكتاب (سر العالمين وكشف ما في الدارين)...وجعلته دالاً على طلب المملكة وحاثًا عليها، وواضعًا لتحصيلها أساسًا جامعًا لمعانيها؛ وذكرت كيفية ترتيبها وتدبيرها... فأول من استحسنه وقرأه علي بالمدرسة النظامية سرًّا من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعي من =



وإغناء سيرته من رحلته المشرقية، لكن الثابت في هذه الرحلة أنه تشبع بروح مدرسة الغزالي التي أسسها في المدراس النظامية، وأن العلماء الذين التقاهم يحملون عقيدة هذه المدرسة الأشعرية وتوظيفها السياسي، لقد عاد ابن تومرت من رحلته مشبعًا بهذه العقيدة، ويصفه ابن خلدون على هذا النحو «وانطلق هذا الإمام راجعًا إلى المغرب بحرًا متفجرًا من العلم وشهابًا واريًا من الدين»[1].

لقد بذل ابن تومرت جهدًا كبيرًا في هذه الرحلة «لكي يأخذ العلم ويطلع على مكونات العقل الأرثوذكسي في أرضه الخاصة بالذات ويكتسب المشروعية الدينية»[2].

النقطة المركزية في حديثنا عن ابن تومرت هي كونه أحد منتجي نصوص التوحش. ولكي نفهم ذلك نحتاج إلى إضاءة تاريخية على شخصية ابن تومرت، لذلك نحن نتحدث عن رحلته المشرقية لأن هذه الرحلة هي التي كونت مفهومه للسنة، بمعنى مفهومه للعقيدة الأرثوذكسية، أو الطريق المستقيم والصحيح، أو الإسلام الذي يراه من وجهة نظره إسلامًا صحيحًا يقود إلى آخرة مضمونة الجنة.

من المعروف أن المدرسة النظامية تبنت العقيدة الأشعرية[3]،

= السفر رجل من أرض المغرب يقال له محمد ابن تومرت من أهل سلمية، وتوسمت منه الملك». رسائل أبي حامد الغزالي، ص32.

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 1974.

(2) محمد أركون، نحو نقد العقل الإسلامي، ص143.

(3) ينتسب المذهب الأشعري إلى مؤسسه أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري البغدادي (ت 324هـ)، انتشر المذهب الأشعري في الأقطار الإسلامية، وبسط نفوذه في أقاصي البلدان، وقد لخص الأشعري مذهبه الكلامي في الباب الأول من كتابه «قولنا الذي =

وعملت على ترويجها واعتبارها جزءًا من معتقد الدولة السلجوقية التي تمثل الخلافة العباسية الإسلامية. ابن تومرت قد جاء من المغرب وهو يحمل هم الخلافات التي يعيشها المسلمون هناك والتفككات والضعف والتهديد الصليبي للوجود الإسلامي في الأندلس والمغرب. جاء وهو يفكر في مشروع إنقاذي كبير، مشروع توحيدي يعطي المسلمين هناك وحدتهم وقوتهم ضد الصليبيين الذين كانوا يهددون بلاد المغرب. مشروع الوحدة هذا تطلب في مفهومه ابتكار مشروع للإسلام وللعقيدة وللسنة واحدًا، أي أن يقدم فهمًا واحدًا للسنة وفهمًا واحدًا للعقيدة يجمع من خلاله المسلمين، وهذا يذكرنا بنظرية ابن خلدون الذي كان يقول إن الدولة تقوم على العصبية القبلية، والعقيدة الواحدة، إذن تحتاج إلى قبيلة قوية جدًا، وعقيدة واحدة قوية الحضور في نفوس أبناء القبيلة، لتكوّن دولة.

= نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون... وإنّا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاؤوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نرد من ذلك شيئًا، وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو على عرشه وأن له وجهًا كما قال، وأن له يدين بلا كيف كما قال، وأن له عينين بلا كيف كما قال، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالًا، إن الله علمًا كما قال (أنزله بعلمه)، ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج».

2. التوحيد والتوحش ولذة الجهاد

لقد شخص الذهبي في كتابه (العبر في خبر من غبر) حالة ابن تومرت بكثافة شديدة "لذته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، ولكن جرَّه إقدامه وجرأته إلى حبّ الرئاسة والظهور، وارتكاب المحظور"[1].

لذة الجهاد هي نفسها التي عند السلاجقة، ومدرسة المعروف والمنكر نفسها التي كانت عند السلاجقة، أي إنهم ينطلقون من النسخة الأرثوذكسية نفسها، والعدو الخارجي نفسه (الصليبيون) غير أن العدو الداخلي كان مختلفًا، السلاجقة كان عدوهم الباطنية، وابن تومرت كان عدوه المرابطون. سيحتاج إلى جهد أكثر لصناعة نصوص توحش على مقاس عدوه الداخلي، ومن جانب آخر سيحتاج إلى أن يرد على الفقهاء المالكيين الذين يقفون معه على الأرضية نفسها، وينازعونه مشروعية السنة نفسها «راح الفقهاء المالكيون الأشداء يلوحون بالمشروعية العليا للعقل الأرثوذكسي المؤسِس والمؤسَس. لقد أخذوا يهددونه بها ويهاجمون ضلال الزندقة والبدع التي جاء بها»[2].

راح ينخرط بما يسميه محمد أركون بـ (المزايدة المحاكاتية)

---

(1) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ص 246.

(2) محمد أركون، نحو نقد العقل الإسلامي، ص154.

وإعلان عقيدة متشددة فيما يخص التعالي الرباني والتوحيد الإلهي، سيبلور مفهومًا احتكاريًّا للتوحيد، وسيطلقه على جماعته (الموحدون)، باعتبارها الجماعة التي تعتنق التوحيد الصحيح، وستكون العقيدة (المرشدة) نشيد دولة الموحدين.

توافر لابن تومرت الركن الأول لبناء الدولة، فهو ابن عشيرة (هرغة) التي تنتمي إلى قبيلة (المصمودة) البربرية، هو يحتاج الآن لبلورة عقيدة صلبة تنظم قوة قبيلته لبناء دولة قوية.

بدأ يشتغل على العقيدة فكان المشرق المكان والرحلة والمدرسة التي ستعطيه الهالة الكبرى والمكانة الروحية الكبرى التي سيذهب بها إلى المغرب. إن ابن تومرت قد أخذ جرعات كبيرة جدًا من العلم، تعلم هناك أصول الفقه على يد أساتذة كبار كما تعلم هناك العقيدة وطرق المحاججة والمناظرة، وهذه كانت مفقودة في ذلك الوقت في بلاد المغرب، إذ المذهب المالكي هو المذهب المسيطر والمرابطون، في ذلك الوقت، الذين استمرت دولتهم 70 عامًا قد سيطروا على بلاد المغرب[1]، وقد حكموها على المذهب المالكي وفق عقيدته التي تمنع الفلسفة والسؤال وعلم الكلام حول العقائد. كان المغرب محكومًا بمقولة الإمام مالك المشهورة «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

---

(1) لعل الخطوة الأخطر التي قامت بها دولة الموحدين هي قطع استمرار الارتباط بمقام الخلافة العباسية، فقد انقطعت الخطبة العباسيّة بموت حاكم المرابطين تاشفين بن علي (ت 540هـ) «انقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه فلم يذكروا على منبر من منابرها إلى الآن»! المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، ص272.

بمعنى أن الله تعالى استوى على العرش ولكن لا نعرف كيف ولا نسأل كيف، علينا أن نؤمن بذلك فقط، ومن يحاول أن يسأل فإنه سيعتبر مبتدعًا. لم يكن لدى ابن تومرت في المغرب من يمكن أن ينافسه في بضاعة المناظرة. حين عاد ابن تومرت إلى بلاد المغرب بدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وبهذه الطريقة بدأ يلفت النظر إليه، وهناك حادثة يرويها لنا المؤرخ ابن الأثير وهي أن ابن تومرت حين وصل إلى مراكش دار مملكة أمير المرابطين المسلمين يوسف بن تاشفين، رأى فيها منكرات، فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فكثر أتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه. في أحد الأيام رأى أخت أمير المسلمين في موكبها، ومعها الجواري الحسان وهن مسفرات، فأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها. تم إحضار ابن تومرت إلى الأمير، وأحضر الفقهاء ليناظروه، فأخذ يعظه ويخوفه، فبكى الأمير، وأمر أن يناظره الفقهاء، فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته في الذي فعله.

قال الوزير مالك بن وهيب، للحاكم: هذا لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما يريد إثارة فتنة، والغلبة على بعض النواحي، فاقتله وقلدني دمه. فلم يفعل ذلك، فقال: إن لم تقتله فاحبسه، وخلده في السجن، وإلا أثار شرًا لا يمكن تلافيه.

إن مشروع ابن تومرت، بدا مشروعًا خطيرًا جدًا وثارت حوله كثير من الشكوك[1]، ولاحقًا سيكون هو الذي سيقضي على الدولة المرابطية.

---

(1) لقد لحقت لعنة الفاطميين والباطنيين بابن تومرت، فقد تزامنت رحلته إلى مصر وبداية دعوته مع ولاية الخليفة الفاطمي منصور بن المستعلي أحمد بن المستنصر، وولاية المسترشد العباسي في بغداد الذي كتب له الغزالي (فضائح الباطنية). وهذا ما ألحق بابن =

لم يأت ابن تومرت بمذهب خارج إجماع أهل السنة والجماعة، أخذ يحاكي المرابطين، يتبع الأساليب نفسها وعقيدة المرابطين نفسها التي حكموا بها المغرب ويزايد فيها، ويقول إنكم لا تفهمون الإسلام والسنة بشكل صحيح، عقائدكم في الألوهية ليست مبنية على أسس صحيحة، إنني أحمل مشروعًا عقيديًا صحيحًا وأدعو إليه وآمر الناس بالمعروف عبر الدعوة إلى هذا النمط من التوحيد. وهو قد بلور مشروعه في التوحيد وفق العقيدة الصحيحة والسنة الصحيحة عبر ما أسماه بـ(العقيدة المرشدة)[1] وهو النمط الذي يمثل الأرثوذكسية الإسلامية الصحيحة، النمط الذي يمثل الإسلام الصحيح. لقد تعلم صياغة العقيدة المرشدة الخاصة به من خلال المدارس النظامية في العراق، فهناك كانت لديهم نسختهم المنقحة من المعتقد القادري، المبني على

تومرت تهمة التشيع «ولا يمنع من أن يكون قد اعتنق مبدأ الاعتقاد في الإمام المعصوم هناك» انظر:المؤثرات الفكرية في النهج العسكري عند ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين، خالد بن إبراهيم الدبيان، ص23.

(1) بعض ما ورد في العقيدة المرشدة «اعلم أرشدَنا الله وإيّاكَ أنه يجبُ على كلِّ مكلَّف أن يعلمَ أن الله عزَّ وجلَّ واحدٌ في مُلكِه، خلقَ العالمَ بأسرِه العلويِّ والسفليِّ والعرشَ والكرسيَّ، والسَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، جميعُ الخلائقِ مقهورونَ بقدرَتِه، لا تتحركُ ذرةٌ إلا بإذنِه، ليسَ معهُ مُدبّرٌ في الخَلقِ ولا شريكٌ في المُلكِ، حيٌّ قيومٌ لا تأخذُهُ سِنةٌ ولا نومٌ، عالمُ الغيبِ والشهادةِ، ولا يقالُ متى كانَ ولا أينَ كانَ ولا كيفَ، كان ولا مكان، كوَّنَ الأكوانَ ودبَّر الزمانَ، لا يتقيَّدُ بالزمانِ ولا يتخصَّصُ بالمكانِ، ولا يشغلُهُ شأنٌ عن شأن، ولا يلحقُهُ وهمٌ، ولا يكتَنِفُهُ عقلٌ، ولا يتخصَّصُ بالذهنِ، ولا يتمثلُ في النفسِ، ولا يتصورُ في الوهمِ، ولا يتكيَّفُ في العقلِ، لا تلحقُهُ الأوهامُ والأفكارُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.



العقيدة الأشعرية[1]، وقد صارت بمثابة أيديولوجيا للدولة السلجوقية، هذا المعتقد يحدد: من هو الإله؟ ما هي صفات الإله؟ من هو العبد؟ كيف هي العلاقة بين الإنسان وبين الله؟ ماذا يمكن أن يعرف الإنسان عن الله؟

هذه العقيدة لما نضجت واستوت على أيدي علماء المدرسة النظامية، والغزالي في مقدمتهم، أصبحت هي عقيدة الدولة والناس عليهم أن يسيروا وفقها. وأصبحت السلطة السياسية السلجوقية هي المؤتمنة عليها وهي الجهة التي تحدد ما هو الإيمان.

دستور الدولة الموحدية

بدأ ابن تومرت بتحديد ما هو الإيمان الصحيح وعلى أساسه بدأ دعوته وخاض مناكفته للدولة المرابطية[2]، وبهذه الطريقة وظف مفهومه

---

(1) يقع ابن تومرت على خارطة من عملوا على نشر المذهب الأشعري، وتضم هذه الخارطة أعلامًا كثيرين «ولقد استطاع المذهب الأشعري أن ينتشر في الأقطار الإسلامية بفضل أتباعه من العلماء المشهورين في المشرق والمغرب أمثال أبي بكر الباقلاني، وأبي بكر بن فورك، وأبي إسحاق الأسفراييني، وإمام الحرمين الجويني، وأبي حامد الغزالي، والفخر الرازي، والإمام البيضاوي، وعضد الدين الأيجي، والسعد التفتازاني، والقاضي عياض، وأبي الوليد الباجي، وأبي عمران موسى الفاسي، وأبي بكر بن العربي المعافري، ومحمد بن تومرت الموحدي، وأبي الحسن القابسي، والإمام المازري التونسي، وأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي المراكشي الضرير، وأبي عمرو السلالجي، وأبي الحسن علي بن خمير السبتي، وأبي عبد الله محمد ابن يوسف السنوسي، وعبد الواحد بن عاشر، وأبي الحسن اليوسي، وأبي العباس أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي، وأبي حامد العربي الفاسي، وغيرهم من الجهابذة الأعلام الذين حملوا لواء المذهب الأشعري، وكان لهم اليد الطولى والفضل الكبير في انتشاره بين أهل العلم من الشيوخ والطلبة، والعناية به تأليفًا وشرحًا وتدريسًا وتعليقًا» عبد الخالق أحمدون، عناية المغاربة بالعقيدة الأشعرية.

(2) «وبعد المرابطين ستنشط دعوة المهدي محمد بن تومرت الموحدي (ت.524هـ)، ويتحول =

للسنة والألوهية توظيفًا سياسيًا. هذا المفهوم والتوظيف سيبلوره عبر خطبه ورسائله وكتبه ومناظراته والتي ستجمع في ما بعد حين تتمكن دعوته من تكوين دولة، في كتاب أطلق عليه (أعز ما يطلب).

هذا الكتاب هو بمثابة دستور الدولة الموحدية، من المعروف أن ابن تومرت قد توفي سنة 524 هجرية، في هذه الفترة ترك تراثًا مهمًا لدولته لكنه لم يحقق انتصارات سياسية في هذه الفترة، الذي سيحقق انتصارات سياسية هو أحد تلامذته وأحد خواصه وقواده الذين التقاهم في رحلته، رحلة الدعوة إلى عقيدته، وهو عبد المؤمن، هو الذي سيكون الحاكم الأول لدولة الموحدين. هو الذي جمع هذا الكتاب، واعتبره دستور الدولة وعقيدتها وأيديولوجيتها، وفي هذا الكتاب المفهوم الصحيح للسنة كما يعتقدون وفيه المفهوم الصحيح للألوهية كما يعتقدون وفيه العقيدة التي ستوحد الأمة كما يعتقدون[1]. وكان يطلب من الجميع أن يدرسه ويحفظه وينشره، لنقل إنه بمثابة الكتاب الأخضر للقذافي في ليبيا، على سبيل التقريب فقط.

اكتسبت هذه العقيدة حضورًا كبيرًا وظلت طوال أكثر من أربعة قرون يرددها المؤذنون في وقت التسبيح. قال المؤرخ تقي الدين المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ما

المذهب الأشعري مذهبًا رسميًا للدولة، حيث رجع ابن تومرت إلى المغرب بأشعرية عميقة تلقاها من الغزالي، واتخذها مطية سياسية لتثبيت الحكم الموحدي». عبد الخالق أحمدون، عناية المغاربة بالعقيدة الأشعرية.

(1) صارت العقيدة المرشدة بمثابة نشيد الإنشاد ولما تولى عبد المؤمن بن علي الموحدي ألزم الناس بقراءة أفكار ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي، وأصدر مرسومًا في ذلك جاء فيه: «يلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها «اعلم أرشدنا الله وإياك» وحفظها وتفهمها».

نصه: «لما ولي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيـوب.. تقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح على الـمـآذن بالليل ، بذكر العقيدة التي تعرف بالمرشدة، فواظب المؤذنون على ذكرها في كل ليلة بسائر جوامع مصر إلى وقتنا هذا» وقد توفي المقريزي في (845هـ - 1441م).

هي إذن نسخة مبيضة من الاعتقاد القادري، ونسخة من (الاقتصاد في الاعتقاد) للغزالي الذي زعم ابن تومرت أنه التقى به في رحلته المشرقية. لقد انشغل ابن تومرت بتثبيت هذه العقيدة التي سماها عقيدة التوحيد، وحارب خصومه المرابطين بها، واشتق اسم دولته منها (الموحدون) وقد دامت حتى (667هـ - 1269م).

3.أعز ما يطلب من التكفير

ماذا يحتوي كتاب (أعز ما يطلب)؟

هذا الكتاب يحوي ما نقله تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي (ت558هـ-1163م) أول خلفاء الموحدين، من تعاليم ابن تومرت وآرائه. ويضم فصولا وأبوابًا عديدة، ويشتمل على الكلام عن الجهل والشك والظن، والأصل والفرع والتواتر، وعن الصلاة، وكون الشريعة لا تثبت بالعقل، وعن العموم والخصوص، وعن العلم، وعن العقيدة ووجود الباري سبحانه، وعن التنزيهات والتسبيحات، ثم الكلام عن الإمامة وعلامات المهدي، وعن طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين وعلاماتهم، وعن الطائفة التي تقاتل عن الحق وتقوم بأمر الله، وعن علاماتها وخواصها، وعن التوحيد وثبوته، وما يتعلق بذلك من الإيمان بالله ورسوله، وعن تحريم الخمر وما ورد في ذلك، ويختتم الكتاب بفصل عن الجهاد.

في هذه الكتاب سنعثر على نصوص التكفير والتوحش، وعلى المنهاج الذي وضع للدولة الموحدية في طريقة تعاملها مع المختلفين معها، وسنجد شرعنة القتل وسفك الدماء[1] الذي اتبعته الدولة الموحدية ضد خصومها.

---

(1) يصف الأديب ابن محرز الوهراني (ت575 هـ / 1179م) عنف الموحدين: «خوّاض للدّماء، مسلّط على من فوق الماء، حكّم سيفه في القمم، وأعمله في رقاب الأمم». عن لخضر =



تسمية كتاب (أعز ما يطلب) مأخوذة من إحدى رسائله التي يبدأ بها بجملة يقول فيها «أعز ما يطلب، وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يدخر، وأحسن ما يعمل، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير، هو أعز المطالب، وأفضل المكاسب، وأنفس الذخائر، وأحسن الأعمال». هذا العلم الذي يتحدث عنه ابن تومرت موجود في هذا الكتاب، فماذا يقول ابن تومرت في هذا الكتاب؟

خالفوا المجسمين

يقول في باب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم والتشبه بهم وتكثير سوادهم وحبهم: «أمر رسول الله (ص) بمخالفة أهل الباطل في زيهم وأفعالهم، وجميع أمورهم، وفي أخبار كثيرة قال: (خالفوا اليهود، خالفوا المشركين، خالفوا المجوس) وكذلك المجسمون، الكفار، وهم يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه بالتلثم والتنقيب، ويتشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن الوجوه، بلا تلثم ولا تنقيب، والتشبه بهم حرام»[1].

من هم المجسمون الملثّمون الذين اعتبرهم ابن تومرت كفارًا؟ المجسمون الكفار هم المرابطون، هم العدو الذي يواجهه. لماذا هم مجسمون؟ لأنهم يختلفون معه في معتقد الصفات الإلهية، فهم يتبنون طريقة الإمام مالك الذي يرفض السؤال عن صفات الله ويؤمن بها كما وردت في القرآن دون تأويل. حين يقول القرآن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، هم يفهمونها بالفهم المباشر أن الله استوى على العرش، كأن الله يتجسم عبر الاستواء، بالنسبة إليه هذا تجسيم للإله وهذا كفر لا يقبله، لذلك يعتبرهم مجسمين لأنهم في العقائد لا يأولون ولا يسألون ولا ينظرون بعقلهم.

= بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص 140.

(1) ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص 247.

معروف أن المرابطين المغاربة، لعادات قبلية وثقافية لديهم، كانوا يغطون وجوههم، لتلافي غبار الصحراء، أو وقاية من الأرواح الشريرة أو علامة لاكتمال الرجولة. بعيدًا عن السبب التي يجعلهم يغطون وجوههم، فقد أصبحت هذه الممارسة جزءًا من ثقافتهم. لقد أعطى ابن تومرت لهذه الممارسة الثقافية حكمًا دينيًا، اعتبرهم كفارًا لأنهم يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه بالتلثم والتنقيب.

يحشد ابن تومرت العادات والتقاليد الخاصة بالمرابطين، ويخرجها تخريجات تضعهم في باب الكفر، بدل أن يفهمها على أنها علامة ثقافية تميزهم بين الأمم، كما يقول عنه ابن خلدون «واتخذوا اللثام خطامًا تميزوا بشعاره بين الأمم» بدل ذلك، راح ابن تومرت يؤول سلوكهم، على أنه خروج عن السنة والإسلام.

أبواب جهنم

نص ابن تومرت نص متوحش، لأنه يعطي المشروعية لقتل هؤلاء، وهم مسلمون يتفقون معه في أساس العقيدة، ولكنه يقوم بعملية تأويلية تمامًا كما قام الغزالي بعملية تأويلية جعلته يعتبر الفاطميين كفارًا مرتدين، ويجب قتلهم. فالعملية نفسها تتكرر، وكأن ابن تومرت قد يستثمر درس المدرسة النظامية التي كان يقودها الغزالي.

يقدم ابن تومرت كتابه باعتباره يفتح أبواب العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير، إنها أبواب تفتح لنا أعز ما يطلب، كما يقول، لكنها في حقيقتها تفتح أبواب جهنم على المرابطين، دعونا نقرأ عناوين هذه الأبواب: (باب في وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم

وظلمهم)، (باب في تحريم طاعتهم واتباع أفعالهم)، (باب في وجوب جهادهم على الكفر والتجسيم وإنكار الحق واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم)، (باب في وجوب جهاد من ضيع السنة ومنع الفرائض)، (باب وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتماديهم على ما لا يؤمرون به).

يحشد في هذه الأبواب كثيرًا من الآيات والأحاديث، لكي يطبقها على المرابطين، يدخلهم في قوائم الباطل والزيغ والكفر والضلال، لأنهم خارجون عن صراط (العقيدة المرشدة)[1] التي وضعها. وهم وفق هذه العقيدة الأرثوذكسية يصبحون كفارًا كما أصبح الفاطميون كفارًا وفق العقيدة التي صاغها الغزالي.

تأويل الإيمان

إن تأويل إيمان الآخرين على نحو يخرجهم من الإسلام، يصل إلى حد التضحية بقواعد نصوصها واضحة كنص «إن من قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه». وهنا العملية التأويلية تُخرج النص من أن يكون نصًّا يحمي الآخرين إلى نص يبيح قتلهم.

---

(1) حظيت العقيدة المرشدة باهتمام واسع من طرف العلماء وطلبة العلم والشراح، حتى قيل عنها: إنها مرشدة رشيدة لم يترك المهدي أحسن منها وسيلة، وتهافت العلماء على شرحها، ومن بين هذه الشروح: شرح أبي عبد الله محمد بن خليل السكوني، الدرر المشيدة في شرح عقيدة المرشدة لمحمد بن إبراهيم التلمساني (ت792). شرح أبي عبد الله محمد بن يوسف الخراط. الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل الأموي المعروف بابن النقاش. شرح أبي عبد الله محمد بن يحيى الطرابلسي. شرح أبي زكريا يحيى التنسي. شرح أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. شرح أبي عثمان سعيد ابن عبد المنعم الحاحي.

هكذا، يتحول الخلاف العقائدي إلى تكفير ثم يتحول إلى تقتيل، والتقتيل يفتح باب الجهاد (باب في وجوب جهاد من ضيّع السنة ومنع الفرائض). دعونا نر كيف ضحى ابن تومرت بالنص الواضح، ليدخل المرابطين في باب من يجب جهادهم لأنهم ضيعوا السنة (المرشدة) ومنعوا الفرائض.

«عن أبي هريرة أنه قال قال عمر لأبي بكر لما قاتل مانعي الزكاة، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابهم على الله». فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. كل من منع فريضة من فرائض الله، حق على المسلمين جهاده، حتى يأخذوها منه، فكيف من منع الإيمان والدين والسنة؟».

التأويل المتوحش

ينشرح صدر ابن تومرت لقتال خصومه السياسيين بهذا التأويل المتوحش، وبهذا التأويل اعتبر ابن تومرت المرابطين منعوا الإيمان، لأن الإيمان الذي يعتنقونه إيمان مجسد وقد منعوا السنة، لأنهم يعتنقون سُنّة ليست سُنّة النبي التي يقدمها هو، وأحد أمثلتها أنهم يضعون الخمار أو اللثام.

فإذن، الجهاد أصبح يعني القتل وسفك الدم وهو مبرر عبر (باب في وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتماديهم على ما لا يؤمرون به).

سيعتبرهم أصحاب فجور ومناكر، وهذا يذكرنا بما قام به ابن تومرت بنفسه من مهاجمة الحانات واستنكار الغناء والمزايدة على كل مظهر من مظاهر الفرح والغناء عند المرابطين، إذن أصبح قتالهم واجبًا فهم يرتكبون المناكر والفجور ويجسمون ويتشبهون بالنساء ويضيعون فرائض الله، أصبح كل شيء مستباحًا باسم هذه النصوص المتوحشة.

تهمة الخوارج

في مقابل خطاب ابن تومرت التكفيري، شن فقهاء المالكية[1] حملة شعواء ضد الموحدين، فاعتبروهم من الخوارج، بسبب العنف الذي قاموا به وبسبب خطابهم التكفيري لأهل السنة، وهذا يذكرنا بخطاب التكفير عند الخوارج الذين اعتبروا أن ارتكاب المعاصي الكبيرة كالقتل والزنا والسرقة، موجبًا للشرك و الكفر[2] وبعض الخوارج كالأزارقة ذهبت إلى أنّ المعاصي كلّها شرك ومرتكبها مشرك.

هل أنتجت هذه النصوص وقائع تاريخية حدث فيها تقتيل وسفك دم أم بقيت مجرد مماحكات دينية؟

---

(1) «إلّا أنّ عددًا من المؤشّرات تدلّ على أنّ الدّعاية المالكيّة، كانت - في هَذه المرحلة - من الفاعلية والإحكام، بحيث بدت معه الحركة الموحّديّة معزولة، داخل دائرة ضيّقة من أنصارها في بلاد السُّوس، جنوب المغرب الأقصى. فلقد لازمت الموحّدين تهمة «الخارجيّة» التي نعتهم بها الفقهاء، وكان خطباء القبائل الموالية للمرابطين يدعون عليهم في مجامع صلواتهم، ويصبّون عليهم جامّ لَعَناتهم» لخضر بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص 138.

(2) «وذهبت المعتزلة إلى أنّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر فضلاً عن كونه مشركًا. نعم اتّفقت المعتزلة و الخوارج على كونه مخلّدًا في النار إذا مات غير تائب، وذهبت الإمامية والأشاعرة و أهل الحديث إلى كون مرتكب الكبيرة مؤمنًا فاسقًا غير مخلّد في النار. بحوث في الملل والنحل، جعفر السبحاني، ج5، ص391 ـ 418.

نعم، إنها قد أسالت دماءً كثيرة، وهذا الرعب قد وصل إلى العالم المسيحي[1]، الذي يريد أن يسترجع الأندلس. هذه القوة السياسية التي أسسها ابن تومرت قد أبقت الأندلس قوية عند المسلمين ما يقارب قرنًا ونصف من الزمان، وقد عرف عصرهم ازدهارًا علميًا وثقافيًا، واشتهر فيه علماء وفلاسفة كابن الطفيل وابن رشد[2]، ولكن علينا أن نراجع هذه الانتصارات الكبيرة اليوم لأننا نحصد مآسي كبيرة وسفكًا كبيرًا للدماء.

الازدهار والتكفير

وكي أوضح ذلك دعونا نراجع منظورنا لتاريخنا، فكتب التاريخ تعتبر عصر الموحدين في الأندلس، من عصور الازدهار والقوة، وهذا صحيح، والدليل على ذلك أن ابن رشد الفيلسوف الشارح الأهم لأرسطو قد وضع شرحه بناء

---

(1) وأخذ أحدهم وهو مارك الطليطلي يترجم عقيدة التوحيد أو المرشدة إلى اللغة اللاتينية؛ العقيدة التي كانت هي لب وصلب عقيدة الموحدين أخذ يترجمها إلى اللغة اللاتينية بأمر من رئيس أساقفة طليطلة والرئيس الديني الكاثوليكي لإسبانيا. يقول هذا المترجم: «لذلك قد قمت بترجمة كتيب ابن تومرت، بعد أن انتهيت من ترجمة القرآن، لكي يتسنى للمسيحيين أن يأخذوا منها أكبر قدر من المعلومات، يتمكنوا بها من الرد على المسلمين ومحاربتهم» مقدمة، محقق كتاب أعز ما يطلب، ص20.

(2) هناك حادثة يرويها أحد تلامذة ابن رشد على لسان أستاذه أيام شبابه، حين قدمه ابن طفيل، في لقائه الأول (548هـ -1153م) بأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي يُعَدُّ المؤسِّس الحقيقي لدولة الموحدين، تدل على ما كان يحف المشتغلين بالفلسفة من خوف، يقول « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدت عنده أبا بكر بن الطفيل، فمدحني أبو بكر أمامه. ثم سألني [السلطان] عن اسمي وأسرتي، وقال لي: «ما هو رأي الفلاسفة في السماء، هل هي حادثة أم قديمة؟» فخفت واعتذرت، وأنكرت اشتغالي بالفلسفة. فأدرك أمير المؤمنين ما اعتراني من الخوف، فالتفت إلى أبي بكر [ابن طفيل]، وأخذ يحادثه في ذلك، ويذكر له أقوال أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة، وما قال أهل المِلّة في الردِّ عليهم، حتى تعجَّبتُ من علمه وسعة اطلاعه. وما زال يتلطف في كلامه حتى هدأ روعي، وتكلمت بما حضرني من ذلك وأبديت رأيي».

على طلب أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (580هـ / 1184م) الحاكم الثاني في دولة الموحدين والمشهور بحفظه لكتاب البخاري وحبه للعلم والعلماء والجهاد. غير أن ذلك لا ينبغي أن ينسينا أن الكتاب الذي قامت عليه هذه الدولة يشرعن القتل، وأن هذه الدولة أحرقت كتب ابن رشد وأنها أصدرت بيانًا[1] تحذر فيه المسلمين من الاشتغال بكتب الفلاسفة. إننا ما زلنا نحصد ثمن هذه النصوص والبيانات، ولا نبذل جهدًا لنقدها، ونكتفي بالتغني بالإنجازات الجهادية التي تحققت في زمنها.

مذابح الموحدين

دعونا الآن نستعرض، المذابح التي تمت على يد الموحدين باسم هذه النصوص.

لنأخذ مثلًا ما فعله بمراكش، ما هي المذابح التي ارتكبت في مراكش؟ لنتذكر أن ابن تومرت في بداية دعوته قد دخل إلى مراكش مع عبدالمؤمن

---

(1) يورد ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة) رسالة المنصور الموحدي بترك الفلسفة وعلم الكلام ، في ترجمته لابن رشد، وقد أطلق عليها المحقق إحسان عباس، رسالة ابن عياد في نكبة ابن رشد، وهذه مقتطفات منها: كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام... فخلدوا في العالم صحفًا ما لها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق. بعدها من الشريعة بعد المشرقين ... بعمل أهل النار يعملون ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم... كانوا عليها أضرّ من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب، لأن الكتابيّ يجهد في ضلال، ويجد في كلال وهؤلاء جهدهم التعطيل وقصاراهم التمويه والتخييل... فلما وقفنا منهم على ما هو قذىً في جفن الدين ونكتة سوداء في صفحة النور المبين،.نبذناهم في الله نبذ النواة، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة. وأبغضناهم في الله كما أنا نحب المؤمنين في الله. ... ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام بالسيف في مجال ألسنتهم والإيقاظ بحده من غفلتهم ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهوان. ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة. السفر6، ص26-28.

ابن علي، الذي أصبح لاحقًا القائد العسكري لجيوش الموحدين، الدخلة الأولى، كان يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاء ثانية عبد المؤمن بعد وفاة ابن تومرت بسنوات وهو قائد عسكري مقاتلًا وفاتحًا في سنة541 هـ ومراكش من أكبر المدن وأعظمها وصاحبها في ذلك الوقت إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، ووالده هو الذي رفض اعتقال ابن تومرت أو سجنه حينها.

التفاصيل التي يذكرها ابن الأثير في هذه المعركة تنتهي في ما بعد حيث «لما فرغ عبد المؤمن من فاس، وتلك النواحي، سار إلى مراكش، وهي كرسي مملكة الملثمين، وهي من أكبر المدن وأعظمها، ...ونصب عليهم المنجنيقات والأبراج، وفنيت أقواتهم، وأكلوا دوابهم، ومات من العامة بالجوع ما يزيد على مئة ألف إنسان، فأنتن البلد من ريح الموتى... فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينة عنوة، وقتلوا من وجدوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع من معه من أمراء المرابطين، فقتلوا،... وقدم إسحاق، على صغر سنه، فضربت عنقه ... ولما قتل عبد المؤمن من أهل مراكش فأكثر فيهم القتل اختفى كثير من أهلها... وبنى بالقصر جامعًا كبيرًا، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»[1].

عقوبة الحرق

هذا القتل كله يتم باسم نصوص التوحش، ووصاياها «وكان في وصيته إلى قوم إذا ظفروا بمرابطٍ أو أحدٍ من تلمسان أن يحرقوه»[2].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص 1961.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص3634.

خف عنف النزعة التكفيرية بعد أن استتب الأمر للدولة الموحدية، وقام عبدالمؤمن بتحوير مدلول (التّوحيد التّومري) بحيث أصبح يتّسع لكلّ «من شملته كلمة التّوحيد في العهد القريب أو البعيد»، وأنّ «لفظ الموحّدين بيننا وبينهم جميعًا»، ومن ثمّ أضحى يُعتبر موحّدًا كلّ من أعلن ولاءه السّياسي للدّولة الموحّدية، فانتظم التّوحيد - على ذلك - «أناسًا أكثر، مختلفي المشارب والاتّجاهات، متعدّدي الأهداف والغايات»[1].

تكفير ابن تيمية لابن تومرت

من المفارقات الغريبة، أن ابن تيمية وتلميذه الذهبي يستنكران على ابن تومرت ودولته، سفك دماء المسلمين، والحكم بشرعنة هذا السفك، ويتناسيان أنهما حين جاءا بعد وفاة ابن تومرت بأكثر من 130 عامًا، قد أنتجا نصوصًا أكثر توحشًا وتشددًا.

بل إن نقد ابن تيمية لابن تومرت مبني على الأساس اللاهوتي نفسه الذي استخدمه ابن تومرت ضد خصومه، أي مبني على اعتبار عقيدته كفرًا وخروجًا عن إجماع عقيدة السنة.

اعتبر ابن تيمية التوحيد على مذهب ابن تومرت، إلحادًا في أسماء الله، لماذا؟ لأن ابن تومرت عدل في جزئية من العقيدة الأشعرية، وهي المتعلقة بصفات الله[2]، قال إننا إذا أعطينا الله صفات البشر (السمع والبصر) فسنكون قد جسدناه، علينا أن ننفي الصفات البشرية عن الله،

---

(1) لخضر بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص215.

(2) يقول ابن تيمية في فتاويه «معنى التوحيد عندهم: يتضمن نفي الصفات؛ ولهذا سمي ابن تومرت أصحابه الموحدين، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته». ابن تيمية، مجموع وفتاوى ابن تيمية، ج31، ص209.

أي نعطلها، وقد أطلق علماء الملل والنحل على هذه الجماعة (المعطلة = نفاة الصفات) وهذا خلاف مدرسة السلف التي يؤمن بها ابن تيمية، فهذه المدرسة تُثبت لله الصفات التي وردت في النصوص.

يضع ابن تيمية عقيدة (المرشدة) في مصاف ما يقول به الفلاسفة كابن سينا وابن سبعين وأمثالهم، ممن يذهبون إلى أن لله وجودًا مطلقًا، أي مطلق من الصفات البشرية. وبهذا فهو يخرجه من الاعتقاد الذي يؤمن به أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة[1].

(1) يخرج ابن تيمية ابن تومرت من إجماع أهل السنة والجماعة «والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يُرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله. صاحب (المرشدة) لم يذكر فيها شيئًا من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة».

ابن تيمية والتكفير المملوكي

الفصل الثالث

ما زلنا ضمن فرضية البحث: السّنّة الأرثوذكسية[1]، بمعنى السنَّة التي تمثل الخط السياسي الرسمي، هي التي تملك خطاب التكفير، وقد مثلتها السلطة السلجوقية ثم الزنكية ثم الأيوبية وصولًا إلى المماليك. لا يمكن فهم خطاب التفكير من دون تفكيك الخلفيات والمصالح والتحكمات والإكراهات السياسية التي وجهت خطاب التكفير في تراثنا، حتى غدا جزءًا من ثقافتنا الدينية.

الحنبلية بدل الأشعرية

لم يكن ابن تيمية موظفًا داخل بلاط السلطة، كما كان الغزالي موظفًا عند نظام الملك الذي ترأس مدرسته (النظامية) وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. وهو ليس صاحب مشروع دولة وسلطة كما كان ابن تومرت حين أنشأ الدولة الموحدية. مع ذلك، فإن نص ابن تيمية يتقاطع

---

(1) أحاول في كل فصل إضاءة جانب من جوانب مصطلح (الأرثوذكسية) الذي استخدمته في هذه الدراسة. كلمة أُرثوذكسية كلمةٌ يونانية الأصل انتقلت بلفظها إلى معظم اللغات، ومنها العربية. وكانت الكلمةُ في الأصل تعني الاستقامة، ثم صارت تدلُّ (اصطلاحًا) على عقيدة الكنائس الكبرى، قبل ظهور الاسلام، تمييزًا لها عن عقيدة أولئك الموسومين بالهرطقة. والأُرثوذكسية كمصطلحٍ دالٍ على (إيمان) مسيحي معين، لم تنشأ وتتطوَّر إلا عبر الجدل والجدال مع الهرطقة والمهرطقين. ولذلك اختلفت الأحكام العامة للعقيدة الأرثوذكسية، وتعدَّل (قانون الإيمان الأرثوذكسي) عدة مرات، بحسب هذه الحركة الجدلية والجدالية. ثم استقر أمر العقيدة الأرثوذكسية، بعد عدة قرون من ظهور المسيحية، فصارت قريبة المعنى مما نقصده بكلمة (السلفية) أو (أهل السنة) في مجال الفكر الإسلامي، وبكلمة (المحافظين) في المجال السياسي، مع اختلافاتٍ طفيفةٍ في الدلالة العامة. انظر: يوسف زيدان، لاهوت التحرير، ص 40، ص42.

مع نص السياسة والسلطة والقوة، وهذا التقاطع لعب دورًا كبيرًا في صناعة نصوص توحش وواقع متوحش أيضًا، ففتاويه لعبت دورًا كبيرًا في إحداث مجازر دينية واستمرت حتى اليوم، إذ إن نصه ما زال فاعلًا ومستخدمًا من قبل الجماعات التكفيرية إلى الآن.

سعى ابن تيمية لتكون عقيدة ابن حنبل، العقيدة الرسمية لدولة المماليك، على غرار العقيدة الأشعرية التي كانت النسخة الأرثوذكسية الرسمية للسنة في الدولة السلجوقية والأيوبية والزنكية. لم ينجح ابن تيمية في ذلك، وكان مصيره السجن، وبقيت نسخة ابن تيمية لعقيدة أهل السنة والجماعة التي عبّر عنها في (العقيدة الواسطية) و(الفتوى الحموية) وغيرها من كتبه، تنتظر لحظة محمد عبد الوهاب الذي نجح في جعلها عقيدة رسمية للدولة السعودية الأولى بعد ميثاق الدرعية في 1745م بين رجل الملة محمد بن عبدالوهاب ورجل الدولة محمد ابن سعود.

شكاية أهل الحنبلية

تشبه لحظة ابن تيمية وهو يسعى لتسويق الحنبلية باعتبارها عقيدة أهل السنة والجماعة كعقيدة رسمية للمماليك لحظه القشيري حين كتب رسالته «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة» وهو يسعى لتمكين العقيدة الأشعرية من الدولة السلجوقية، بمعنى أن تكون العقيدة الرسمية للسلطة. نجحت رسالة القشيري مع نظام الملك، وفشلت رسالة ابن تيمية مع الملك الناصر ابن قلاوون، بل ارتدت عليه، فسجن ومات في سجن ابن قلاوون.

السؤال الذي نطرحه في البداية ما هي ملامح السياق السياسي الذي

عاش فيه ابن تيمية؟ كيف تبدو ملامح السلطة السياسية الإسلامية في هذه الفترة؟

ولد ابن تيمية في (661هـ - 1263م) وتوفي في(728هـ - 1328م) علينا أن نلتفت أننا في عصر ابن تيمية، قد انتهينا من عصر الخلافة الراشدة، وانتهينا من الدولة الأموية، والدولة العباسية في مرحلتيها الأولى والثانية. مع ولادة ابن تيمية، مضت خمس سنوات على سقوط بغداد على يد المغول واهتزاز المركز الإسلامي للخلافة الإسلامية. وانتهينا من الدولة السلجوقية التي كانت ضمن الخلافة العباسية. وانتهينا من الدولة الزنكية التي كانت امتدادًا للدولة السلجوقية وسلاطينها، هم في الأصل قيادات عسكرية في جيوش السلاجقة، وانتهينا من الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي، القائد العسكري في الدولة الزنكية. انتهينا من كل ذلك، الآن نحن في مرحلة جديدة، العالم الإسلامي في فضاء جديد.

من الذي يحكم هذا الفضاء الجديد؟ ما هي السلطات المسيطرة والمتنافسة فيه؟

قلنا إن الخلافة العباسية انتهت في بغداد وقضي عليها، وأصبح هناك التتار أو المغول[1] الذين اجتاحوا بغداد ووصلوا إلى دمشق[2]. هنا

---

(1) «التَّتار أو التَّتر كلمة أطلقها العرب على مجموعة القبائل المغولية التي اجتاحت الشرق العربي وبلادًا إسلامية أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين». الموسوعة العربية.

(2) عند دمشق توقف مشروع الامبراطورية المغولية، حتى بعد أن اعتنقوا الإسلام، وابن تيمية واحد من علماء الخلافة السنية الذين لم يقبلوا بإسلام المغول، وهذا ما مكّن المماليك من اكتساب تمثيل شرعية الخلافة العباسية واعتبار المغول (المسلمين) أعداء «وعلى =

ظهر المماليك كقوة جديدة، بدأت سلطتهم الفعلية في مصر، واتجهوا إلى الشام (سوريا، فلسطين ولبنان) بين عام 1250م و1517م، حكم المماليك مصر والشام، بعدهم جاءت الدولة العثمانية.

الفترة التي عاشها ابن تيمية هي فترة الصراع بين المماليك من جهة، وبين التتار أو المغول من جهة أخرى. وعلى الضفة الأخرى لدينا الحروب الصليبية في حملاتها المتعددة. كان الصليبيون يسيطرون على أجزاء من الشام والمدن الساحلية.

من هم المماليك وما هي علاقة ابن تيمية بهم؟

المماليك هم سلسلة من الجنود (مثل السلاجقة والزنكيين والأيوبيين). يشتركون مع المغول والسلاجقة أنهم أتوا من شرق آسيا، يلتقون في نسبهم العرقي أيضًا. المماليك كان يؤتى بهم كعبيد نتيجة الخطف أو التجارة (عبيد بيض لأنهم ليسوا من أفريقيا)، ويتم تدريبهم على الفروسية وتهذيبهم على الإسلام. بمعنى أنّه يتم تعليمهم القرآن والصلاة والسيرة النبوية، ويعدّون كمقاتلين مسلمين، ويتم استخدامهم عسكريًّا في الجيش. الاستخدام العسكري للعنصر غير العربي بدأ منذ عصر المأمون ثم المتوكل، واستخدم في الدولة الإخشيدية والدولة الفاطمية، استخدم المملوكي في الدول التي شكلت مراكز للإسلام

- أثر الهجمات المتواصلة التي قام بها المماليك بمساندة فقهاء كبار في العالم السُنّي، بدا واضحًا انكسار الجانب المغولي ... فشل المغول في تقديم أنفسهم كبديل عن المماليك أو حتى سواسية معهم في منظور المسلمين قاطبة، وبالدرجة الأولى المسلمين السُنّة، بالنظر إلى أن مانح الشرعية يقيم في أرض خصومهم، فالإنضواء تحت مظلّة الخلافة العباسيّة لا بد منه للحصول على مشروعية، تظل ضرورية كيما يسبغ عليهم صفة سلاطين الإسلام» فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة، ص153.

كجندي مقاتل موال (مرتزق) كان يسهل التحكم فيه ويسهل توجيهه وتشكيل عقيدته القتالية بحسب الدولة وما تريد أن تحقق من أغراض سياسية.

شجرة الدر والخلافة

المعركة الأولى التي أثبتت فيها دولة المماليك حضورها على المستوى الفعلي والسياسي هي المعركة التي قادتها شجرة الدر (بين العام 1250و1260)، وهي معركة مهمة، إذ كانت هناك الحملة الصليبية الخامسة على مصر، وكان زوجها هو آخر سلطان أيوبي ويسمى الملك الصالح (الحاكم السابع للدولة الأيوبية التي حكمت مصر بعد الدولة الفاطمية وقبل دولة المماليك، ويلتقي مع أعمامه وأجداده في صلاح الدين الأيوبي). خاض الملك الصالح معركة ضد الصليبيين في مصر، وحين توفي أخفت زوجته شجرة الدر وفاته[1]، كي لا يؤثر ذلك في الجنود ويؤدي إلى هزيمة المسلمين، واستطاعت هي أن تقود المعركة وتمكنت من الانتصار على الصليبيين، هذا الانتصار توج شجرة الدر لتكون حاكمة مصر، أخذت البيعة للسلطانة الجديدة ونقش اسمها على السِّكة بالعبارة الآتية «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين»[2].

---

(1) «[سنة سبع وأربعين وستمائة] ونزل السلطان المعظم توران شاه في قصر أبيه، ومنه يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته، بل كانت الأمور على حالها: الدهليز الصالحي والسماط ومجيء الأمراء للخدمة، على ما كان عليه الحال في أيام حياته، وشجرة الدر تدير أمور الدولة كلها، وتقول: السلطان مريض، ما إليه وصول- فلم يتغير عليها شيء، إلى أن استقر الملك المعظم بالصالحية» المقريزي، السلوك لمعرفة الدول، ص115.

(2) «[وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة] ولدت شجر الدر من الملك الصالح ولدًا سمّاه خليلاً». =

لم يقبل المعتصم آخر خليفة عباسي أن تكون شجرة الدر سلطانًا، فهي ليست رجلًا ولا قرشيًا، مع أن المماليك كانوا يحكمون باسم الخليفة العباسي كما فعل الأيوبيون والزنكيون والسلاجقة. لذلك بعد ثمانين يومًا ستتزوج شجرة الدر من عز الدين أيبك أحد أمراء زوجها المتوفى، وأحد القادة المماليك لكي تحصل على شرعية للسلطة. لم يكن الخليفة العباسي موافقًا على هذا الزواج، كذلك الأيوبيون في الشام[1]. بعد زواج شجرة الدر، بدأت مرحلة حكم المماليك وانتهت الدولة الأيوبية، أراد المماليك أن يبحثوا عن شرعية لهم، فهم ليسوا من قريش وليسوا سادة من آل النبي، وليسوا عربًا. فكيف يتمكنون من الحكم؟

هنا تأتي لحظة مهمة وهي: قتل الخليفة العباسي وانتهاء الخلافة في بغداد. نحن نتحدث الآن عن فترة زمنية تقدر ببضع سنوات بين سقوط الخلافة العباسية وبروز المماليك كقوة صاعدة. من تبقى من العباسيين انتقل إلى مصر. كان المماليك يمتلكون القوة ويفتقدون الشرعية، والعباسيون يمتلكون الشرعية (عرب قرشيون) ويفتقدون القوة حينها. برز المماليك باعتبارهم القوة التي تحمي العائلة العباسية وصاروا يحكمون باسمها فأصبحت لهم شرعية. تمكن المماليك من حكم مصر والشام، وتحول المماليك إلى دولة كبرى لديها قيادة ومنجزات عمرانية وعلماء، مثلها مثل كل الدول كالدولة الفاطمية والدولة الأيوبية والسلجوقية، فكل دولة حين تستقر تبرز إنجازاتها وإسهاماتها الخاصة وتجلب العلماء وتنشئ المراكز والمدارس.

= المقريزي، السلوك لمعرفة الدول، ص96.

(1) كان صلاح الدين قد وزع السلطة الأيوبية إلى ما يشبه الإقطاعات بين إخوته وأولاده، كل شخص يحكم منطقة؛ مصر وفلسطين والشام، وهذا سبب خلافات بينهم. الأيوبيون الموجودون في الشام لم يقبلوا بحكم شجرة الدر رغم الانتصارات التي حققتها.

لم يولد ابن تيمية حتى الآن، لكنه عاش هذا الفضاء فيما بعد، تواصلت انتصارات المماليك، فها هم ينتصرون في معركة عين جالوت (658هـ -1260م) وذلك بعد عامين من سقوط بغداد[1]. قاد هذه المعركة سيف الدين قطز، وهو قائد من المماليك، وانتصر على المغول وكان هذا الانتصار حاسمًا في وقف تمدد المغول من أن يصلوا إلى مصر وفلسطين والشام، فقد كانوا قوة فتية ومرعبة، وحتى هذه اللحظة ما زالوا كفارًا لم يدخلوا الإسلام بعد.

بعد هذه المعركة بثلاث سنوات ولد ابن تيمية، سيعيش هذه الأجواء، أجواء العالم الإسلامي وهو يعيش تشتتًا كبيرًا على مستوى السلطة المركزية، فالخلافة العباسية سقطت، والمغول هم الذين يسيطرون على العراق وإيران وهم يهددون حدود الشام، الفاطميون سقطوا، الصليبيون ما زالوا موجودين. ومن الناحية العقائدية الأشعرية هي المذهب العقدي المسيطر على العالم السنّي[2].

في هذه الفترة المضطربة، ولد ابن تيمية في سوريا، في المنطقة المتوترة بين التتار والمماليك والصليبيين. بعد معركة عين جالوت سيكون هناك حدث كبير في العالم الإسلامي، فالمغول وبعد أن غزوا الأرض، ستغزوهم عقيدة الأرض من جديد، بعد 53 عامًا. لقد دخل

---

(1) في منطقة الشام: سوريا وفلسطين ولبنان؛ دائمًا كان يحكمها من يحكم مصر.

(2) المماليك مثلاً تبنوا العقيدة الأشعرية لأنها المذهب الذي بدأ بالانتشار منذ السلاجقة، أي منذ القرن الرابع الهجري وامتد إلى القرن السابع الهجري ودخولًا إلى القرن الثامن الهجري وصولًا إلى اليوم.

المغول في الإسلام ليبدأ صراع آخر: نحن مسلمون وأنتم مسلمون، فمن الذي يمثّل الإسلام؟ من هو الخليفة؟ ومن يمتلك الشرعية؟ ومن يستطيع أن يعلن الجهاد ويقاتل؟ ما دور ابن تيمية في هذه اللحظة؟ ومع من سيقف؟

1. التكفير بين رجل الملة ورجل الدولة

ارتبطت صورة المغول لدينا بالتوحش والقتل والعنف، هي صورة صحيحة لكن هناك جانبًا آخر ربما غاب عن الصورة العامة، وهو أنهم أسلموا. لكن إسلام أي جماعة لا يعني تخليها عن ثقافتها وعاداتها وطبائعها؛ بمعنى أن إسلام المغول لم يهذب طبائع التوحش عندهم، كما أن الإسلام لم يتمكن من إنهاء العصبيات القبلية بين العرب. بدأ إسلام المغول قبل غزوهم بغداد، أول من دخل الإسلام منهم هو حفيد جنكيزخان (بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان) وهو ابن عم (هولاكو). كان يتراسل مع المماليك وهو ندّ لهولاكو وضد غزوه بغداد، ويقال إن أحد أسباب انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت(658هـ / 1260م) هو بركة خان.

الجانب الآخر من إسلام المغول أنهم هم الذين فتحوا الهند وجعلوها بلدًا مسلمًا، ونشروا الإسلام في شرق آسيا فيما بعد وجعلوا له حضورًا كبيرًا، فحين نستحضر الجانب الدموي منهم علينا أن لا ننسى هذا الجانب أيضًا، كذلك علينا أن نعرف أنّ حفيد هولاكو والذي أخذ اسم أحمد أسلم أيضًا. بعد 62 عامًا من تدمير بغداد وحرق كتبها يأتي أحمد حفيد هولاكو ليتحدث باسم الإسلام، ويأتي في حملة أخرى بعد عين جالوت بـ 40 عامًا، في سهل شقحب قرب دمشق، كمحارب مسلم للمماليك.

إذن نحن الآن أمام حرب إسلامية - إسلامية، وفي قلب هذه الحرب يأتي ابن تيمية. سيمثل ابن تيمية سلطة المماليك. الناصر محمد بن قلاوون (حاكم المماليك وسلطان مصر)، كان يحث على الجهاد في هذه المعركة ضد المغول الذين اعتنقوا الإسلام.

ابن تيمية شكّل وفدًا وذهب لمقابلة السلطان غازان (قائد هذه المعركة) ليحاججه في مشروعية هذه الحرب باعتباره مسلمًا. ويقال إنه أثناء حديثه قرب حتى تلاصقت ركبته بركبة السلطان. هناك جزء من المبالغات في كتب التاريخ التي تقول إن السلطان كان مقبلًا ومصغيًا إليه، وأن ابن تيمية قال للترجمان (غازان لم يكن يتقن العربية) «قل لغازان إنك تزعم أنك مسلم ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بدا لنا [على ما نراه] فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت. عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت وما وفيت»[1] هذا الكلام يُعتبر جريئًا، ومن الصعب، إن كان التتار بالصورة المعروفة عنهم، تصديق أن ابن تيمية تمكن من قول ذلك.

معركة شقحب

في معركة شقحب (702هـ/1303م) حقق المماليك انتصارًا على المغول المسلمين، وابن تيمية كان بطلًا في هذه المعركة، مشروعية هذه الحرب وضعها ابن تيمية وأنتج من خلالها نصوصًا تكفيرية متأثرة بهذا الجو. كان صوته جهوريًا، ويحث على الجهاد، وقد أفتى لهم بالإفطار في رمضان ليتمكنوا من تحسين أدائهم في المعركة. بدا ابن تيمية بطلًا

---

(1) تتناقل كثير من المواقع السلفية قصة هذا اللقاء في سياق بيان شجاعة ابن تيمية وجرأته على قول الحق، لكني لم أتمكن من العثور عليها في أيٍّ من كتب التاريخ.

سينازع السلطان في النجومية، لذلك خاف السلطان الناصر بن قلاوون أن ينافسه أو ينقلب عليه، من هنا جاءت مقولة ابن تيمية الشهيرة «أنا رجل ملة لا رجل دولة» بمعنى لا تخشَ أن أنازعك في الملك.

بعد هذا الانتصار سيواجه المماليك عدوًا آخر: الصليبيون، وسينجح المماليك في دحر الصليبيين وإخلاء منطقة فلسطين ودمشق ولبنان منهم. سيتم القضاء عليهم، وبذلك سيحقق المماليك انتصارات كبرى في هذه المرحلة، وابن تيمية كان موجودًا في هذه اللحظة السياسية.

بعد هذه الانتصارات ستبقى الأقليات المسلمة المصنفة بأنها ليست من أهل السنة والجماعة: العلويون، النصيريون، الروافض، الإسماعيليون، الاثنا عشرية الموجودون في جبال لبنان وكسروان، كيف سيتصرف ابن تيمية معهم؟ سيصدر فتاويه التي تبيح قتلهم. بعد تحقيق هذه الانتصارات سيُعمل المماليك سيوفهم في رقاب هذه الأقليات وحدثت مجازر كبرى في جبل لبنان وشرعنتها تمت على يد ابن تيمية، وسنناقش هذه الفتوى في هذا الفصل.

ابن تيمية ضد الأشاعرة

سيخوض ابن تيمية معركة أخرى، مع ممثلي أهل السنة والجماعة وهم الأشعرية. تبنى السلاجقة الأشعرية عقيدة وحكمت هذه العقيدة الدولة الزنكية والدولة الأيوبية وأصبحت هي الممثل الشرعي للسنة ولأرثوذكسية السلطة السياسية. هل تمثل الأشعرية بالنسبة لابن تيمية أهل السنة والجماعة فعلًا؟ هل لديها هذه الشرعية فعلًا؟ سيكون جواب ابن تيمية لا. فالأشعرية ليست هي أهل السنة والجماعة.

من يمثل أهل السنة والجماعة بالنسبة لابن تيمية، هو أحمد بن حنبل،

وليس أبو الحسن الأشعري وما تفرع عنه من أشعريين. وحسب ابن تيمية أيضًا فإن أحمد بن حنبل تم تأويله خطأ على يد الأشعرية، وأننا بحاجة إلى العودة للقرون الذهبية الأولى، قرن النبي وقرن الصحابة والتابعين وتابع التابعين، إنها القرون الثلاثة الأولى التي تسبق مجيء أبي الحسن الأشعري. يريد ابن تيمية أن يعيد وصل أهل السنة والجماعة بخط أحمد بن حنبل الذي سيمثله خير تمثيل، وسيخوض معركة كبيرة مع التيار الأشعري.

لكن ابن تيمية لن يدخل معركة مع رؤوس التيار الأشعري الذي يفصله عنه تقريبًا 150 عامًا. ابن تيمية جاء بعد الغزالي تقريبًا بحوالى 150 سنة، ولن يدخل معركة مع الغزالي أو أبي الحسن الأشعري أو مع المفسر الكبير الرازي. سيعتبر أن أبا الحسن الأشعري والغزالي قد مثلا أحمد بن حنبل والتيار السلفي بدرجة كبيرة، وأنهم في كتبهم المتأخرة قد أصبحوا سلفيين، وأن الأشاعرة الذين انبثقوا منهم أساؤوا تأويلهم وأدخلوا فكرة التأويل للصفات الإلهية وأخلوا بمفهوم المعتقد الصحيح، ومن ثم، فالأشعريون غير الأشعري، هم غير أبي الحسن الأشعري، ولا يمثلون عقيدته تمثيلًا صحيحًا.

سيقوم ابن تيمية بشن حرب عقائدية ضد الأشعريين، ضد تأويلهم للصفات، وسينشئ خطابًا مغايرًا يعتبره ممثلًا للسلف ولأحمد بن حنبل. هنا سيثور العلماء الموجودون في بلاط المماليك ضده، ويعقدون له ما يمكن أن نسميه بمجالس المعتقد، وسيكون فيها حوارات عقائدية تنتهي في النهاية بابن تيمية إلى أن يسجن سبع مرات في هذه الفترة التاريخية، ويموت في سجنه الأخير بدمشق.

نريد الآن أن نتعرف على هذه المعركة أكثر، ما هو الفرق بينه وبين الأشاعرة؟

2. تمثيل السلف بين الأشعرية والحنبلية

خاض ابن تيمية معارك عقيدية متعددة الجبهات، إحدى معاركه الكبيرة كانت مع الأشاعرة. دعونا نبدأ في استعراض هذه المعركة عبر الاستشهاد بفقرة كتبها أحد السلفيين المعاصرين وهو حمد بن عبدالمحسن التويجري في تحقيقه لكتاب (الفتوى الحموية). تتضمن هذه الفتوى معتقدات ابن تيمية التي يخالف فيها الأشاعرة، كتبها في حماة عام (690هـ -1291م) وهي التي فتحت باب الخلاف عليه، ومنها بدأت حروب ابن تيمية مع الأشاعرة.

يقول التويجري في مقدمة هذا التحقيق: «وفي هذه الأثناء ومن خلال هذه الأمواج المتلاطمة، رفع الأشاعرة رؤوسهم، وقويت شوكتهم، وسمعت كلمتهم، وأضحى مذهبهم هو دين العامة والعلماء، ولقي الحماية من السلطة آنذاك وعاش في كنفها وتحت مظلتها، وأطلق عليه أصحابه زورًا وبهتانًا مذهب أهل السنة والجماعة، فاكتسب بذلك شهرة واسعة ونفوذًا قويًّا، فلم يعد أحد يجرؤ على معارضته وتوجيه الانتقاد إليه ومن سوّلت له نفسه بذلك فالويل له ثم الويل له، بل قد يتّهم بالخروج والكفر»[1].

يدرس كاتب هذا النص في جامعة الإمام محمد بن سعود، وهو

---

(1) انظر:حمد التويجري، مقدمة تحقيق الفتوى الحموية الكبرى، ص7.

أحد السلفيين المعاصرين، ويعيش في كنف سلطة عقيدتها مبنية على التحالف مع العقيدة السلفية، على عكس السلطة التي كان يعيش في كنفها ابن تيمية، لم تكن تتبنى العقيدة السلفية، بل العقيدة الأشعرية. لذلك ما يقوله السلفي المعاصر بصورة واضحة، هنا، هو بالضبط ما يقوله ابن تيمية بصورة غير واضحة هناك.

النقطة الأساسية في هذا النص أنه يوضح طبيعة انزعاج تيار ابن تيمية من تبني الدولة لمذهب الأشاعرة باعتباره مذهب السنة والجماعة، وحسب ما يقول، ادعوا زورًا وبهتانًا أنه مذهب أهل السنة والجماعة، وهذه هي معركة ابن تيمية، أن يثبت أن مذهب الأشاعرة ليس هو مذهب أهل السنة والجماعة، ولا يمثله، بمعنى أنه لا يمثل القرون الذهبية الثلاثة التي يتحدث عنها باستمرار، فمذهب الأشاعرة لا يمثل النبي (ص) ولا سنته ولا أصحابه ولا تابعيه ولا تابعي تابعيه. ورسالة ابن تيمية هي استعادة هذه القرون الثلاثة ومواصلتها بعد أن انقطعت بسبب الأشاعرة، هذه هي أساس معركة ابن تيمية، والتي تمثلها (الوهابية) في العصر الحديث.

الأشعري والأشعرية

كان ابن تيمية يريد أن يستعيد أرثوذكسية أهل السلف (أهل السنة) وينتزعها من عند الأشاعرة. ليست المعركة عقائدية فحسب، فهي معركة سياسية أيضًا، فهذا المذهب أصبح هو المذهب الرسمي من قبل السلاجقة ومن جاء بعدهم من الزنكيين والأيوبيين، وصار هو المذهب المنتشر في العالم الإسلامي وقد رأينا كيف أن ابن تومرت تبنى هذا المذهب على طريقته الخاصة، وكان حريصًا على أن يظهر مطابقته للأشعرية.

لعب ابن تيمية لعبة خطابية، فرق بين الأشعرية (كجماعة وتيار) والأشعري (كمؤسس). وقال «للأشعرية قولان ليس للأشعري قولان»[1] ماذا يعني ذلك؟ يعني أن الأشعري له قول واحد ومعتقد واحد، لكنّ الأشعرية أي علماء الأشعرية الذين جاؤوا بعده لهم قولان.

ما هما هذان القولان؟ هما: القول الأول متعلق بالصفات، هذه نقطة سنعالجها منفصلة. الصفات عند ابن تيمية والتيار السلفي كلها ثابتة لله، الصفات الخبرية والصفات الفعلية، الصفات التي تقول إن لله يدًا وله وجهًا وله رجلًا. الأشاعرة يثبتون الصفات، ويقولون نحن نؤمن أن لله صفات، هذا هو القول الأول، والقول الثاني، نحن نؤول هذه الصفات، نبحث عن معنى آخر غير المعنى الظاهر الذي يدل على التجسيم.

على الطرف الآخر، هناك موقف المعتزلة الذين يقولون إن الله ليس له صفات، صفاته معطلة، غير مثبتة لأنه إن كان له صفات، فسيكون له جسم وهذا سيوقعنا في التشبيه والتجسيم، وهكذا سنقع في محظور، فالله ليس له صفات.

هكذا فالمعتزلة تقول ليس لله يد، والأشاعرة له يد لكن بمعنى القوة، والسلفية له يد بالمعنى الذي نفهمه من اليد، لكن لا نعرف كيف هي. وجاء الأشاعرة وقالوا سنثبت الصفات ولكن سنؤولها، وفي المحصلة لن نقول إن له يدًا بالمعنى الذي نعرفه[2].

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج3،ص 190.

(2) «فالمعتزلة في الصفات: مخانيث الجهمية. وأما الكلابية: فيثبتون الصفات في الجملة. وكذلك الأشعريون ولكنهم - كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري - :الجهمية الإناث. وهم مخانيث المعتزلة. ومن الناس من يقول: المعتزلة مخانيث الفلاسفة. وقد ذكر الأشعري =

ابن تيمية لم يصطدم مباشرة مع الأشعري بسبب سلطته الرمزية الكبرى. لكنه سيخطئ الأشاعرة الذين جاؤوا بعده وقالوا بتأويل الصفات الإلهية. كذلك، ولأسباب سياسية، لم يصطدم ابن تيمية بالعلماء الكبار في المذهب الأشعري كالجويني (أستاذ الغزالي) والغزالي والمفسر الكبير الرازي، وذلك بسبب قوة مذهبهم وتبني السلطة لهذا المذهب، فالخلاف مع هؤلاء سيعرضه لمشاكل مع التيار العام المؤيد لهم وجهاز الدولة المتبني لأطروحاتهم. سيقول ابن تيمية، إن هؤلاء لهم قول واحد إلى حد ما، وأنهم انتهوا إلى القول بإثبات الصفات ونفوا التأويل، في كتبهم الأخيرة. وهم أضحوا يمثلون أهل السلف فعلًا. أما الأشعرية المتأخرون عنهم فهؤلاء لا يمثلون السلف، ولا يمثلون أحمد بن حنبل.

من المعروف أن أبا الحسن الأشعري (260هـ -324 هـ) مؤسس المذهب الأشعري، كان لأربعين عامًا معتزليًا، قبل أن ينشق عن المعتزلة، ويتبنى مذهب أحمد بن حنبل، ليصبح ممثلًا للاتجاه السني الذي تبنته السلطة العباسية قبل مجيء السلاجقة لبغداد، حدث هذا في نهاية (300هـ-912م).

الخلاف حول كتاب الإبانة

للأشعري كتاب حوله خلاف كبير، هو كتاب (الإبانة). هو آخر كتاب كتبه قبل وفاته، ابن تيمية وأتباعه يقولون علينا أن نحاكم الرجل بآخر كتاب كتبه. هذا الكتاب يظهر أن الأشعري أصبح سلفيًا فعلًا كما يقولون، فهو يرفض فكرة التأويل ويأخذ الصفات كلها حتى لو فهم من ظاهرها

= وغيره هذا. لأن قائله لم يعلم أن جهمًا سبق هؤلاء إلى هذا الأصل أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه» ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج14، ص349.

أنها تمثل تجسيمًا أو تجسيدًا. ورغم أن ابن تيمية وأتباعه يرفضون فكرة التجسيم والتجسيد والتشبيه، ويقولون نحن لسنا من أهل التجسيد، لكن خصومهم يقولون لهم إنكم بالإيمان بهذه الصفات على ظاهرها تجسمون وتجسدون.

كتاب (الإبانة) غير مثبت أنه للأشعري، هناك جدل كبير حول هذا الكتاب، لم يستطع أحد أن يحسم أنه فعلًا للأشعري. هناك من يقول إن هذا الكتاب محرّف بمعنى أنه تم الدسّ فيه واللعب به والحذف منه والإضافة إليه، ليمثل في النهاية أهل السنة والجماعة وفق ما يريده ابن تيمية وجماعته، وأن الطبعات التي طبع فيها كلها لا يمكن الوثوق فيها. بينما هناك من يقول إن هذا الكتاب فعلًا للأشعري، وهناك من يقول إنه ليس له من الأساس. من هنا يصعب إثبات مذهب الأشعري فيما يتعلق بنفي موضوع الصفات. الأشاعرة تبنوا الأشعري الذي يقول بتأويل الصفات، وهذا هو العدو اللدود لابن تيمية.

أعاد ابن تيمية الخلاف مع الأشعري والأشعرية بعد أن أصبح هذا المذهب سائدًا ومعروفًا ومسلمًا به، بدأ من جديد يشعل معركة حول هذا الكتاب والمعتقد الصحيح لأهل السنة والجماعة، وهذا يرجعنا إلى لحظة خلاف سابقة على لحظة ابن تيمية، تمتد إلى حدود عام (400هـ-1008م). نحن سنعود إلى ما يقرب من مئتين وخمسين سنة إلى الوراء، في هذه اللحظة سنعثر على رسالة، لعالم كبير اسمه القشيري (465هـ-1027م). كتب رسالة عنوانها «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة». هذه الرسالة غير موجودة في كتاب مستقل، حفظها لنا تاج الدين السبكي في كتابه (الطبقات) وهي ذات دلالة هامة.

يعتبر القشيري من أئمة المذهب الأشعري[1]، وهو متعصب للأشعري ويعتبره الممثل لمذهب أهل السنة، لذلك عنوان رسالته بـ(شكاية أهل السنة) كانت الدولة السلجوقية تحت وزارة أبي نصر منصور بن محمد الكندري، قبل أن يأتي نظام الملك ويتولى الوزارة ويتبنى الأشعرية كمذهب رسمي للدولة. يتوجه القشيري في رسالته إلى ضمير العالم الإسلامي السني، يقول لهم إن هناك من ينال من السنة ومن الأشعري.

الرسالة أحدثت ضجة في العالم الإسلامي. كانت هناك فرقة اسمها الكرامية[2]، يعتبرها القشيري فرقة مجسمة، وهم يمثلون المذهب السلفي الذي لا يقبل العقل ولا التأويل. كانت رسالة القشيري ضد هؤلاء الكرامية؛ اعتبرهم محرضين واعتبر الوزير الكندري هو صاحبهم وهو الذي جاء ليثبتهم في الدولة، فلما جاء نظام الملك تخلص منهم وتبنى المذهب الأشعري وأصبح هو المذهب الرسمي.

لكن هناك من يرى أن الكرامية لم تمت في هذا القرن لأن ابن تيمية قد أحياها، وكأن خط ابن تيمية هو استمرار لخط الكرامية الذين كانوا ضد الأشعري وضد فكرة التأويل، من هنا فإن رسالة القشيري تعتبر ضد ابن تيمية الذي يصفه بعض الباحثين بأنه يريد أن يرجع إلى لحظة

---

(1) الأشعري من علماء القرن الثاني والثالث الهجري بينما القشيري من علماء القرن الخامس الهجري.

(2) فرقة الكرّاميّة: فرقة ظهرت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري. سميت نسبة إلى مؤسسها وصاحبها الأول محمد بن كرام السجستاني، زعمت الكرامية أن الإيمان «هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب، فمن نطق بلسانه ولم يعترف بقلبه فهو مؤمن، وزعموا أن المؤمنين كانوا مؤمنين بالحقيقة».

الكرامية ولحظة ابن حنبل. اعتبر ابن تيمية رسالة القشيري شكاية فيها مبالغة وتهويل.

بدت معركة ابن تيمية مع الأشاعرة حول الصفات، وهذه المعركة جعلته يبدو ضد جمهور علماء السنة، الذين يمثلون مذهب السلطة الرسمي، وهذا ما سيجعل ابن تيمية يستدعى إلى مجالس المعتقد ويتم التحقيق معه في طبيعة معتقده.

سيقول في هذه المجالس إنه لم يأت بشيء جديد، وإنه ليس ضد المذهب الرسمي للسنة، وإنما هو ضد فكرة تأويل الصفات. وسيؤكد أن ما يدعو إليه هو ما يدعو إليه السلف، يقول ابن تيمية في أحد المجالس: «فقلت: ما خرجت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا، وقلت: قد أمهلت من خالفنى في شيء منها ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك، وعلي أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث وغيرهم»[1].

وكما هو واضح فإن ابن تيمية يريد أن يقول إن مذهب أهل السلف ليس هو مذهب الأشعرية، بل المذهب الصحيح هو مذهب أحمد بن حنبل، وهو مذهب الأشعري في كتاب الإبانة، وأن الأشعري قد تم تأويله من جماعته تأويلًا خاطئًا.

الأقوال حول الأشعري

إن معركة ابن تيمية مع الأشعريين، زادت من التباس الأشعري وطبيعة

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج3، ص197.

تحوله نحو مذهب أهل السلف. الأشعري كما أوضحنا كان معتزليًّا ثم تحول إلى مذهب السلف، هذا التحول لم يكن كليًّا، هناك عدة أقاويل حول تحول الأشعري، هل تحوّل فعلًا سلفيًّا خالصًا؟ هل خرج من جماعة المعتزلة خروجًا كليًّا أو ما زالت فيه شوائب منها كما يقول ابن تيمية؟ هل تخلى عن تأويل الصفات؟

هناك قولٌ يرى أن الأشعري رجع عن المعتزلة في الفروع فقط مع البقاء على الأصول، أي إنه رجع في المسائل الفقهية وأبقى المسائل العقيدية.

القول الثاني يذهب إلى أن الأشعري مر بعد الاعتزال بطور واحد، اتباع منهج السلف الصالح ولكن منهج السلف الصالح في نظرهم هم الأشاعرة والكُلَّابية، وأنه رجع فعلًا عن المعتزلة لكنه ذهب إلى الكلابية وهم أتباع ابن كُلاب. ابن كلاب هو أستاذ من أساتذة الأشعري وضد المعتزلة. كان سنيًّا حتى في العقيدة لكنه من الذين يستخدمون عقلهم ومهاراتهم العقلية، أي يستخدم التأويل. فهو مع العقيدة نفسها، لكن مخرجه باستخدام المحاجحات العقلية.

القول الثالث: إنه خرج من الاعتزال وتابع ابن كلاب ولم يخرج منه. وظل يعتقد بتأويل الصفات. القول الرابع، إنه رجع إلى مذهب السلف أولًا، ثم انتقل بعد السلف إلى التوسط واستقر عليه ونشأ عنه ما يسمى بالمذهب الأشعري، المقصود بالتوسط الإيمان بالصفات مع تأويلها، هذا مذهب التوسط. يقع بين مذهب نفي الصفات وتعطيلها الذي هو مذهب المعتزلة، ومذهب السلفيين وابن تيمية الذين يعتقدون بالصفات على ظاهرها.

القول الخامس: إنه مرّ بطورين بعد الاعتزال، طور ابن كلاب، ثم

رجع إلى مذهب (الحق)، لكنه بقيت عليه بقايا اعتزالية وشوائب. القول السادس، إنه مر بمرحلة التوسط وسار على طريقة ابن كلاب وألف كتبه المختلفة كمقالات الإسلاميين ثم رجع أخيرًا إلى مذهب السلف من خلال تأليف كتاب (الإبانة).

كان الأشعري بمثابة التوسط بين الفلاسفة والجهمية والمعتزلة من جهة وبين السلفية من جهة أخرى. وخطاب ابن تيمية أسقط هذا الوسط فبدا الخلاف أقرب للتناقض بين أهل السنة والجماعة والفلاسفة والمعتزلة (مثقفو ذلك العصر). بَقي ابن تيمية يُحارب في الأشعري مذهب التوسط، وأراد أن ينتج أشعريًّا سلفيًّا خالصًا، من غير شوائب المعتزلة.

3. لاءات الصفات والتأويل والتكفير

موضوع الصفات (أي صفات الإله) موضوع عقائدي وسياسي. الاختلاف حول هذا المفهوم ولّد مذاهب كلامية دينية في كل الثقافات، سواء في الدين الإسلامي أو المسيحي[1] أو اليهودي، كلها جاءت نتيجة الاختلاف حول الصفات الإلهية التي تحدد طبيعة الإله الذي نؤمن به.

مشكلة الصفات نشأت مع اليهودية من خلال قصص نصوص التوراة

---

(1) في المسيحية مثلاً، هناك اجتماعات شهيرة على خلفيات سياسية عقدها الإمبراطور الروماني بعد أن تبنى المسيحية، لتحديد العقيدة الصحيحة المتعلقة بحقيقة الإله والإيمان والكفر، هناك مثلًا مجمع نيقيا الأول عام325م، حضره 318 من الأساقفة، وكان موضوعه حول عقيدة الكاهن الإسكندري (آريوس): «إن الابن ليس مساويًا للأب في الأزلية وليس من جوهره، وإن الأب كان في الأصل وحيدًا فأخرج الابن من العدم بإرادته. وإن الأب لا يُرَى ولا يُكشَف حتى للابن، لأن الذي له بداية لا يعرف الأزلي، وإن الابن إله لحصوله على لاهوت مُكْتَسَب».

أصدر المجمع قانون الإيمان النيقاوي، الذي قُبِل من الكنيسة كقانون يحدد إيمانها القويم بشأن ألوهية المسيح، مستعملًا التعبير «مساوٍ للأب في الجوهر» في هذا المجمع طرحت عدة آراء حول طبيعة المسيح، 1.إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، 2.المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، 3.لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مرَّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب. 4.إن المسيح إنسان مخلوق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن الابن من مريم، ويرون أن الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس، 5.إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما. 6.ألوهية المسيح.

التي يظهر الله فيها: قلقا حسودًا، غضوبًا، نادمًا، ناسيًا منتشيًا برائحة الشواء، مغلوبًا. اجتهدت المسيحية في حلها عبر اتجاهات عديدة ومذاهب شتى، ولما اعترف الإسلام بالديانتين ورث العرب المسلمون عن العرب المسيحيين واليهود جوانب هذه المشكلة وتداعياتها وتفاصيلها الكثيرة. وكما أن نصوص القرآن بشكل ما امتداد لنصوص التوراة والإنجيل، فإن علم الكلام امتداد أيضًا للاهوت العربي الذي كانت هذه النصوص تشكل موضوعاته العقائدية. ليست النصوص وعلم الكلام واللاهوت، بل حتى العنف وصراعاته السياسية أيضًا امتداد للعنف المقدس والمدنس نفسه[1].

الفتوى الحموية والصفات

أصدر ابن تيمية رسالته (الفتوى الحموية الكبرى) وموضوع الرسالة هو الصفات. ألفه بناء على سؤال وجهه له شخص من حماة بسوريا: ما هو قول السادة العلماء وأئمة الدين بآية الصفات كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ إلى غير ذلك من آيات الصفات وأحاديث الصفات كقوله: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن»، وقوله «يضع الجبار قدمه في النار» إلى غير ذلك.

هذا السؤال البسيط يحمل إجابات معقدة وكثيرة. تعدد الإجابات يترتب عليه تعددًا في الآراء الكلامية والمذاهب. يقسّم علماء العقيدة الصفات إلى عدة أقسام[2]: منها الصفات الخبرية والفعلية. الصفات

---

(1) انظر: يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، ص 58, 195،168.

(2) تقسيم الصفات عند أهل السنة وعند الأشاعرة: بعد النظر في نصوص الكتاب والسنة وجُد أن الصفات الواردة فيها لا تخرج عن أحد هذين القسمين: أ- الصفات الذاتية: وهي اللازمة لذات الله أزلًا وأبدًا لا تنفك عنها بحال من الأحوال. مثل: الحياة، القدرة العلم، العلو، الوجه، =

الخبرية هي التي ثبتت عن طريق الوحي في الكتاب والسنة فقط، وليس للعقل مجال في إثباتها كاليدين، والقدمين، والوجه. فيد الله صفة ثبتت بالخبر الذي أتت به الآيات القرآنية، كذلك الآيات التي تقول بأن الرحمن على العرش استوى، والأحاديث النبوية التي تخبر أن لله رجلين وله وجهًا وله أصابع، هذه نسميها صفات خبرية. أما الصفات الفعلية، فهي المتعلقة بالإرادة والمشيئة، مثل الخلق، الرزق، المجيء، النزول، الاستواء...إلخ. وهناك الصفات العقلية، وهي الصفات السبع: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام.

يقول ابن تيمية إن الصفات بلا تكييف ولا تحريف ولا تشبيه، بمعنى أننا لا نسأل، كيف؟ كيف الرحمن على العرش استوى؟ كيف أن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن؟ كيف أن الجبار يضع قدمه في النار؟ كيف يضحك الله؟ كيف يمكر الله؟ الكيفية محرمة. فهي مثبتة لله ونحن لا نعرف كيف هي، ولا نحرّف فيها، ولا نشبهها بالقياس على الإنسان. فلا يجوز لنا أن نقول الرحمن استوى على العرش كما يستوي الإنسان، ولا أن إصبعي الإله هي كإصبعي الإنسان. فلا تكييف ولا تحريف ولا تشبيه، تسليم فقط. علينا أن نأخذ بهذه الآيات وهذه الصفات كما جاءت.

الهروب من التجسيم

هذا الاختلاف بين ابن تيمية والمعتزلة والأشاعرة مبني أساسًا على فكرة الهروب من التجسيم والتجسيد التي ترفضها المذاهب الرئيسية

= اليدين...إلخ. ب- الصفات الفعلية: وهي المتعلقة بالإرادة والمشيئة، مثل الخلق الرزق، المجيء، النزول، الاستواء...إلخ. ابن تيمية، الفتوى الحموية الكبرى، ص 139.

المتصارعة. وفرارًا من إشكالية التجسيم والتجسيد قالت المعتزلة إنه لا صفات، وقالت الأشاعرة نؤول الصفات لكي لا نقع في التجسيم. أما ابن تيمية والتيار السلفي فقالوا نحن نقول بظاهر الصفات، لكننا نرفض التكييف والتحريف والتشبيه، وهذا يحمينا من التجسيم.

يتهم كل مذهب المذهب الآخر أنه يقع في التجسيم بناءً على مقدماته النظرية، ابن تيمية يرد على المعتزلة: «فإن قال المعتزلي: إن الصفات تدل على التجسيم، لأن الصفات أعراض لا تقوم إلا بجسم، فلهذا تأولت نصوص الصفات دون الأسماء. قيل له : يلزمك ذلك في الأسماء، فإن ما به استدللت على أن من له حياة وعلم وقدرة لا يكون إلا جسمًا يستدل به خصمك على أن العليم القدير الحي لا يكون إلا جسمًا. فيقال لك : إثبات حي عليم قدير لا يخلو إما أن يستلزم التجسيم أو لا يستلزم، فإن استلزم لزمك إثبات الجسم فلا يكون لرؤيته محدودًا على التقديرين وإن لم يستلزم أمكن أن يقال: إن إثبات العلم والقدرة والإرادة لا يستلزم التجسيم فإن كان هذا لا يستلزم فهذا لا يستلزم وإن كان هذا يستلزم، فهذا يستلزم فلا فرق بينهما وإن فرق فهو تناقض جلي»[1].

القول والتسمية

هذه صيغة من صيغ المجادلات العقائدية المملة، ينقلنا ابن تيمية أيضًا إلى الأسماء التي هي أيضًا ملتبسة مع الصفات «فإن قال الجهمي[2]، والقرمطي، والفلسفي الموافق لهما: أنا أنفي الأسماء والصفات معًا، قيل

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج6،ص 48.

(2) هم أتباع جهم بن صفوان؛ أحد أبرز المتكلمين في القرن الأول الهجري، وقد تم قتله على يد القائد الأموي خالد القسري لأنه كان ينفي الصفات وينفي موضوع القدر الذي يجعل الإنسان لا حول له ولا قوة وأنه مسير حتى في قبول الخليفة.

له: لا يمكنك أن تنفي جميع الأسماء؛ إذ لا بد من إشارة القلب وتعبير اللسان عما تثبته[1]، فإن قلت: ثابت موجود محقق معلوم قديم واجب. أي شيء قلت كنت قد سميته»[2].

يقول ابن تيمية إن أي شيء تقوله فقد أعطيته تسمية، وما دمت سميت فقد وقعت في المحظور الذي تهرب منه وهو التجسيم والتجسيد. ثم ينتهي من حجاجه ليقول إن هذا هو الكفر والتعطيل الذي لا يقوم به عاقل، ويصف القرامطة والباطنية والمعطلة الدهرية والفلاسفة والجهمية كل هؤلاء بأنهم يبقون في ظلمة الجهل وظلال الكفر لا يعرفون الله ولا يذكرونه، وأنه ليس لديهم دليل على نفي أسماء الله وصفاته، وقد أعرضوا عن أسمائه وآياته وصاروا جهالًا به كافرين.

هكذ إذن نصل إلى خطاب التكفير، لأنك حين تنفي الصفات فإنك تجهل الإله، فكأنك تنفيه ولا تثبته في قلبك، وتعطله ولا تثبت وجوده، ولا تؤمن به. فأنت كما يقول ابن تيمية قد أعرضت عن أسمائه فكأنك أعرضت عن آياته وعن وجوده، فضللت وصرت كافرًا وجاهلًا. إثبات الأسماء عند ابن تيمية يترتب عليه إثبات الإيمان، فنفيها كفر. ولن تنفع من يقولون بنفي الصفات، الأدلة الأخرى التي لديهم في إثبات الله وإثبات وجوده، فابن تيمية يجد الاستقامة والهداية والسنة في القول بإثبات الصفات على ظاهرها.

أهل الصفاتية

بالمجمل يؤكد ابن تيمية أن إثبات الصفات هو مذهب أهل السنة،

---

(1) أي إنك إذا قلت بأن هناك إلهًا، فلا بد أن تكون هناك إشارة من لسانك ومن قلبك تشير بها إلى هذا الإله.

(2) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج6،ص 48.

فهم أهل الصفات (الصفاتية) «والإثبات في الجملة مذهب «الصفاتية» من الكلابية والأشعرية والكرامية وأهل الحديث وجمهور الصوفية والحنبلية وأكثر المالكية والشافعية إلا الشاذ منهم وكثير من الحنفية أو أكثرهم وهو قول السلفية»[1].

لكن في التفصيل، هناك اختلافات وتفاوتات، وكلها تعود إلى سيرة الأشعري وتكوينه المعتزلي، «فالأشعري شرب كلام الجبائي شيخ المعتزلة ونسبته في الكلام إليه متفق عليها عند أصحابه وغيرهم»[2] ماء الجبائي المعتزلي، سيبقى في الأشعري حتى كتاب الإبانة، وكتبه التي ألفها قبل هذا الكتاب ستكون مشوبة بماء الاعتزال وسيشرب منه تلامذته وأتباعه، وهذا ما سيجعلهم دومًا مشوبين بكدورات الاعتزال والتجهم، على عكس من يمثلون السلفية النقية الذين شربوا ماء السنة الصافي[3].

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج6،ص52.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص52.

(3) استخدم جماعة السلف تعبيرات قادحة في الأشعرية لينتقدوا ما أدخلوه على المذهب الخالص لأهل السنة والجماعة «فالمعتزلة في الصفات: مخانيث الجهمية. وأما الكلابية: فيثبتون الصفات في الجملة. وكذلك الأشعريون ولكنهم - كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري: الجهمية الإناث. وهم مخانيث المعتزلة. ومن الناس من يقول: المعتزلة مخانيث الفلاسفة. وقد ذكر الأشعري وغيره هذا لأن قائله لم يعلم أن جهمًا سبق هؤلاء إلى هذا الأصل أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه» ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج14، ص349.

ويوضح سلفي معاصر مدلولات هذه التعبيرات القادحة «هؤلاء لم يحدثوا شيئًا من نفي الصفات إلا بعد أن ظهر الجعد بن درهم وأظهر مقالة نفي الصفات فأخذها المعتزلة عنه. فكان قولهم في نفي الصفات يقارب قول الجهمية في ذلك، لذا أطلق عليهم في الصفات أنهم مخانيث الجهمية. والمتأمل في أصول المعتزلة يجد أنهم مجمع البدع والضلالات، فنفي الصفات أخذوه من الجهمية كما ذكر شيخ الإسلام، ونفي القدر أخذوه من القدرية، =

«فالأشعرية وافق بعضهم في الصفات الخبرية وجمهورهم وافقهم في الصفات الحديثية، وأما في الصفات القرآنية فلهم قولان: فالأشعري والباقلاني وقدماؤهم يثبتونها وبعضهم يقرّ ببعضها، وفيهم تجهم من جهة أخرى .. الباقلاني أكثر إثباتًا بعد الأشعري في «الإبانة» وبعد ابن الباقلاني ابن فورك فإنه أثبت بعض ما في القرآن. و(أما الجويني) ومن سلك طريقته: فمالوا إلى مذهب المعتزلة، فإن أبا المعالي كان كثير المطالعة لكتب أبي هاشم قليل المعرفة بالآثار فأثر فيه مجموع الأمرين. والقشيري تلميذ ابن فورك، فلهذا تغلظ مذهب الأشعري من حينئذ ووقع بينه وبين الحنبلية تنافر بعد أن كانوا متوالفين أو متسالمين»[1].

غلظة المذهب الأشعري

هكذا يفسر ابن تيمية الغلظة في مذهب الأشعري، إنها خارجية، وداخلة على المذهب من أثر الاعتزال، وتخليص مذهب أهل السنة والجماعة من غلظة الاعتزال في الصفات، ستكون مهمة ابن تيمية، وسينذر خطابه للقيام بهذه المهمة، وسيكون سلاح التكفير أحد أهم أدواته، لكنه كما سنرى تكفير للمقالات لا لأصحابها، فهو لم يكفر أحدًا من أهل الصفات تكفير تعيين، وإنما تكفير إطلاق.

هكذا يقسم ابن تيمية المذاهب، حسب موقفهم من إثبات الصفات أو نفيها، وحسب درجة الإثبات أو القبول، إن كانوا يقبلون

= والخروج على الأئمة أخذوه من الخوارج، كما أن قولهم في مرتكب الكبيرة قريب جدًا من قول الخوارج فيه، ومن هذا نجد أنهم مخانيث الجهمية والقدرية والخوارج» عبدالمجيد المشعبي، منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ص336-337.

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج6،ص52.

الصفات الحديثية أو الصفات القرآنية أو الصفات الفعلية أو الصفات الخبرية. هذا التقسيم هو الذي يحدّد خارطة المذاهب عند ابن تيمية، وقد عمل على إثبات أن الأشعري في كتابه «الإبانة» انتهى إلى إثبات الصفات مطلقًا على ظاهرها، وأن أتباعه الأشاعرة لم يثبتوا ذلك، وأنهم أثبتوا الصفات لكنهم أولوها فابتعدوا عن مذهب السلف، فمن يمثل أهل السلف والقرون الثلاثة الأولى في صدر الإسلام، عليه أن يثبت الصفات.

يستشهد ابن تيمية، لتثبيت فكرة الصفات بدون (كيف؟) بحديث لابن عباس يقول: «فقال ابن عباس لما سئل عن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت؟ وكفرك تكذيبك بها»[1] أي إنك حين تكذِّب هذا التفسير لعدم اقتناعك أو لا يستوعبه عقلك فترفضه، فكأنك قد كفرت به. من هنا فمن يكذب الآيات على ظاهرها، أو يسأل عن كيفها ثم لا يؤمن بها أو بهذا الكيف، فإنه يعرض نفسه للكفر. وقد جعل ابن تيمية القول بإثبات الصفات حدًا يمايز بين الكفر والإيمان، وبين أهل السلف وأهل الضلال، بين من يسيرون على مسيرة السنة النبوية الصحيحة ومن يخالفونها.

حرب ابن تيمية على تمثيله لمذهب الصفات الذي يمثل السنة الصحيحة، يوضحه محقق الفتوى الحموية «إن هذا الكتاب يعدّ من أقوى الردود على مذهب الأشاعرة. وهذا المذهب الذي عالجه شيخ الإسلام ورد عليه في هذه الفتوى هو نفسه موجود الآن بين أظهر المسلمين المنتشر في أرجاء العالم الإسلامي المعاصر بأصوله وقواعده»[2].

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج4،ص84.

(2) ابن تيمية، مقدمة تحقيق الفتوى الحموية الكبرى، حمد التويجري، ص 11.

هكذا حوَّل ابن تيمية الصفات إلى حدود قاطعة بين الإيمان والكفر والضلال والبدعة، بقدر إثبات أن الصفات تقترب من السنة والسلف وبقدر نفيك لها أو تأويلك لها تبتعد أو تخرج.

التأويل والتكفير

ما موضوع التأويل؟ إنها الصفات. الصفات المتعلقة بالإله، هل يجوز تأويل هذه الصفات؟ هل يقود تأويل هذه الصفات إلى الضلال؟ هل التأويل يحجب معرفة الله؟ هل يوقع تأويل هذه الصفات في الكفر بالله؟ هذه الأسئلة هي التي تشغل خطاب ابن تيمية، وقد وضع مجموعة من اللاءات تغلق باب تأويل الصفات: لا للتكييف، لا للتمثيل، لا للتعطيل، لا للتجسيد، لا للتجسيم، لا للتأويل.

لا للتكييف، بمعنى أن تثبت هذه الصفات للإله، وتفوض كيفها لله، أي تثبت هذه الصفات لله لكنك لا تعرف كيف هي؟ ولا للتمثيل بمعنى لا تقل إن هذه الصفات ثابتة لله مثل ما هي ثابتة للإنسان. ولا للتجسيد بمعنى أنك تقر هذه الصفات وتثبتها، لكنك لا تجسد الله. ولا للتعطيل بمعنى أنك لا تنفي هذه الصفات. أخيرًا لا للتأويل، وهذا هو موضوعنا هنا.

ما معنى لا للتأويل؟ بمعنى أنك لا تصرف هذه الصفات عن ظاهرها اللغوي المتعارف عليه المتبادر للذهن. فلا تقول إن الله استوى على العرش بمعنى أنه استولى على العرش، أو تمكّن منه، هذا تأويل. عليك أن تفهم الاستواء كما هو موجود في اللغة وتفهم الوجه كما هو موجود في اللغة، تأخذ هذه الأمور على ظاهرها ولا تقوم بعملية تأويلها. فاذن التأويل هنا بمعنى أنك تصرف هذه الصفات عن معناها الظاهر اللغوي وتذهب إلى معانٍ أخرى.

هذه اللاءات تضمن لك توحيدًا خالصًا محضًا صحيحًا لا شرك فيه ولا جهالة ولا شائبة. شرط التوحيد هو معرفة هذه الصفات، والإثبات هو الإيمان بهذه اللاءات كلها.

عقيدة السلف كما يقول ابن تيمية تقوم على هذه اللاءات، والتوحيد الصحيح يكمن في هذه اللاءات، تُثبّت هذه اللاءات فتثبت الصفات. من هنا فهو يعتبر أن المعتزلة وأتباع الجهم بن صفوان يقومون بتعطيل الصفات، ويترتب على ذلك نفي الإله والوقوع في الجهل به، ومن ثم الكفر.

ابن فورك والتأويل السني

هنا لا بدّ أن نستحضر كتابًا مهمًا قامت حوله جدالات كثيرة هو كتاب (ابن فورك). ابن فورك كان أشعريًا، ألف كتابًا أسماه (التأويل) أو (مشكل الحديث وبيانه) في هذا الكتاب قام بصرف الصفات عن معناها الظاهر المباشر إلى معانٍ أخرى، كان الهدف من هذه العملية التأويلية إنقاذ النصوص التي توحي بالتجسيم والتجسيد، وإنتاج توحيد سني أشعري يمكن من خلاله الرد على التيارات الفكرية الفلسفية والمعتزلية التي تتهم الأشاعرة بالتجسيد والتجسيم.

استفز[1] هذا الكتاب التيار السلفي الذي شعر أن لاءاته الأساسية

---

(1) علينا أن نتذكر أن الأعداء التقليديين لابن تيمية وتيار السلف المصنفين بأنهم خارج أهل السنة والجماعة، كانوا يحتفون بالتأويل، وهذا ما يجعل من التأويل موضوعًا مكروهًا ومستفزًا ومرفوضًا من قبل تيار السلفية. هناك كتاب (أساس التأويل) للداعي الإسماعيلي وهناك كتاب (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) للإمامي الاثني عشري الشريف الرضي، =

قد ضُربت، فالتأويل في معنى من معانيه تكييف، أي سؤال عن كيفية الصفة، ومحاولة للإجابة العقلية عنها، فكأنك تجيب على سؤال كيف هي هذه الصفات؟ كيف تثبت هذه الصفات للإله؟ كيف يتصف بها؟ وهي عملية محرمة في العقيدة السلفية وفي عقيدة ابن تيمية. ويكاد يكون مشروع ابن تيمية كله قائمًا على هذه اللاءات، وجدله ما انفك حولها.

يكرر ابن فورك عبارة في كتابه «ذِكرُ خَبر مما يقتضي التّأويل ويوهم ظاهره التّشبيه»[1]. تكرار هذه العبارة يوضح لنا الهاجس الذي يشغل ابن فورك، ويشغل الأشعرية الذين كانوا في ذلك الوقت يجادلون علماء معتزلة وفلاسفة كبار. ولا يمكن أن تجادل فلاسفة وعلماء كبارًا في ذلك العصر وبضاعتك فقط تقول هكذا ورد في النص وعلينا أن نلتزم بالنص

= وله كتب تقوم على تأويل مجازات النصوص الدينية وهي (في مجازات القرآن) و(المجازات النبوية).

(1) يمكن أن نقرأ نموذجًا من نماذج الممارسة التأولية في كتاب ابن فورك «فِي تَأْوِيل مَا رُوِيَ من النفخ، وَهُوَ مَا ذكر فِي قَوْله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُه وَنَفَخْت فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وَقَالَ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾. وَعَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة أن رَسُول الله (ص) قَالَ لَقِي آدم مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْت الَّذِي خلقك الله بِيَدِهِ وأسكنك جنته وأسجد لَك مَلَائكته وَنفخ فِيك من روحه ثمَّ فعلت مَا فعلت.

فِي الْجَواب عَن ذَلِك، اعلم أَن مَا يُوصف بِهِ الله عز ذكره من نفخ الرّوح فَالْمُرَاد بِهِ خلقه الرّوح فِيمَن يخلقه فِيهِ وأفعال الرب جلّ ذكره غير وَاقعَة على طَرِيق الْمُبَاشرَة والتولد بل أَفعاله كلهَا ابْتِدَاء اختراع من قبل أن الله عز وَجل لَا يَقْتَضِي تغير المخترع بِهِ وَلَا حُدُوث شَيْء مِنْهَا فِيه، فَأَما وَجه إِضَافَة الرّوح إِلَيْهِ وَمَعْنَاهُ وَفَائِدَته فَهُوَ تَخْصِيص تشريف لِأَن الْمَذْكُور قد يخص بِالذكر تَشْرِيفًا لَهُ وَإِن كَانَ غَيره فِي مَعْنَاهُ كَمَا قيل بَيت الله وعبد الله وناقة الله تَخْصِيصًا بِالذكر من جملَة المسميات وإبانة بِالْفَضْلِ وأمارة لَهُ يبين بهَا عَمَّا سواهُ للتنويه بِذكرِهِ وَالرَّفْع من حَاله». ابن فُورك، مشكل الحديث وبيانه، ص494.

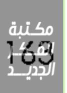
كما ورد، بل تجد نفسك مدفوعًا الى استخدام أدوات العقل في الرد عليهم.

كان (ابن فورك) قلقًا من الوقوع في التّشبيه، وهو قلق يخشاه الجميع ويفرون منه. حتى المعتزلة، وهم ينفون الصفات ويعطلونها، كانوا إنما يخشون من أن إثبات هذه الصفات يعني إثبات أن لله جسمًا. أورد ابن فورك في الكتاب 57 حديثًا، يرى أنّ ظاهرها يوهم التشبيه، فأوّلها وبيّن معناها من وجهة نظر الأشعريّة.

بالنسبة إلى ابن تيمية هذا التأويل غير مقبول، ينظر إلى هذه العملية التأويلية على أنها انحراف عن السُّنّة والسلف، فالسلف الاوّل لم يكن يثير أسئلة حول الصفات، كان يأخذها كما هي. وفي نظر ابن تيمية لا يمكن أن يكون الخلف أعلم من السلف، بل السلف أصحاب القرون الثلاثة الأولى هم الأعلم، وما داموا لم يقوموا بهذه العملية التأويلية، فلماذا نحن نقوم بها، فذلك يضرّ بمفهوم التوحيد.

أبو يعلى الحنبلي وإبطال التأويل

مقابل كتاب «التأويل» لابن فورك، جاء كتاب للرد عليه اسمه «إبطال التأويل»، مؤلفه أبو يعلى بن الفراء (458هـ-1066م) حنبلي ينتمي الى التيار السلفي، جاء قبل ابن تيمية بما يقارب القرنين، ألف هذا الكتاب في القرن الخامس بعد وفاة ابن فورك بسنوات. يفتتح أبو يعلى كتابه بالدعاء على المجسمين المشبهين «الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين المشبهين المجسمين الذين شبهوا صفات رب العالمين بالخلق أجمعين والصلاة والسلام على سيد المرسلين إمام الموحدين



الذي نزه الله عن صفات المخلوقين»[1] ثم يعرض سبب تأليف الكتاب، وهو عرض الصفات الخبرية والرد على كتاب ابن فورك في تأويلها.

«فَإِنَّنِي وَقَفْتُ عَلَى حَاجَتِكُمْ إِلَى شَرْحِ كِتَابٍ نَذْكُرُ فِيهِ مَا اشْتُهِرَ مِنَ الأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الصِّفَاتِ، وَصَحَّ سَنَدُهُ مِنْ غَيْرِ طَعْنٍ فِيهِ ما يوهم ظواهرها التشبيه، وَأَذْكُرُ الإِسْنَادَ فِي بَعْضِهَا وَأَعْتَمِدُ عَلَى الْمَتْنِ فِيمَا اشْتُهِرَ مِنْهَا طَلَبًا لِلاخْتِصَارِ، وَسَأَلْتُمْ أَنْ أَتَأَمَّلَ مُصَنَّفَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ فُورَكٍ الَّذِي سَمَّاهُ كِتَابَ تَأْوِيلِ الأَخْبَارِ جَمَعَ فِيهِ هَذِهِ الأَخْبَارَ وَتَأَوَّلَهَا، فَتَأَمَّلْنَا ذَلِكَ وَبَيَّنَّا مَا ذَهَبَ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ فِي تَأْوِيلِهِ، وَأَوْهَمَ خِلافَ الْحَقِّ فِي تَخْرِيجِهِ، وَلَوْلا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمِيثَاقِ عَلَى تَرْكِ كِتْمَانِ الْعِلْمِ، لَقَدْ كَانَ التَّشَاغُلُ بِغَيْرِ ذَلِكَ أَوْلَى»[2].

كتاب (أبو يعلى) كان من الكتب المفقودة ولم يكن معروفًا. لماذا؟ لأنه أثار خلافًا حتى داخل جماعة الحنابلة، وصارت فتنة اقتضت تدخل الخليفة القائم بأمر الله العباسي لتسكينها، وقد أخرج القائم بأمر الله عقيدة والده الخليفة القادر بالله للتذكير بها وحسم الفتنة.

كان (أبو يعلى) يورد الأحاديث الظاهرة ويأخذها كما هي، ويعتبر أنه حين يورد هذه الأحاديث كما وردت في المرويات أنه يرد على ابن فورك وتأويلاته. هذا قاده إلى أن يأتي بأحاديث كثير منها يبدو في ظاهرها التجسيم والتجسيد وكثير من هذه الأحاديث لم تكن مثبتة، يعني لم تكن محققة السند، وقف علماء العصر من الكتاب، في ذلك

(1) أبو يعلى ابن الفراء، إبطال التأويلات، ص41.

(2) المصدر نفسه، ص42.

الوقت موقفًا ملتبسًا ومستنكرًا. واعتبروه أنه بالغ كثيرًا في موضوع الظاهر والصفات، مبالغة جعلته أقرب للتجسيم والتجسيد، وقد أحرجت الحنابلة إلى درجة أن بعضهم وصف الكتاب: «لقد شان المذهب شينا قبيحًا لا يغسل إلى يوم القيامة»[1].

ما هو موقف ابن تيمية من هذا الكتاب؟ كان موقفه نقديًا، لكنه لم ينقد في منهجيته أو في فكرته الأساسية إنما انتقده في أنه اعتمد أحاديث غير موثوقة، وأحاديث موضوعة مثل رؤية ليلة المعراج عيانًا. كما انتقده في فكرة التفويض. ماذا يقصد بالتفويض هنا؟

تفويض الكيفية

ذهب (أبو يعلى) إلى أن معاني الصفات نفوضها إلى الله، الله هو الذي يعْرفها لا نحن. الله له يد، الله استوى على العرش، الله يضع رجله يوم القيامة، هذه المعاني نفوضها إلى الله. هكذا كان يقول صاحب كتاب «إبطال التأويل». ابن تيمية يقول إن المعاني معروفة، وإن القرآن والأحاديث جاءت بلغة يعرفها الناس وهي اللغة العربية، وإن السلف الصالح يعرف معنى هذه الصفات، لكننا نفوّض كيفيتها.

أهل السلف يفهمون المعنى ويفوضون الكيفية. أي إنهم يعرفون معنى الصفات (معنى اليد، معنى الوجه، استوى..) أما كيف هذه الصفة، كيف لله وجه؟ كيف استوى على العرش؟ فلا نعرف، بل نفوّضه إلى الله.

---

(1) وقد قال فيه معاصره أبو محمد رزق الله الحنبلي شيخ الحنابلة ورئيسهم في بغداد، ما لفظه: «لقد شان المذهب شينًا قبيحًا لا يغسل إلى يوم القيامة»، والعبارة عند سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) بلفظ أقبح « لقد بال أبو يعلى على الحنابلة بولة لا يغسلها ماء البحر» ، وهي عند ابن الأثير في (الكامل 104/8) أشنع لفظًا « لقد خري أبو يعلى على الحنابلة خرية لا يغسلها الماء».

يعتبر ابن تيمية أن من قاموا بعملية التأويل هم الأشاعرة وليس الأشعري، وأن عملية التأويل ستوقعهم في الإشكالات المأخوذة على المعتزلة والفلاسفة. فالمعتزلة والفلاسفة كانوا يقولون ويحتجون على «أهل التأويل»، فيرد عليهم الأشاعرة بأنكم طالما أولتم الصفات، فنحن أيضًا يحق لنا أن نؤول الجنة والنار والعذاب والحور العين. إذن هذا هو موقف ابن تيمية، يعتبر أن الذين قاموا بالتأويل كانوا يجارون الفلاسفة والمعتزلة في موقفهم من موضوع الصفات.

نختم بقراءة مقتطفات من كتاب «إبطال التأويل»: يقول أبو يعلى بإسناده عن أبي معمر الهذلي: من زعم أن الله تعالى لا يتكلم ولا يبصر ولا يسمع ولا يعجب ولا يضحك ولا يغضب، وذكر حديث الصفات فهو كافر بالله. ومن رأيتموه على بئر واقف فألقوه فيها». يعني من ينكر الصفات فهو كافر لأنه أخل بمبدأ التوحيد ويجوز قتله.

مجاز النخلة والتوحيد

في سياق المجادلات الكلامية، استخدم (أبو يعلى) مجاز النخلة للاحتجاج بفكرة أن إثبات وجود الله يتوقف على إثبات صفاته، وإلا فلا إله في قلبك، يقول «وَبِإِسْنَادِهِ قَالَ: قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: مَثَلُ الْجَهْمِيَّةِ [أتباع جهم بن أبي صفوان] مَثَلُ رَجُلٍ قِيلَ لَهُ: فِي دَارِكَ نَخْلَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: فَلَهَا خُوصٌ؟ قَالَ: لا، قِيلَ: فَلَهَا سَعَفٌ؟ قَالَ: لا، قِيلَ: فَلَهَا كَرَبٌ؟ قَالَ: لا، قِيلَ: فَلَهَا جِذْعٌ؟ قَالَ: لا، قِيلَ: فَلَهَا أَصْلٌ؟ قَالَ: لا، قِيلَ: فَلا نَخْلَةَ فِي دَارِكَ هَؤُلاءِ الْجَهْمِيَّةُ قِيلَ لَهُمْ: لَكُمْ رَبٌّ يَتَكَلَّمُ؟ قَالُوا: لا، قِيلَ: فَلَهُ يَدٌ؟ قَالُوا: لا، قِيلَ: فَلَهُ قَدَمٌ؟ قَالُوا: لا، قِيلَ: لَهُ إِصْبَعٌ؟ قَالُوا: لا، قِيلَ: فَيَرْضَى وَيَغْضَبُ؟ قَالُوا: لا، قِيلَ: فَلا رَبَّ لَكُمْ»[1].

---

(1) أبو يعلى بن الفراء، إبطال التأويلات، ص25.

إذا قلت هناك نخلة، فلا بد أن تؤمن بكل الصفات وكأن مكونات النخلة هي صفات الله أو مكونات الله صورة الله. والتوحيد يتكون في قلبك من إقرار هذه الصفات، فحين تنفيها أو تعطلها فكأنك نفيت الله فكفرت. وحين تقوم بعملية التأويل كأنك قد نفيتها أيضًا، لأنك لا تثبتها كما وردت عن الله، فكأنك تقول إن ما ورد في الأخبار من صفات ليست هي المقصودة، وإن المقصود شيء آخر، لا ما قاله النص القرآني أو الحديث النبوي. فإذا أردت أن تثبت الصفات عليك أن تثبتها كما هي من غير تأويل.

سياسة الإيمان والتكفير المعين

خطاب التكفير عند ابن تيمية يجري وفق محددات السياسة، بمعنى أن ما حددته السياسة أنه كفر فهو بالنسبة لابن تيمية كفر، وهذا ليس بمعنى الامتثال المباشر أو الخضوع إلى قرار سياسي، وليس بمعنى أنه لا يراعي الضوابط الشرعية، لكن باعتبار أن خطاب من يتحدث باسم أهل السنة والجماعة، لا يمكن أن يخرج على خطاب السياسة، لأن إحدى مقتضيات أصول الدين الأساسية عند أهل السنة والجماعة، عدم جواز الخروج على الإمام أو الخليفة حتى لو كان فاسقًا أو مغتصبًا للخلافة أو شاربًا للخمر أو ظالمًا أو مستوليًا على السلطة بالقوة. عدم الخروج عليه هنا تشمل الجانب العسكري، وكذلك تشمل المحددات الكبرى التي يرسيها خطابه، خصوصًا المحددات المتعلقة بأعداء الدولة.

ونستطيع أن نؤكد ذلك بوضوح أكثر حين نجد أن خطاب ابن تيمية يتطابق مع خطاب الغزالي في موضوع التكفير، رغم أن الغزالي كان موظفًا في بلاط السلطة وابن تيمية لم يكن. لكن الخطابين يتطابقان

في تكفير الإسماعيليين والروافض والفلاسفة وعموم الفرق الشيعية التي لا تقر بخلافة من هم خارج سلالة الإمام علي.

كفر المقالة ليس تكفيرًا لصاحبها

في مقابل تكفير هذه الفرق، يلتمس ابن تيمية مخارج شرعية لأصحاب المذاهب الأخرى وأصحاب المقالات العقائدية التي لا تتفق مع مذهبه ولا تختلف مع الخلافة[1] والخلفاء من حيث شرعيتهم. يفعل ذلك كي لا يكفرهم كأشخاص. يقول ابن تيمية إن هذه المقالات تقود إلى الكفر ومن يقول بها تؤدي به إلى الكفر، ولكن أصحاب هذه المقالات ليسوا كفارًا، فكفر المقولة لا يستلزم كفر قائلها. لماذا ليسوا كفارًا؟ لأنهم قد لا يقصدون الكفر أو لا يعرفون أن هذا يستلزم عنه كفر أو أنهم لا يستبطنون بداخلهم الكفر. وموضوع استبطان الكفر موضوع في غاية الأهمية لأنه استند إليه في تكفير الإسماعيليين والروافض والشيعة وكل من كان خارجًا على سلطة الخليفة أو الدولة.

قائمة التكفير

سنحدّد أولًا من هم الذين يدخلون في قائمة التكفير في خطاب ابن تيمية؟[2]

1. من رد شرع الله بالكتاب والسنة أو شك فيه أو أعرض عنه أو آمن ببعضه وكفر ببعض.

---

(1) الموقف من الخلافة والخلفاء وامتدادتهم أصبح جزءًا من عقيدة أهل السنة والجماعة، ويتحدد الضلال والكفر وفق هذا الموقف، يقول ابن تيمية: «ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء[الخلفاء الراشدين] فهو أضل من حمار أهله» ابن تيمية، العقيدة الواسطية، 127.

(2) انظر: عبدالمجيد المشعبي، منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ص349.

2. من لم يأتِ بالشهادتين أو جحد وجوب شيء من أركان الإسلام أو امتنع عن فعلها كبرًا أو حسدًا أو بغضًا لله ولرسوله أو بغضًا لما جاء به النبي فهو كافر بالإجماع.

3. من ترك الصلاة ولم يقدر بوجوبها ولم يجحده فهو كافر أيضًا.

4. من كان ملتزمًا بأداء أركان الإسلام إلا أنه لم يفعلها كسلًا وتهاونًا أو انشغالًا عنها بأمور أخرى، فهو إن تركها بالكلية كافر.

5. من أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

6. كل قول يفهم منه الاستخفاف أو الانتقاص أو الاستهزاء بالله وبآياته، فهو سب لله تعالى، وصاحبه كافر مرتد بالإجماع سواء كان عالمًا بأنه كفر أو لم يعلم ذلك.

7. من سب أحد الكتب المنزلة أو امتهن المصحف بأي أمر يدل على ذلك أو بأي أمر يدل على الإهانة.

8. من سب نبيًا[1] معلوم النبوة أو موصوفًا بالنبوة أو سب نوع الأنبياء أو استهزأ بهم أو عابهم أو عاداهم أو نحو ذلك.

9. الفلاسفة بمختلف أنواعهم الدهريون والطبيعيون والإلهيون[2].

---

(1) «قد ثبت أن كلّ سبٍ وشتم يبيح الدم فهو كفر، وإن لم يكن كل كفر سبًا» ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص977.

(2) لم يكتف ابن تيمية بتكفير الفلاسفة والباطنية بل واصل مهمة الغزالي في القضاء عليهم وبيان (تهافتهم) وقد خصص كتاب الرسالة الصفدية لهذه المهمة وعنونه بعنوان فرعي شارح: وهو كتاب قاعدة في تحقيق الرسالة وإبطال قول أهل الزيغ والضلالة، ومما جاء فيه: «وهؤلاء المتفلسفة جمعوا الشر كله» ص345، «حتى آل الأمر أن يقول الفلاسفة: إن الرسل لم تخبر بعلم، وإنما أخبرت بما فيه تخييل وتمثيل» ص285، «ثم من هؤلاء من سلك طريق التأويل كما فعل ذلك من فعله من القرامطة، كالنعمان قاضيهم صاحب كتاب (أساس التأويل) وكأبي يعقوب السجستاني صاحب (الأقاليد الملكوتية) وكتاب (الافتخار) =



10. القائلون بوحدة الوجود من المتصوفة كفرة؛ منهم ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني.
11. فرقة الباطنية والتي تشمل الإسماعيلية والروافض والشيعة.
12. المعتزلة (أحيانًا) والجهمية.

هذه هي قائمة التكفير عند ابن تيمية، وهي تشمل الفلاسفة والصوفية والباطنية والرافضة والجهمية، وتشمل أيضًا حالات ممكن أن تنطبق على شخص أو جماعة، وسنجد هناك اختلافات في موقف ابن تيمية الحاسم من هذه القائمة، وهي عمومًا تزيد وتنقص كما الإيمان عنده يزيد وينقص.

فمثلًا يذهب صاحب كتاب (منهج ابن تيمية في مسألة التكفير) إلى أن ابن تيمية لم يكفر المعتزلة، لأنهم يظهرون التدين بالإسلام، ولأنهم لم يكن مقصودهم معاندة الرسول (ص)[1]. في الحقيقة نصوص ابن تيمية مضطربة[2] في التكفير بشكل عام، ويمكنك أن تكفر طائفة أو جماعة وفق نصوصه، ويمكنك أن تنفي عنها التكفير استنادًا إلى نصوص أخرى من فتاويه[3]، إلا أن الغالب على نصوصه هو الميل إلى التكفير أو الإيحاء

= وأمثالهم، وألقى هؤلاء جلباب الحياء وكابروا الناس وباهتوهم»ص177.

(1) عبدالمجيد المشعبي، منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ص341.

(2) ولعل هذا الاضطراب هو ما جعل محمد عمارة، الذي قاد حملة انتهت بتكفير الكاتب (نصر حامد أبو زيد) يكتب في صحيفة الأهرام المصرية في نوفمبر/ تشرين الثاني 2009: إن إتهام شيخ الإسلام بالتكفير باطل، لقد ترك ابن تيمية تراثًا علميًا كبيرًا ومتنوعًا من بينها، ومجموع الفتاوى (37 مجلدًا) والفتاوى الكبرى (5مجلدات) وقد رد ابن تيمية من خلال هذه الفتاوى على من اتهموه زورًا وبهتانًا بأنه من التكفيريين. في قضية التكفير تصدى للمسارعة في التكفير بغير حجة ولا برهان، وأوضح شيخ الإسلام أن كفر المقولة لا يستلزم كفر قائلها.

(3) يشير ابن تيمية إلى هذا الاضطراب في موقف أئمة الفقه من أهل الأهواء: «هذه المسألة =

به، أما ما يتعلق بالشيعة فهو القطع به سوى اضطراب في موقفه من الزيديين، فعلى سبيل المثال، هناك نصوص تكفر المعتزلة، منها:

«المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضًا وقد يكفرون من خالفهم ويستحلون دماء المسلمين فيقربون من أولئك [أولئك أي الرافضة أو الخوارج الذين حكم بكفرهم]»[1].

«الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات. ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأن دار الإسلام دار حرب ودارهم هي دار الإيمان. وكذلك يقول جمهور الرافضة وجمهور المعتزلة، والجهمية، وطائفة من غلاة المنتسبة إلى أهل الحديث والفقه ومتكلميهم»[2].

وهناك نصوص تعتبر المعتزلة من أمة محمد وليسوا ممن ينطبق عليهم التكفير، وكذلك نصوص تخرج بعض الشيعة من قائمة التكفير.

«وأما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطنًا وظاهرًا فهؤلاء من أمة محمد (ص) بلا ريب . وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية . وكذلك الشيعة [يقصد الشيعة الزيديين] المفضلين لعلي ومن كان منهم يقول بالنص والعصمة مع

= متعلقة بتكفير أهل الأهواء والناس مضطربون في هذه المسألة. وقد حكي عن مالك فيها روايتان وعن الشافعي فيها قولان. وعن الإمام أحمد أيضًا فيها روايتان وكذلك أهل الكلام فذكروا للأشعري فيها قولين . وغالب مذاهب الأئمة فيها تفصيل». ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج23، ص345.

(1) المصدر نفسه، ج3، ص357.

(2) المصدر نفسه، ج19، ص74.

اعتقاده نبوة محمد (ص) باطنًا وظاهرًا وظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد (ص) بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا»[1].

الإيمان والتكفير

لكي نفهم خلفيات هذه القائمة، نحتاج أن نعود إلى مفهوم الإيمان عند ابن تيمية، والذي يتحدد في ضوئه مفهوم الكفر. مفهوم الإيمان يعود بنا إلى مفهوم مهم في علم الكلام هو مفهوم مرتكب الكبيرة. من هو مرتكب الكبيرة؟

الكبيرة هي كل ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد خاص في الآخرة، كالوعيد بالنار والغضب واللعنة وعدم دخول الجنة، أو لا يشم ريحها، أو قيل فيه من فعلها ليس منا، أو نحو ذلك. هذا هو مفهوم الكبيرة. من يرتكب الكبيرة هل يخرج من الإيمان ويدخل الكفر أم لا؟ يقول ابن تيمية لا، لا يدخل في الكفر. من الذي يقول مرتكب الكبيرة يدخل الكفر؟ هم الخوارج؛ والخوارج هم الذين جاؤوا في القرن الأول الهجري وخرجوا على الإمام علي (ع). هؤلاء كفروا مرتكب الكبيرة، واعتبروه مخلدًا في النار.

ابن تيمية لم يقل إن مرتكب الكبيرة كافرًا، لماذا لم يقل ذلك مع أن قائمة التكفير عنده واسعة جدًّا وتشمل حالات كثيرة وفرق ومقالات؟

السبب يكمن في نقطتين: الأولى، أن من يكفر مرتكب الكبيرة

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج17، ص448.

هم الخوارج، هذا يعني أنك حين تكفر مرتكب الكبيرة ستوصف بأنك الخارجي، والوصف بأنك خارجي سيعقبه تكفيرك. فابن تيمية لا يكفّر مرتكب الكبيرة لأن وضعه سيكون أقرب إلى وضع الخوارج داخل خارطة الفرق الكلامية والدينية.

الثانية، هي أن مرتكب الكبيرة قد يكون حاكمًا من حكام المسلمين، فالقول بأنه كافر، سيقود إلى تكفير بعض حكام المسلمين، وبهذا سيصطدم بالسياسة، وسيصطدم بالإجماع الذي كوّنه علماء وفقهاء أهل السنة والجماعة، وفيه يحذرون حذرًا كبيرًا من تكفير الخلفاء أو الحكام. تكفير مرتكب الذنوب الكبيرة سيجعلك خارجًا على الحكام، وابن تيمية لا يأخذ بتكفير مرتكب الكبيرة لكي لا يكون خارجيًّا سياسيًا، أي خارج على ولي الأمر، وهذا أحد مقتضيات أصول الدين عند المعتزلة، يجوز الخروج على الحاكم.

يذهب ابن تيمية إلى أن الإيمان لا تضر معه معصية كبيرة أو صغيرة. يبقى الإيمان موجود وتبقى أنت مسلمًا. حتى البدعة لا تضر مع الإيمان و «الإيمان» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه. و «الكفر» اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصي كما لا يكون مؤمنًا إذا كان معه أصل الكفر وبعض فروع الإيمان»[1] يفترض أن هذه القاعدة تحصن قائمة التكفير وتقلصها، لكننا على خلاف ذلك نجد قائمة التكفير طويلة عند ابن تيمية.

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج15، ص283.

يفرق ابن تيمية بين مقالة التكفير وبين الشخص صاحب المقالة. بمعنى أنه قد تكون مقالتك (قولك أو مذهبك أو عقيدتك التي تعتقدها) تقود إلى الكفر أو تنتج كفرًا، كما هو مثلًا مذهب المعتزلة حين يعطلّون الصفات أو الأشاعرة حين يأولون الصفات. هو يقول إن هذا كفر بالنسبة إليه. لكن هل المعتقدون بهذه الفكرة كفار؟ يقول ابن تيمية لا، لأنهم لم يقصدوا الكفر أو لا يعلمون أنه يقتضي الكفر «وحقيقة الأمر في ذلك: أن القول قد يكون كفرًا فيطلق القول بتكفير صاحبه ويقال من قال كذا فهو كافر لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها»[1] وفي هذه النقطة أيضًا يبدو ابن تيمية وكأنه قد ضيق نطاق التكفير وأعطانا تحصينًا من أن نطلق التكفير على أصحاب مقالات هي أساسًا كفر بالنسبة إليه.

أعيد بلورة سؤالي من جديد، لماذا مرتكب الكبيرة ليس بكافر؟ ولماذا معتقد مقالة الكفر ليس بكافر؟ ولماذا من يبتدع بدعة ليس بكافر؟ أنا أعزو السبب إلى المسألة السياسية. وكيف يكون خطاب التكفير عند ابن تيمية سياسيًا وهو لم يكن متوافقًا مع السياسيين ولم يكن موظفًا في بلاط السلطة السياسية، كما أنه لم يسعَ لكسب السياسيين من أجل منافع مادية أو مصالح؟

في ذلك الوقت كان التيار الأشعري هو الغالب عقائديًا، والذي تم تبنيه من قبل السلطة منذ السلاجقة، هو التيار الذي يمثل السنة. فإذا طبق ابن تيمية معايير أن هذه المقالات تقود إلى الكفر، سيصطدم

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج23، ص345.

بفرق السنة الكثيرة، أو بالأشاعرة، لأن هناك مقالات لديهم وتأويلات تقود إلى الكفر بحسب عقيدته. وهو لا يريد أن يفتح مجال التكفير داخل الإطار السني لأن ذلك سيوقعه في مشكلة مع هؤلاء الذين ترى السلطة أنهم ليسوا كفارًا، بل تراهم يمثلون الإسلام وعلماء الإسلام.

لهذا جاء ابن تيمية بفكرة أن المذهب أو الفكرة حين تكون تقود إلى الكفر أو يستلزم عليها كفرًا، فإنك لا تكفر أصحابها، لأنهم قد لا يقصدون الكفر، وإنما المقالة تقود إلى ذلك وهم لا يقصدونه، إنه تفريق يخفف من إطلاق التكفير، لكنه لا يمنعه، خصوصًا وأن ابن تيمية يضع حجة إبلاغ الحجة والبيان محددًا لعدم إطلاق التكفير، لكن حين تبلغ الحجة وتوضحها، تكون قد رفعت الغطاء عن عفريت التكفير.

هذا الاحتراز يعتبر احترازًا رائعًا ويحصن الفضاء الإسلامي العام من خطاب التكفير، ويضيق خطاب التكفير، لكن الحقيقة أن ابن تيمية، قد وسع خطاب التكفير لأسباب سياسية، هو فقط حصّن خطاب التكفير ليحمي نفسه من التصادم مع السلطة السياسية، ولكي لا يفتح على نفسه نار جهنم، خصوصًا أنه قد فتح على نفسه هذه النار حين اختلف معهم في موضوع تأويل الصفات، واختلف معهم في تحديد ما هو المذهب الذي يمثل مذهب السلفية. لكن هذه خلافات ممكن أن تُستوعب، أما أن تصل إلى اعتبار من لا يمثلون المذهب الأشعري الحقيقي كفارًا، فذلك يصطدم بالسلطة السياسية مباشرة، لذلك هو كان محترزًا تمامًا.

الكفر المطلق والكفر المشخص

هناك مفهوم آخر مهم في خطاب ابن تيمية؛ الكفر المطلق والكفر



المعين، هو مفهوم رائع ويضع ضوابط للتكفير لكي لا ينفلت، لكن ابن تيمية يستخدمه استخدامًا سياسيًّا، أيضًا لكي لا يصطدم مع الجماعات التي هي تحت مظلة السلطة أو تحت مظلة أهل السنة والجماعة، وإن كان هو يراها لا تمثل السنة الحقيقة أو لا تمثل أهل السلف الحقيقيين.

«التكفير المطلق: هو الحكم بالكفر على القول أو الفعل، أو الاعتقاد الذي ينافي أصل الإسلام ويناقضه، وعلى فاعليها على سبيل الإطلاق، بدون تحديد أحد بعينه. أما التكفير المعين: فهو الحكم على المعين بالكفر، لإتيانه بأمر يناقض الإسلام بعد استيفاء شروط التكفير فيه، وانتفاء موانعه»[1].

الكفر المطلق لدى ابن تيمية هو الكفر بالمعنى العام؛ يتعلق بالناحية النظرية، بالأفكار والمعتقدات والأقوال والمقالات. في مقابله هناك الكفر المعين؛ يعني أن أعيّن أن هذا الشخص كافر، أو أن هذه الطائفة كافرة، أو أن هذا المذهب كافر. في الكفر المطلق، ابن تيمية متوسع كثيرًا والقائمة التي لديه تكاد تشمل الجميع، ولكن في الكفر المعين، هو يضيقها ويتحكم فيها وفق ما تسمح به محددات السياسة.

من هو الكافر الذي عيَّنه خطاب ابن تيمية؟ هذا هو السؤال الأدق، من هي الفرق والجماعات التي عين ابن تيمية كفرها؟ هي الجماعات التي كانت مختلفة سياسيًا مع السلطة؛ جماعات الإسماعيلية أو الباطنية أو الروافض أو الشيعة أو المعتزلة أو الجهمية أو هم أصحاب وحدة الوجود، أمثال ابن عربي وابن سبعين، الذين لا يشكلون تيارًا عامًّا ترعاه السلطة إلى حد حين تُعين تكفيرهم أو تقول إنهم كفار تقع في

---

(1) عبدالمجيد المشعبي، منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ص193.

مواجهة مع السلطة. هؤلاء كلهم أدخلهم في دائرة الكفر المعين وأخرج الجماعات الأخرى لكي لا يصطدم مع السلطة.

وهذا يوضح لنا كيف أن خطاب التكفير هو خطاب سياسي، وكيف أن خطاب ابن تيمية في التكفير هو امتداد لخطاب الأشاعرة وخطاب الغزالي نفسه، فيما يتعلق بالشق السياسي، لأنه كفر (في الكفر المعين) من كفرهم الغزالي في ذلك الوقت ومن كفرتهم الأشاعرة، وهم الخارجون على نسق السلطة السياسية، سواء نسقها في التدين أو نسقها في السياسة.

كفر الباطن

نأتي الآن إلى معيار آخر، يجعل ابن تيمية ضابطًا للتكفير المعين، هو ضابط الظاهر والباطن. ضابط تكفير الفرق لديه هو ارتباط الظاهر بالباطن، أي من يكون باطن مذهبه هو الكفر ومعاندة الرسول (ص) حكم عليه بالكفر. كيف يعلم ذلك؟ يقول بمعرفة مقصود مذهبهم، وهذا يتبين من خلال أقوالهم وسبب نشوء فرقتهم. هذا هو المعنى الخطير: الدخول في النية والبحث عنها. من تكون نيته معارضة السلطة سيتم وصفه بأنه ضد الإسلام وضد سلطة الإسلام وضد خلافة الإسلام، وأنه نشأ نشأة مضادة للإسلام.

وهنا يمكن أن نطرح بعض النماذج. هو ابن تيمية[1]: يقول إن الجهمية

---

(1) «أصل مقالة التعطيل للصفات إنم أخذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين. قال: فإنه أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان...» ابن تيمية، الرسالة الحموية، ص232.



كفار لأنهم يقومون بتعطيل شرعة الله، وهذا التعطيل ظهر على يد الجعد بن درهم، الذي كان في حران (أرض الصابئة) وهو أخذها عن أبان بن سمعان عن تاروت ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي، وأخذها عن الجعد الجهم بن صفوان، وهو الذي تولى نشرها ونسبت إليه، ثم تسربت بعض عقائدهم إلى المعتزلة ومنها القول بخلق القرآن الذي تبنت الدولة الأموية في عهد المأمون والمعتصم والواثق اعتقاده.

الجهمية كفار، لأن باطنهم وأصل نشأتهم أخذوها عن الكفار، من أرض الصابئة، من عند أبان بن سمعان. هنا ضابط الكفر يتحدد بالبحث عن باطن خارج الإسلام، وهذا سيفتح باب جهنم على هؤلاء المعارضين أصحاب الأفكار الأخرى المخالفة للسلطة.

أما ما يتعلق بباطن الباطنية، فيقول وضعت البذرة الأولى للباطنية في زمن عثمان بن عفان على يد عبد الله بن سبأ اليهودي[1] الذي دخل بين أبناء الأمة الاسلامية لتفتيت وحدتها. فإذن الباطنية كلهم يرجعون إلى عبدالله بن سبأ، إلى شيء خارجي، وهو يقول إننا حين بحثنا عن سبب نشوء هذه الفرقة اكتشفنا أن باطنهم هو الكفر وعداوة الإسلام. والموقف نفسه من باطن القدرية «وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم (السلف): مجوس هذه الأمة»[2]. إنا بطون محكوم عليها بالكفر.

التكفير على النيات

وقس على ذلك، بالنسبة إليه، الإمامية ينطبق عليهم هذا الباطن

---

(1) «السبئية نسبة إلى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة» ابن تيمية، فتاوى ابن تيمية، ج17، ص488. وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ج1، ص24.

(2) ابن تيمية، العقيدة الواسطية، 123.

الخارجي نفسه، فهو يقول إنهم في تكوينهم وفي باطنهم يرجعون إلى ما هو خارج الإسلام. وكذلك المتصوفة، في باطنهم وفي مقالاتهم في وحدة الوجود يرجعون إلى مصدر خارجي، وبالتالي هم أيضًا كفرة.

إذن تطبيق معيار البحث عن باطن الفرق ومعرفة سبب نشوء فرقهم، هو معيار يجعل خطاب الكفر خطابًا سياسيًا، يجعلك تدخل في نيات المذاهب المختلفة مع أهل السنة والجماعة، والمعارضة للسلطة والخلفاء، وتبحث عن أصول هذه المذاهب، وتصمهم بالكفر لمجرد أنك ترجع تكوينهم إلى مصدر خارج الإسلام، أو تصم نياتهم أنها نيات تريد الكيد بالإسلام، وهذا بمثابة فتح النار على جميع من يقفون ضد سلطة الخلافة وما تمثلها سواء كانوا من الشيعة أو من غير الشيعة، كلهم وصفوا بهذا الوصف، وسنجد ابن تيمية يقول إن هؤلاء يفرحون لانتصارات الصليبيين، ولانتصارات التتار فهم أعداء للسلطة الإسلامية، لذلك يجوز قتلهم ويجوز سبيهم والتنكيل بهم وقتل أطفالهم، وهذا ما سنجده بصورة واضحة تمامًا حين نذهب إلى الفتوى التي كتبها لشرعنة قتل أهل كسروان الشيعة في لبنان.

4. التكفير المطلق والتكفير المعين

كتب ابن تيمية مطلع القرن الرابع عشر الميلادي في 1305م. فتوى تاريخية شهيرة، أعطى فيها المشروعية الدينية لتنفيذ مذبحة كسروان التي قام بها 50 ألف جندي من المماليك[1] وتعرف الحادثة باسم (فتوح كسروان) وهي تسمية مشتقة من تهنئة (الفتح) التي وردت في نص الفتوى، وصارت (كسروان) أو ناحية منها تسمى فتوح كسروان، بعد هذه المذبحة وهذه الفتوى.

«حتى إذا كانت سنة 704 أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان، يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم، ثم أرسل إليهم الإمام ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق، فأفتى العلماء

---

(1) يروي المقريزي الحادثة على هذا النحو «وفي [2محرم 705هـ/ 24يوليو/تموز1305م]: سار الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام من دمشق في عساكرها لقتال أهل جبال كسروان، ونادى بالمدينة من تأخر من الأجناد والرجالة شنق. فاجتمع له نحو الخمسين ألف راجل، وزحف بهم لمهاجمة أهل تلك الجبال، ونازلهم وخرب ضياعهم وقطع كرومهم، ومزقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يومًا، قتل فيها الملك الأوحد شادي ابن الملك الزاهر داود وأربعة من الجند، وملك الجبل عنوة، ووضع فيهم السيف وأسر ستمائة رجل، وغنمت العساكر منهم مالًا عظيمًا، وعاد إلى دمشق في رابع عشر صفر» المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص340.

حينئذ بنهب ديارهم بسبب استمرارهم على العصيان وإبائهم الدخول في الطاعة، وفي الدر المنظوم أن أقوش فتح كسروان من جهتها الشمالية ولذلك دعيت فتوحًا»[1].

أشارت كثير من المصادر التاريخية لهذه الواقعة، وأغلب المصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ لبنان يأتي على ذكرها، إنها الشيء المادي الذي بقي من هذا الحدث ويكشف الطبيعة السياسية والدينية والتاريخية والعقائدية للحدث.

بطن فرق الشيعة

نذكر بالنقطة الرئيسية التي على أساسها استند ابن تيمية إلى إباحة دماء وأعراض أهل كسروان. قلنا إن ابن تيمية في موضوع تكفير الفرق يضع معيارًا، وهو أن يكون ظاهر الفرقة وباطنها يدلان على الإسلام. فإذا كان في الباطن ما يدل على مخالفة الإسلام فإن هذه الفرقة كافرة. والباطن يعرف من خلال فحص طبيعة المعتقدات والمنشأ، وبعدها يستطيع أن يحكم على هذه الفرقة إذا كانت كافرة أم لا. لقد حكم على فرق الشيعة بأنهم كفار بناءً على ما في باطن هذه الفرق الشيعية بمختلف أنواعها، فماذا في باطن الفرق الشيعية؟ بحسب ابن تيمية في بطنهم التالي:

في بطنهم الرفض، والرفض هو كما يُعرفه في حديثه، يقول «قيل للإمام أحمد بن حنبل من الرافضي؟ قال الذي يسب أبا بكر وعمر». ماذا أيضًا في بطن الشيعة؟

---

(1) خطط الشام، محمد كُرْد عَلي، ج2، ص139.

الجهل والبعد عن العقل والعلم حتى صاروا معبرًا لأفكار الزندقة والكفر، بل معبرًا لدخول الكفار أنفسهم لمدائن الإسلام، يقول: «وَمِنْ وَصَايَاهُمْ فِي «النَّامُوسِ الْأَكْبَرِ وَالْبَلَاغِ الْأَعْظَمِ» أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ «بَابِ التَّشَيُّعِ» وَذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ الشِّيعَةَ مِنْ أَجْهَلِ الطَّوَائِفِ وَأَضْعَفِهَا عَقْلًا وَعِلْمًا وَأَبْعَدِهَا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَلِهَذَا دَخَلَتَ الزَّنَادِقَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ بَابِ الْمُتَشَيِّعَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا كَمَا دَخَلَ الْكُفَّارُ الْمُحَارِبُونَ مَدَائِنَ الْإِسْلَامِ بَغْدَادَ بِمُعَاوَنَةِ الشِّيعَةِ كَمَا جَرَى لَهُمْ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْكُفَّارِ بِبَغْدَادَ وَحَلَبَ وَغَيْرِهِمَا؛ بَلْ كَمَا جَرَى بِتَغَيُّرِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ فَهُمْ يُظْهِرُونَ التَّشَيُّعَ لِمَنْ يَدْعُونَهُ وَإِذَا اسْتَجَابَ لَهُمْ نَقَلُوهُ إلَى الرَّفْضِ وَالْقَدْحِ فِي الصَّحَابَةِ»[1].

ماذا في بطن الشيعة؟

الخيانة والحقد من انتصارات المسلمين على الصليبيين والتتار، والفرح والأعياد المجيدة بانتصارات الصليبيين على المسلمين، يقول: «من المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم (أي من جهة الفرق الشيعية) وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ فَتْحُ الْمُسْلِمِينَ لِلسَّوَاحِلِ وَانْقِهَارُ النَّصَارَى؛ بَلْ وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُمْ انْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّتَارِ، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى، النصارى على ثغور المسلمين فإن ثغور المسلمين ما زالت في أيدي المسلمين حتى جزيرة قبرص»[2].

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج35، ص136.

(2) المصدر نفسه، ج35، ص150-151.

ماذا في بطن الشيعة أيضًا؟

مؤازرة التتار في دخول بغداد وقتل الخليفة العباسي، والمشاركة في الحكم معهم، يقول: «ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن منجم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو «النصير الطوسي» كان وزيرًا لهم بالألموت وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء»[1].

ويستعيد ابن تيمية، خطاب الغزالي (فضائح الباطنية) ليضع كل ألقاب الفرق في بطن واحد، وهو التكفير والاتهامات السياسية «ولهم «ألقاب» معروفة عند المسلمين تارة يسمون «الملاحدة» وتارة يسمون «القرامطة» وتارة يسمون «الباطنية» وتارة يسمون «الإسماعيلية» وتارة يسمون «النصيرية» وتارة يسمون «الخرمية» وتارة يسمون «المحمرة» وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم»[2].

هكذا يقدمهم ابن تيمية، هم المسؤولون عن الهزائم[3] التي حدثت للمدن الشامية على الساحل، وهم أيضًا سبب سقوط بغداد في يد التتار، والخلاصة «ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض»[4].

---

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج35، ص150-151.

(2) المصدر نفسه، ج35، ص150-151.

(3) يحكي المستشرق الفرنسي لاووست على لسان ابن تيمية «كانت الأقليات [الروافض والنصارى] تمثل خطرًا حقيقيًا على الإسلام، إذ كان موقفهم منه دائمًا معاديًا. وكان تعاطفهم الأكبر يتزايد نحو أعداء أهل السنة، وكان لكل هزيمة يمنى بها المسلمون وقع الفرح الظاهر عند أهل الكتاب» هنري لاووست، نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع، ص181.

(4) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج35، ص152.

يتأسس على ما فيه هذا الباطن ليس الكفر فقط، بل الكفر والارتداد، فهو مرتدون، والمرتد بحسب فتاوى ابن تيمية وعلماء المسلمين لا يجوز للحاكم أن يفتديه أو أن يعفو عنه، إنما يجب عليه الاقتصاص منه، أن يقتله ويقتل نساءه ويقتل أبناءه ويجرده من كل شيء، وهذا ما طبقه ابن تيمية على شيعة كسروان في فتواه.

ماذا تقول فتوى ابن تيمية؟

الفتوى هي رسالة أرسلها ابن تيمية، إلى السلطان الملك الناصر، يذكر فيها ما أنعم الله على السلطان وعلى أهل الإسلام بسبب ما أطلق عليه (فتوح جبل كسروان) لذلك يمكن أن نطلق على هذه الفتوى «فتوى فتوح جبل كسروان» ماذا يقول فيها؟

في هذه الفتوى يعطي ابن تيمية الشرعية الكاملة لكل ما قام به الملك، الناصر بن قلاوون، وهو ملك المماليك يقول فيها: «وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق أفضل الأولين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين»[1] إنه يعتبر الملك الذي قام بهذه المذبحة (الفتح) مجددًا من المجددين الذين يأتون على رأس كل 100عام. هناك حديث يقول إنه على رأس كل 100عام يأتي مجدد للدين، فتجديد الدين حسب ابن تيمية جاء على يد هذا الملك الناصر، وتجديد الدين تم من خلال فتوحات كسروان، أي من خلال هذه المذبحة التي قام بها للقضاء على الشيعة المعارضين له الموجودين في هذه الجبال.

ويواصل خلع التقديس على السلطان «وذلك أن السلطان أتم الله

---

(1) لقراءة نص الفتوى كاملة، انظر: ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج28، ص220-225.

نعمته حصل للأمة بمنٍّ ولايته، وحسن نيته، وصحة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همته وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين، من جهاد أعداء الله المارقين من الدين».

ابن تيمية يصل لحظة مذبحة كسروان بلحظة قضاء الخلفاء الراشدين على أهل الردة، فيعطي لهذا الفعل مشروعيته المقدسة الكبرى التي تصله بالسلف الصالح وبالقرون الذهبية الثلاثة، وباللحظة التي كان يحقق فيها الإسلام فتوحاته في الأرض. كما يؤكد أن العمل الذي قام به الخليفة هو بمثابة فتح وجهاد ضد صنفين من أعداء الله، الصنف الأول هم «أهل الفجور والطغيان، وذوو الغيّ والعدوان، الخارجون عن شرائع الإيمان، طلبًا للعلو في الإحن والفساد، وتركًا لسبيل الهدى والرشاد، وهؤلاء هم التتار ونحوهم من كل خارج عن شرائع الإسلام، وإن تمسك بالشهادتين أو ببعض سياسة الأنام».

يشير بـ «وإن تمسك بالشهادتين أو ببعض سياسة الأنام» إلى حرب الملك الناصر مع التتار، وقعت هذه الحرب في (699هـ/1299م) ثم (704هـ/1304م). وهي ليست حربًا مع الكفار لأن التتار كانوا قد أسلموا[1]. والجيش الذي جاء إلى الحرب كان معه لجنة بها علماء وفقهاء

(1) في قراءة حسن المالكي لفتوى ابن تيمية لفتوى (فتوح كسروان) متابعة دقيقة لبنائها الشرعي والتاريخي والسياسي، وهي تؤكد بشكل لا جدال فيه فرضية هذه الدراسة التي تعتبر التكفير موضوعًا سياسيًّا «ومن العجيب وربما من عقوبة الله أن ابن تيمية حوكم على عقيدته في العام نفسه، والأفرم ومن معه من القواد الذين قادوا تلك الحملة الشرسة ضد من يتهمونهم أنهم كاتبوا التتار عادوا والتحقوا بالتتار وعادوا معهم ليحاصروا مدن =

وقضاة، وهؤلاء هم الذين التقى بهم ابن تيمية وتناقش معهم. هي حرب بين مسلمين إذن، كما هي الحروب التي خبرها المسلمون بين بعضهم. وإذا كان التتار هنا ما يزالون في عنفهم ودمويتهم، إلا أنهم يتحدثون باسم الإسلام كما يتحدث المماليك أيضًا باسم الإسلام ولم يكن عنفهم أقل من العنف الذي عرفته السلطات طوال التاريخ الإسلامي.

حين سئل ابن تيمية: «ما تقول الفقهاء أئمة الدين في هؤلاء التتار الذين قدموا سنة تسع وتسعين وستمائة وفعلوا ما اشتهر من قتل المسلمين وسبي بعض الذراري؟»[1].

السؤال مبني على حرج قتال المسلمين، ولو كانوا كفارًا ما استدعي هذا السؤال أصلًا. كان جواب ابن تيمية «كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، من هؤلاء القوم وغيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة»[2].

= الشام! وليس مجرد مكاتبة فقط! فالخلاف سياسي وليس مذهبيًا كما أراد ابن تيمية أن يظهره..ثم سبق أن ذكرنا أن التتار مسلمون .. ولم تكن يومئذ الدولة القطرية بهذا الثبات في الحدود والأرض.. وإنما من يقرأ تلك الفترة يجدها متموجة .. لا حدود ثابتة ولا ولاءات ثابتة.. بدليل أن قادة تلك الحملة انضموا للتتار.. ومن عجائب التوظيف المذهبي أن مدرسة ابن تيمية بقيت تثني على أهل السنة المنضمين للتتار ومنهم الأفرم قائد ابن تيمية وعيسى بن مهنا صديق ابن تيمية بينما أبقت على ذم الشيعة الذين قيل إنهم كاتبوا التتار بحجة خيانتهم! وهذا التوظيف المذهبي» انظر: حسن المالكي، فتوى ابن تيمية في شيعة لبنان وسوريا.

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج28، ص501.

(2) المصدر نفسه، ج28، ص503.

ويؤكد ابن تيمية معرفته بتركيب جيش التتار الذي أوجب قتاله «فهؤلاء القوم المسؤول عنهم عسكرهم مشتمل على قوم كفار من النصارى والمشركين وعلى قوم منتسبين إلى الإسلام - وهم جمهور العسكر - ينطقون بالشهادتين إذا طلبت منهم ويعظمون الرسول وليس فيهم من يصلي إلا قليلًا جدًا وصوم رمضان أكثر فيهم من الصلاة والمسلم عندهم أعظم من غيره»[1].

لا بد أن نذكر هنا أن التبجيل والتفخيم الذي أعطاه الغزالي للخليفة العباسي المستظهر الذي لم يبلغ سن العشرين عامًا، يتكرر هنا مع ابن تيمية، فالحاكم الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون لم يكن قد أنهى سن العشرين حين كتب له هذه الفتوى، وأسبغ عليه عبارات التبجيل واعتبره من مجددي الإسلام على رأس كل 100عام، فقد ولد في (684هـ / 1285م). الأمر الآخر أن أمه (أشلون خاتون) ابنة أمير مغولي[2] (سكناى ابن قراجين بن جيغان) وأبرز قواده أيضًا مغولي وهو (كتبغا) وقد كان نائبًا للسلطنة، أي إن هذا يؤكد أن الحرب ضد التتار كانت حربًا سياسية لا دينية، وأن تكفير ابن تيمية لجيش التتار، كان فتوى سياسية لا دينية.

الصنف الثاني الذي يبارك للخليفة الناصر انتصاره عليه ومحاربته «هم أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة، مثل هؤلاء الذين غُزوا

(1) ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ج28، ص505.

(2) «اختلف العلماء كذلك على أصول التَّتار، وهل هم جزء من العنصر المغولي (المنغولي)، أو أنهم أرومة مستقلة متميزة، وفي الواقع يرى قليل من العلماء، أنهما أرومتان مختلفتان شكلًا وهيئةً، ولكل منهما أرضه وعاداته وتقاليده، ولكن أكثر العلماء لا يشاطرونهم الرأي هذا، بل يعدونهما عرقًا واحدًا وموطنهما الأصلي واحد، والتمايز العرقي النسبي بينهما ظهر وتبلور لاحقًا، بعد أن غادروا موطنهم الأم» انظر: الموسوعة العربية.

بأمر السلطان من أهل الجبيل والجرد والكسروان» الصنف الثاني إذن هم الخارجون عن السنة، هم الذين يسكنون في الجرود وفي كسروان. ونجد أن الصنفين يقعان ضمن الأعداء السياسيين للملك المملوكي أو ضمن أعداء من يمثلون السلطة التي تمثل الخلافة العباسية، فالخلفاء المماليك أو السلطان المملوكي يستند في شرعيته إلى أنه حامي الخلافة العباسية، فالعائلة العباسية انتقلت إلى مصر وأصبح هو حاميها فهو يتحدث عبر شرعيتها. إن هؤلاء الذين هم خارج هذه الخلافة، ومفارقون لطاعتها، وضدها سياسيًا، هم من يشملهم التكفير، وهذا ما يؤكد أن التكفير موضوع سياسي.

يواصل ابن تيمية في هذه الفتوى ويقول «وذلك لأن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين، في أمر الدنيا والدين، فإن اعتقادهم أن أبا بكر وعمر وعثمان، وأهل بدر وبيعة الرضوان، وجمهور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، ومشايخ الإسلام وعبادهم، وملوك الإسلام وأجنادهم، وعوام المسلمين وأفرادهم، كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون، أكفر من اليهود والنصارى، لأنهم مرتدون عندهم، والمرتد شرّ من الكافر الأصلي».

أصبحت هذه القائمة لائحة اتهام سياسي جاهزة للاستخدام ضد الخصوم السياسيين والعقائديين، صارت هذه القائمة بمثابة تعريف لهوية الفرق الشيعية وصورة نمطية عامة تختزل تنوع الفرق الشيعية في نمط واحد.

هوية أهل كسروان

هناك جدل وخلاف كبير وقع بين المؤرخين حول هوية أهل كسروان.

هناك من يقول إن أهل كسروان كانوا مسيحيين، وهناك من يقول كانوا دروزًا، لكن الحقيقة أن هذه الفتوى حسمت هذا الموضوع، لأن كل ما أتى في هذه الفتوى ينطبق على الشيعة الاثني عشرية بحسب تعريف ابن تيمية. وسنجد أن هناك قائمة توضح أن المقصود هم الشيعة الاثنا عشرية في هذه الفتوى، فمثلًا هو يشير إلى بعض الأمور العبادية والفقهية والاعتقادية التي تخالف مذهب أهل السنة[1]: المسح على الخفين، زواج المتعة ، تحريم الفقع، ما ينسب إليهم من سب الصحابة، انتظارهم ظهور المهدي[2].

تشير هذه القائمة إلى اعتقادات الشيعة، ولا يشارك الشيعة فيها أحد. وهذا ما ذهب اليه المؤرخ كمال الصليبي وكذلك المؤرخ سعدون حمادة[3].

يشير ابن تيمية إلى الشيعة بقوله: «وهذا المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم مثل بني العود» (بني العود) معروفون أنهم من علماء الشيعة الاثني عشرية، ووردت ترجمة لهم في موسوعة الحر العاملي (أمل الآمل).

---

(1) انظر: سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ص39.

(2) «وفي انتظار هذا (المهدي) بلغ الحال بالروافض أن يتبعوا مشايخ بغاة وجهلة (متوالين) يشبههم ابن تيمية برجال جائعين يرفضون طعام المدينة، من أجل طعام الجنة، ويكتفون بأكل العشب الجاف» هنري لاووست، نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع، ص412.

(3) «إن بواعث هذه الحملة وأهدافها ونتائجها وما رافقها وأعقابها، تؤكد أن أهل الجرد والكسروانيين كانوا من الشيعة الإمامية الاثني عشرية، دون غيرها من فرق الشيعة الأخرى أو على الأقل كان أتباع هذا المذهب، هم المستهدفون الوحيدون من هذه الحرب دون غيرهم» سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، ص34.

يرفض ابن تيمية التأويل، لكنه يقبل به حين يجد به مخرجًا سياسيًا، ففي هذه الفتوى يقول: «كان هؤلاء أحق بأخذ أموالهم، وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل أنه لا يقتل مدبرهم، ولا يجهز على جريحهم، ولا يغنم لهم مال، ولا يسبى لهم ذريّة لأن مثل أولئك ليس لهم تأويل سائغ، ومثل أولئك إنما يكون خارجًا عن طاعة الإمام، وهؤلاء خرجوا عن شريعة الله وسنته، وهم شر من التتار من وجوه متعددة»

يقارن ابن تيمية بين حرب الإمام علي مع أهل الجمل وحرب المماليك مع الشيعة في كسروان، فيقول إن أهل الجمل كان لهم تأويل سائغ وخروجهم كان على الإمام فقط وليس على الشريعة، ولهذا اكتفى الإمام علي بحربهم دون سلبهم أو قتل مدبرهم، أو الإجهاز على جريحهم، أو غنم مالهم، أو سبي ذريّتهم. أما أهل كسروان فليس لهم تأويل سائغ، وهم خرجوا عن طاعة الشريعة وهم أكفر من اليهود وشرّ من التتار، لذلك يجوز قتلهم وسلبهم وقتل مدبرهم والإجهاز على جريحهم وغنم مالهم وسبي ذريتهم.

قتل النفوس وقلع الشجر

يواصل ابن تيمية شرعنة قتلهم وقطع شجرهم وتخريب عمارهم قائلًا: «وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر وتخريب العامر عند الحاجة إليه، فليس ذلك بأولى من قتل النفوس. وما أمكن غير ذلك، فإن القوم لم يحصر كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار، وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم لأن التركمان إنما قصدهم الري،

وقد صار لهم مرعى، وسائر الفلاحين لا يتركون عمارة أرضهم ويجيئون إليه».

تواصل الفتوى الإمعان في التوحش والقتل، أحضرت المماليك التركمان ليحلوا بدل سكان الجبل، وابن تيمية يعطي تشريع جواز قطع هذه الأشجار لكي لا يختبئوا وراءها، ولكي تنكشف المنطقة كلها، ويأمن السكان الجدد الذين سيحلون محلهم، كل هذا التكفير وهذا القتل برسم الفتوى السياسية. إلى أن يقول: «فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان. فإنه بهذا قد انكسر ابن أهل البدع والنفاق في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق ما يرفع الله به درجات السلطان ويعز به أهل الايمان» يعني أنه بانكسار أهل كسروان ينكسر أهل البدع، أي الشيعة الموجودون في الشام ومصر والحجاز واليمن، وفي العراق. هنا نجد الوجه السياسي للتكفير. ذلك أن الشيعة هم الذين كانوا ضد المماليك أو ضد السلطة التي تمثل مذهب السنة والجماعة، ومن ثم يجوز قتلهم لأنهم لا يؤمنون بهذه المرجعية. وهذا ما يؤكد أن التكفير موضوع سياسي يتحدد بموقفك من السلطان أو الخليفة. فمن لا يكون تحت شرعيته يتسلط عليه سيف التكفير ومن ثم سيف القتل والتوحش.

يمكننا أن نعتبر فتوى ابن تيمية فصلًا ملحقًا بكتاب (فضائح الباطنية) للغزالي، فهو يستعمل تسميات الغزالي وتوصيفاته نفسها، ويتطابق مع موقفه الشرعي والسياسي وعرضه لعقائد الإسماعيليين وكل ما هو مكون في الصورة الذهنية عن هؤلاء. كما يتطابق ابن تيمية مع الغزالي في اعتبار هؤلاء الخصوم السياسيين مرتدين ويجوز قتلهم ويجوز تخريب مزارعهم وسبي نسائهم وقتل أطفالهم.

وكأن ابن تيمية يقول إنني أضيف هذا الفصل إلى ما كتبه الغزالي قبل 217 عامًا، لتصبح لدينا مدونة فقهية تكفيرية متوحشة ضد الشيعة بكل أصنافهم وعقائدهم من غير أي تمييز. الحكم بالارتداد في النهاية يشمل الشيعة كلهم باختلاف عقائدهم وتمايز أفكارهم. المحصلة السياسية تحكم بالمجمل وتشمل الكل. فجميع هذه المذاهب مهما تمايزت تتفق على أنه لا مشروعية للخلفاء الذين ليسوا من أهل البيت العلوي. جميع هؤلاء ينطبق عليهم فتوى ابن تيمية «ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض» هذه القاعدة تشمل جميع مذاهب الشيعة، ومن ثم تحكم عليهم بحكم واحد: مرتدون واجب قتلهم.

قائمة المصادر والمراجع

1. إبراهيم (فؤاد).ـ الفقيه والدولة الفكر السياسي الشيعي ـ ط2.- بيروت: دار المرتضى، 2012.
2. ابن أبي جمهور (محمد بن علي).- النور المنجي من الظلام، تحقيق رضا يحيى بور فارمد .- ط1. - بيروت: جمعية ابن أبي جمهور، 1434هـ/2013م.
3. ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي).- الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمر .- ط1. - بيروت: دار الكتاب العربي، 1417هـ/1997م.
4. الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل).

- مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، تحقيق نواف الجراح .- ط1. - بيروت: دار صادر، 1427هـ/2006م.
- الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق صالح بن مقبل بن عبد الله العصيمي، مخطوطة رسالة دكتوراه.

5. أركون (محمد).

- من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي؛ نقلـه إلى العربيّة هاشم صالح.- ط1. - بيروت: دار الساقي، 1991.
- الفكر الاسلامي نقد واجتهاد؛ نقلـه إلى العربيّة هاشم صالح.- ط6. - بيروت: دار الساقي، 2012.

- نحو نقد العقل الإسلامي؛ نقلــه إلى العربيّة هاشم صالح .- ط1. - بيروت: دار الطليعة، 2009.

6. الأمين (حسن).- صلاح الدّين الأيّوبي بين العبّاسيّين والفاطميّين والصليبيّين .- ط2. - بيروت: دار الجديد، 1420هـ/2000م .
7. أُونثاغا (عمر علي -دي-). - قلاع العقل دراسات إسماعيلية وإسلاميّة تكريمًا لفرهاد دفتري .- ط1. - بيروت: دار الساقي، 1435هـ/2014م .
8. البنعلي (تركي بن مبارك).

- الأقوال المهدية إلى العمليات الاستشهادية.- ط2. -منبر التوحيد والجهاد، 1433 هـ/2012م.
- السلسبيل في قلة سالكي السبيل - منبر التوحيد والجهاد، 1433هـ/2012م.
- مختصر المقال في مشروعية توفير الشعر للرجال.- منبر التوحيد والجهاد، 1433هـ/2012م.
- تصنيف التنصيف (رسالة مختصرة في بيان سنية تقصير الثياب إلى نصف الساق).- منبر التوحيد والجهاد .- ط؟، سنة الطبع ؟.
- الحلية في إعفاء اللحية.- ط2.- منبر التوحيد والجهاد، سنة الطبع؟.
- شرح شروط وموانع التكفير.- ط1.- الغرباء للإعلام، 1435هـ/2014م.

9. بركات (أكرم) .- التكفير ضوابط الإسلام وتطبيقات المُسلمين.- ط1.- بيروت: دار الأمير، 1435هـ/2014م .
10. بولطيف (خضر محمد).- فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي .- ط1. - فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2009م.

11. تسيهر(إغنتس غولد) . - دراسات محمديَّة .- ط2. - لندن: مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشراق، 1430هـ/2009م

12. ابن تومرت (أبو عبدالله محمد بن نيطاوس).- أعز ما يطلب، تحقيق عمار طالبي، .-ط1.- الجزائر: وزارة الثقافة، 2007م.

13. ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم).

- العقيدة الواسطيّة .- ط1. - السعودية: الدّرر السّنيّة، 1433هـ/2012م.
- الّرسالة الصّفديّة .- ط1. - بيروت: دار الكتب العلمية، 1420هـ/2000م.
- اقتضاء الصّراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم- ط1. - بيروت: دار الكتب العلمية، 1420هـ/1999م.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية؛ ط1.- بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ/2000م.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول؛ دراسة وتحقيق محمد بن عبد الله ابن عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري.- ط1.- الدمام: رمادي للنشر، 1417هـ/1997م.
- الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق حمد عبدالمحسن التويجري.- ط1.- الرياض: دار الصميعي، 1425هـ/2004م.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.- ط؟.- الرياض: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/1995م.

14. الخشن (حسين أحمد). - العقل التكفيري قراءة في المنهج الإقصائي.- ط1. - بيروت: مجمع الإمامين الحسنين(ع)، 1435هـ/2013م.

15. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي).ـ مقدمة ابن خلدون ـ ط1.ـ بيروت: دار الكتب العلمية، 2009م.



16. دفتري (فرهاد). - الإسماعيليّون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلاميّة.- ط1. – بيروت: دار الساقي، 1428هـ/2008م .

17. الذهبي (شمس الدين الذهبي)ـ تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام، تحقيق مصطفى عبد القادر عطاـ ط1ـ بيروت: دار الكتب العلمية، 2006م.

18. زيدان (يوسف). - اللاهوت العربي وأُصُول العُنف الدِّيني.- ط2. – القاهرة: دار الشروق، 2010.

19. سبحاني (جعفر) .- بحوث في الملل والنّحل دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية.- ط1. – طهران: مؤسسة الإمام الصادق، 1416هــق.

20. الطحاوي (أبو جعفر) .- العقيدة الطحاوية، شرح وتعليق محمد ناصر الدين الألباني .- ط1ـ الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1422هـ/2001م .

21. آل عبداللطيف (عبدالعزيز بن محمد).-الاعتقاد القادري دراسة وتعليق.-مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابه (جامعة أم القرى)، العدد39، 1427هـ/2006م.

22. ابن عبدالملك (أبو عبدالله محمد بن محمد)ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباسـ ط1ـ بيروت: دار الثقافة، 1973م.

23. العقاد (محمود عباس)- فاطمة الزهراء والفاطميون.- ط1ـ القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013م.

24. (الغزالي) أبو حامد.

- الاقتصاد في الاعتقاد، تقديم علي بوملحم.- ط1. – بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1413هـ/1993م.

- فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي.- ط1.- الكويت: مؤسسة دار الكتب الثقافية، 1964م.

25. ابن فورك (محمد بن الحسن أبو بكر). - مشكل الحديث وبيانه.- ط2. - بيروت: عالم الكتب، 1985م.
26. القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن).-الرّسالة القشيّرية، وضع حواشيه خليل المنصور.– بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/2001م.
27. ابن قيم الجوزية (أبو عبدالله بن أبي بكر بن أيوب) - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية؛ إشراف بكر بن عبدالله أبو زيد. – ط 1. – مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1428هـ/2007م.
28. ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر).- البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركي.- ط1. – القاهرة: دار عالم الكتب، 1423هـ/2003م.
29. كليم (فيرينا). - مذكرات رسالة العالم ورجل الدّولة والشاعر المؤيّد في الدّين الشيرازي.- ط1. – بيروت: دار الساقي، 1425هـ/2005م .
30. لاووست (هنري). - نظريات شيخ الإسلام ابن تيميّة في السياسة والاجتماع.- ط1. – القاهرة: دار الأنصار، 1396هـ/1976م.
31. المشبعي (عبدالمجيد بن سالم).ـ منهج ابن تيمية في مسألة التكفير.- ط1. – الرياض: مكتبة أضواء السلف، 1418هـ/1997م.
32. المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر).

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق خليل عمران المنصور.- ط1. - بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ/1998م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا.- ط1. – بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م.

33. ميثا (فاروق). - الغزالي والإسماعيليّون العقل والسلطة في إسلام العصر الوسيط.- ط1. - بيروت: دار الساقي، 1436هـ/2015م .

34. أبو النصر (محمد عبدالعظيم) .- السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري.- ط1. - القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2003م.

35. النجار (عبدالمجيد).-المهدي بن تومرت.ـ ط1.ـ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/ 1983م.

36. نظام الملك (أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي).- سير الملوك أو سياست نامه، ترجمة يوسف بكار.- ط3. - عمّان: وزارة الثقافة، 2012م.

فهرس الموضوعات

أ

آداب الاستبداد: 37
الآداب السلطانية: 35، 36، 37
آدم (عليه السلام): 78، 79، 162
آريوس (كاهن اسكندري): 151
آسيا: 135
آل سلجوق: 38
آل النبي (ص): 57، 136
الأباضيون: 19
أبان بن سمعان: 178
إبراهيم بن سيار بن هانىء البصري = النظّام المعتزلي
إبليس: 78، 79
الأتراك: 28، 59
ابن الأثير الجزري: 24، 107، 111، 125
الإجماع: 90، 91، 92
الأحساء: 52
إحسان عباس: 124، 125
أحمد (حفيد هولاكو): 139
أحمد بن إبراهيم النيسابوري: 84
أحمد بن حنبل: 132، 140، 141، 142، 146، 149، 181،
أحمد بن عبد الحليم = ابن تيمية
أحمد بن المبارك اللمطي السجلماسي (أبو العباس): 114
أحمد بن المقتدي بأمر الله (أبو العباس) = المستظهر بالله العباسي
الإخشيديون: 97
الأرثوذكسية السنية: 46، 61، 62، 75، 86، 92، 93
أرثوذكسية السنة السلجوقية: 23 - 31
أردوغان (رئيس الوزراء التركي): 56
أرسطو: 123، 124
أرض الصابئة: 178
الأزارقة (من الخوارج): 122، 123
ابن الأزرق: 35
اسبانيا: 123، 124
أبو إسحاق الأسفراييني: 113
إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين: 125
الأسفراييني(أبو إسحاق): 113، 114
إسماعيل بن جعفر الصادق (ع): 50، 58
الإسماعيلية: 15، 28، 43، 46، 51، 52، 169، 177
الإسماعيليون: 29، 42، 52، 55، 70، 168، 191، 192
الإسماعيليون النزاريون: 52، 53
الأشاعرة: 140، 141، 142 163-
الأشعري (أبو الحسن): 39، 40، 43، 47، 108، 140 - 163
الأشعرية (نسبة لأبي الحسن الأشعري): 26،

40، 44، 122، 130، 140 - 163
أشلون خاتون (أم محمد بن قلاوون): 188، 189
أصفهان: 41، 52
الأصل (عند ابن تومرت): 117، 118
أصول الفقه: 61
الأصوليون: 91، 92
الاعتقاد القادري = السنة القادرية (نسبة للقادر بالله العباسي)
الأغالبة: 97، 98
أفامية (منطقة): 27
افريقيا: 135
الأفضل بن بدر الدين الجمالي: 58
أفلاطون: 123، 124
أقوش الأفرم: 179، 180
ألب أرسلان السلجوقي: 39، 87، 88
ألموت (قلعة): 52، 53، 54
الإلهيات (عند الباطنية): 54
الإلوهية (عند الأرثوذوكسية السنية): 61، 62
إمام الحرمين الجويني: 41، 42 إمام مكة والمدينة = الجويني
الإمام المعصوم: 54
الإمامة (عند البالطنية): 54
الإمامة (عند ابن تومرت): 117، 118
الإمامية: 19، 20، 122، 123، 179
الأمانتي (أبو المعالي) = أبو المعالي الأمانتي
الأمراء المرابطون: 75
الأمويون: 30، 97، 98
الإنجيل: 151، 152
الأندلس: 105، 107، 109، 123، 124
الأندلسيون: 97
الأنصار: 30، 184
أنو شروان بن خالد الكاشاني: 38
أنطاكيا: 56، 59
أهل بدر: 188
أهل البغي: 77، 78
أهل بيت النبي (ص): 61، 62
أهل بيعة الرضوان: 188
أهل الجرد: 188
أهل الجبيل: 188
أهل الجمل: 190
أهل الحديث: 45، 122
أهل الحنبلية: 131، 132
أهل سلمية: 107
أهل السنة: 15، 19، 20، 43
أهل السنة في البحرين: 14
أهل السنة والجماعة: موجود في معظم صفحات الكتابأهل الصفات (الصفاتية): 156، 157
أهل كسروان الشيعة: 179، 188، 189، 190
أهل مراكش: 125، 126
أهل النهروان: 85، 86
أيبك (عز الدين): 136
الإيجي (عضد الدين): 113، 114
إيران: 54، 56
إيطاليا: 37
الإيمان النيقاوي (نسبة لمجمع نيقيا المسيحي): 151، 152
الأئمة الاثنا عشر66، 67
الأئمة المسلمون: 9
أئمة الأشعرية: 107، 108
أئمة الحديث: 108
الأيوبيون: 28، 47، 134

ب

باب القسطنطينية: 42
البابكية (من الباطنية): 51
بابويه (حسكا) = حسكا بابويه
بابويه (أبو طالب) = أبو طالب بابويه
الباجي (أبو الوليد): 113، 114
الباطنية: 27، 28، 47 – 92، 96، 101، 110، 156، 169، 177
الباطنيون: 111، 112
الباقلاني (أبو بكر): 43، 112، 113، 158
البحرين: 13، 14، 15، 52
بخارجر (أبو المعالي) = أبو المعالي بخارجر
البخاري (صاحب الصحيح): 124
بدر: 188
بدر الدين الجمالي: 58،
البدعة: 62
البراءة (عند تركي البنعلي): 17، 18، 19
البرابرة: 22، 23
البراهمة: 88، 89
البرقعية (من الرافضة): 52
بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان: 138، 139
برلين: 61
البصرة: 41، 52، 91
بغداد: 23، 24، 27، 30، 41، 45، 51، 53، 54، 55، 56، 57، 87، 88، 105، 106، 133، 182
أبو بكر الباقلاني: 43
أبو بكر البغدادي: 30
أبو بكر الصديق 30، 64 - 69، 121،،160، 181، 187، 188،
أبو بكر ابن العربي: 62
أبو بكر بن فورك: 113، 114
أبو بكر ناجي: 19، 20
بلاد السوس: 122، 123
بلاد الشام = الشام
بلخ: 40، 41
بلغاريا: 22، 23
البلوغ (من صفات الخليفة): 96، 97
بهاء الدين قراقوش: 189
البويهيون: 27، 57
بيت المقدس: 28، 56، 58، 59، 93، 94
بيروت: 10
البيضاوي (أبو يعلى): 24
البيضاوي (الإمام): 113، 114
بيعة الرضوان: 188

ت

تابعو التابعين: 142
التابعون: 108، 142
تاج الحضرتين = نظام الملك الطوسي
تاج الدين السبكي: 146، 147
تاروت (ابن أخت لبيد بن الأعصم): 178
تاشفين بن علي (أمير المرابطين): 111، 112
التأنيس (عند الباطنية): 54
التأويل: 72، 152، 153 - 164
التبديع: 60، 61، 69
التبري: 61، 62
التتار: 134، 140، 182، 185، 186
التجسيم: 153، 154
التخطئة: 61 - 65
التدليس (عند الباطنية): 54



أبو تراب الدوريستي: 46
التركمان: 191
تركي البنعلي: 13 - 20
التسبيحات (عند ابن تومرت): 117، 118
التشبيه: 162
التشكيك (عند الباطنية): 54
تزفيتان توتوروف (كاتب بلغاري): 22، 23
التصوف: 61
التضليل: 61 – 67، 69
التعليق (عند الباطنية): 54
التعليمية (من الباطنية): 52
التفتازاني (السعد): 113، 114
التفرس (عند الباطنية): 54
تقي الدين المقريزي: 115، 116
التقية: 83 - 85
التكاليف الشرعية (عند الباطنية): 54
التكذيب: 72
التكفير: 13، 17، 23 – 31، 63 – 92، 152 - 163
التكفير السلجوقي: 33 - 86
التكفيريون،: 17--20
التكليف (من صفات الخليفة): 96، 97
التلمساني: 169
التنزيهات (عند ابن تومرت): 117، 118
التنسي (أبو زكريا يحيى): 120، 121
التنوخية: 179، 180
التواتر (عند ابن تومرت): 117، 118
توبة الباطني: 81، 82
التوحش: موجود في معظم صفحات الكتاب
التوحيد (عند ابن تومرت): 117، 118
التوحيد التومري: 126
تودوروف (تزفيتيان، كاتب بلغاري): 22
توران شاه (الملك المعظم): 135
التوراة: 151، 152
توماس هوبز: 37
ابن تومرت (محمد): 9، 31، 102 - 128
التيار الجهادي في البحرين: 13، 14
ابن تيمية (أحمد بن عبد، الحليم)9، 10، 17، 18، 23، 24، 31، 126، 127 - 192

ث

ثقافة التوحش: 33، 34، 105، 106

ج

الجابري (محمد عابد): 31
الجاحظ: 35
جامعة أم القرى: 24
جامعة الإمام محمد بن سعود: 142، 143
جامعة السوربون: 61
جامعة الملك سعود: 21، 22
جان جاك روسو: 37
جبال كسروان: 10، 23
جبال لبنان: 141
الجبّائي (شيخ المعتزلة): 156، 157، 158
جبل لبنان: 141
جرجان: 52
جريدة الوطن: 17
جريدة اليوم السعودية: 21
الجريمة: 9
جزيرة قبرص: 182
الجعد بن درهم: 156، 158، 178 155،
جعفر السبحاني: 122

جعفر الصادق (ع): 50، 51
الجمالي (بدر الدين) = بدر الدين الجمالي
الجمالي (عائلة): 58
جمعية الأصالة البحرينية: 17
الجنابية (من الباطنية): 52
أبو جمهور: 41، 42، 44 4
جنكيزخان: 139
الجنة: 71، 72، 73، 74
الجهاد (عند ابن تومرت): 117، 118
الجهل (عند ابن تومرت): 117، 118
جهم بن صفوان (مؤسس الجهمية): 145، 155، 161، 165، 166، 178،
الجهمية: 29، 109، 154، 155، 156، 167، 169، 177، 178
جورج طرابيشي: 26
الجويني (إمام الحرمين): 41، 113، 146
الجيش البحريني: 16

ح

الحاحي (أبو عثمان سعيد بن عبد المنعم): 120، 121
أبو حامد العربي الفاسي: 114، 115
أبو حامد الغزالي = الغزالي
أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي المراكشي: 112، 113
الحجاز: 191
ابن الحداد: 35
الحر العاملي: 190، 191
الحراك البحريني: 15
حرّان: 178
الحروب الصليبية: 27، 56، 134
الحرية (من صفات الخليفة): 96، 97
ابن حزم الظاهري: 91، 92
حسان بن مفرج: 27
حسكا بابويه: 46
أبو الحسن الأشعري = الأشعري (أبو الحسن)
حسن الأمين: 27، 53، 54
حسن الصباح: 53، 54
الحسن بن علي بن إسحاق (أبو علي) = نظام الملك الطوسي
حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري = حسن الصباح
أبو الحسن القابسي: 113، 114
حسن المالكي: 186
أبو الحسن اليوسي: 114، 115
الحشاشون (من الباطنية): 52
الحشر: 71 – 75، 89، 90
أبو حفص المصري: 14
الحكومة البحرينية: 13
حلب: 51
حماد بن زيد: 167
حماه: 142، 143، 153
حمد بن عبد المحسن التويجري: 142،، 143،159
حمد بن عيسى: 14
الحملة الصليبية: 93، 94
الحملة الصليبية الخامسة على مصر: 135
حمود بن محمد بن ملكشاه: 105، 106
الحنابلة: 45، 163، 164
الحنبلية (نسبة لأحمد بن حنبل): 24، 130، 131، 132
الحنفية (نسبة لأبي حنيفة النعمان): 23

أبو حنيفة النعمان: 78، 79
حواء: 78، 79
الحوثيون: 17
الحور العين: 74، 75، 76
حيدر الزيارتي المكي: 46

خ

خالد بن إبراهيم الدبيان: 111، 112
خالد القسري: 154، 155
خراسان: 43
الخراط (أبو عبد الله محمد بن يوسف):
120، 121 1
خرافة بستان جنة سري: 52
خرافة الحشيش: 52
الخرافة السوداء: 52
خرافة قفزة الموت: 52
الخرمدينية: 43، 51
الخرّمية: 48، 53، 184، 185
الخصوص (عند ابن تومرت): 117، 118
الخلافة الإسلامية: 9، 23 الخلافة الراشدة:
132، 133
الخلافة العباسية: 27، 38، 45، 55، 58، 101،
110، 111، 133
ابن خلدون: 105، 106، 107، 108، 109،
110، 119
الخلع (عند الباطنية): 54
الخلفية (من الباطنية): 52
الخليفة (عند الأورثوذوكسية السنية): 62
خليفة السلطان = نظام الملك الطوسي
خليل بن نجم الدين أيوب: 136
ابن خمير السبتي (أبو الحسن علي): 113،
114
الخواجة الكبير = نظام الملك الطوسي
الخوارج: 67، 85، 109، 122، 158، 170

د

داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام):
13، 14، 15، 21، 22
داعي الدعاة الإسماعيلي الفاطمي: 82، 83
الداعية (عند الإسماعيلية): 70، 71
الدرعية: 132، 133
الدروز: 15
الدعاة الإسماعيليون: 41، 42
الدعوة الهادية (شعار الفاطميين): 52، 53
الدمام: 10
دمشق: 23، 133، 139، 141، 180
الدهرية: 88، 89
الدوريستي (أبو تراب) = أبو تراب
الدوريستي
الدولة الإخشيدية: 135
الدولة الإسلامية في العراق والشام = داعش
الدولة الأموية: 133
الدولة الأيوبية: 25، 45، 105، 106، 133،
134، 135
دولة البويهيين: 27
الدولة البويهية = دولة البويهيين
الدولة الزنكية (نسبة لنور الدين زنكي): 25،
45، 105، 106، 133، 134
الدولة السعودية الأولى: 132، 133
الدولة السلجوقية: 25، 39، 40، 45 – 49، 87،
132، 133
الدولة الصفوية: 95، 96

الدولة العباسية: 132
الدولة العثمانية: 95، 133، 134
الدولة الفاطمية: 58، 135
دولة المرابطين: 75، 112، 113، 114
الدولة المرابطية = دولة المرابطين
دولة المماليك: 132، 134، 135
الدولة الموحدية: 105 - 126
الديلم (قبائل): 56
الدين (عند الأرثوذكسية السنية): 61، 62

ذ

الذهبي (شمس الدين): 109، 110

ر

الرازي (فخر الدين): 113، 114، 142، 145، 146
الرافضة: موجود في معظم صفحات الكتاب
رافضة البحرين: 15
الراوندية (من الباطنية): 52
الربط (عند الباطنية): 54
الربيع العربي: 16
رجل الدولة: 23 – 31، 139
رجل الملة: 23 – 31، 138
رزق الله الحنبلي (أبو محمد): 164
رسول الله (ص): 21، 23، 26، 29، 44، 47، 58، 65، 67، 71، 73، 74، 75، 76، 85، 87 – 97، 108، 116 – 119، 121، 141، 143، 144، 162، 163، 170، 171، 177
ابن رشد: 86، 122 124- 8
رضا برنجكار: 41
رضا يحيى فارمد: 41 - 43
رضوان السيد: 26
الرضي (الشريف): 97
الرملة: 27
الرملي (محمد بن أحمد بن سهل): 27
الروافض = الرافضة
روسو (جان جاك): 37
الروم: 27
الري: 46، 52، 187

ز

زنكي (نور الدين): 25، 45، 46
الزنكيون: 28، 47، 134
زين الدين عدنان (الشريف): 180
الزيدية: 19، 20، 170
الزيود: 19
الزيديون: 170

س

السبئية (نسبة لعبد الله بن سبأ اليهودي): 178
سبزوار: 51
سبط ابن الجوزي: 163، 164
ابن سبعين: 127، 169، 176
السبعية (من الباطنية): 51
السبكي (تاج الدين): 146، 147
سجن ابن قلاوون: 132
السعد التفتازاني: 113، 114
سعدون حمادة: 188، 189، 190
سعيد بن عبد المنعم الحاحي (أبو عثمان): 120، 121
السعيدية (من الباطنية): 52

أبو سفيان الأزدي: 14
سكناي بن قراجين بن جيغان: 188
السكوني (أبو عبد الله محمد بن خليل): 120، 121
السلاجقة: 24-33، 36 – 85، 93، 98، 99، 105، 110، 134، 175
السلالجي (أبو عمرو): 112، 113
السلالة السلجوقية: 105، 106
السلخ (عند الباطنية): 54
السلطة البحرينية: 13
السلطة السلجوقية: 9، 35، 63، 64
السلفيون المعاصرون: 144
السلفية في البحرين: 13
أبو سلمة (الصحابي): 162
سلمية: 107
سلوترداك (فيلسوف): 20، 21
السنة الأشعرية: 92، 93
السنة السلجوقية: 70، 104، 105، 106
السنة القادرية (نسبة للقادر بالله العباسي): 24، 25، 32، 69، 113، 114، 115
السنة النبوية: 75،
سهل شقحب: 139
سوريا: 13، 133، 137، 138
السوس (بلاد): 122
سيد الوزراء = نظام الملك الطوسي
سيف الدين قطز: 137
ابن سينا: 31، 127

ش

شادي ابن الملك الزاهر داود (الملك الأوحد): 180
الشافعي: 91
الشافعية (نسبة للشافعي): 24، 44
الشام: 25، 52، 56، 105، 133، 137، 191
شجرة الدر: 135، 136
شرق آسيا: 134
الشريعة (عند ابن تومرت): 117، 118
الشريف الرضي: 97
شقحب (منطقة): 139 - 141
الشك (عند ابن تومرت): 117، 118
شيخ الإسلام = الجويني
الشيعة: 15، 16، 29، 46 – 53، 62، 65، 168، 169، 177، 181، 182، 183، 184، 185، 191، 192
الشيعة الاثنا عشرية: 19، 140، 141، 189، 190
الشيعة الإسماعيلية: 43
شيعة البحرين: 15
الشيعة الفاطميون: 70
شيعة كسروان: 182، 183، 184
شيوخ المغاربة: 24

ص

الصابئة: 31، 178
الصالحية (في مصر): 135
الصباح (حسن) = حسن الصباح
الصحابة: 64، 73، 74، 108، 142
صحيفة الأهرام المصرية: 170
صحيفة مرآة البحرين: 13
الصدر الأجل = نظام الملك الطوسي
صدر الإسلام = نظام الملك الطوسي
الصديق بشير نصر: 44

الصراط المستقيم (عند الأرثوذكسية السنية): 62، 63
الصفات (صفات الله تعالى): 144، 145 - 163
الصفات الإلهية = الصفات
الصفات الخبرية (عند ابن تيمية): 145، 146، 153
الصفات الفعلية (عند ابن تيمية): 145، 146، 153
الصفاتية (أهل الصفات): 156
الصفويون: 30
الصلاة (عند ابن تومرت): 117، 118
صلاح الدين الأيوبي: 25، 45، 52، 52، 115، 135، 136
الصليبيون: 27، 28، 52، 55، 59، 134، 140، 141، 182،
الصوفية: 169

ض

الضلال: 61، 62

ط

الطاعة (من صفات الخليفة): 98،
أبو طالب بابويه: 46 طبرستان: 51
الطرطوشي: 35
طغرل بك السلجوقي: 27، 38
ابن طفيل (أبو بكر): 123
ابن الطقطقي: 35
طليطلة: 123
طوائف المبطلين (عند ابن تومرت): 117، 118
طوس: 56
الطوسي (نظام الملك) = نظام الملك الطوسي
الطوسي (نصير الدين): 182

ظ

الظن (عند ابن تومرت): 117، 118

ع

عارف تامر: 55
ابن عاشر (عبد الواحد): 114
العالم الإسلامي: 9
العالم المسيحي: 121 - 123
عائلة الجمالي: 58، 59
بنو العباس = العباسيون
ابن عباس (عبد الله): 159
العباس بن عبد المطلب: 95
عباس محمود العقاد: 97
العباسيون: 27، 30، 54، 58، 60، 62، 95، 97، 111، 137
عبد الله بن سبأ اليهودي: 178
عبد الجليل القزويني الرازي: 45
عبد الخالق أحمدون: 114، 115
عبد الرحمن بدوي: 50، 96، 97
عبد العزيز عبد اللطيف: 24
عبد المجيد الشرفي: 26
عبد المجيد المشعبي: 167، 168، 170، 176
ابن عبد الملك المراكشي: 124، 125
عبد المؤمن بن علي الموحدي: 115، 116، 117، 125، 126
عبد النور بيدار (الفيلسوف): 9، 10، 23

عبد الواحد بن عاشر: 114، 115
عبدة الأوثان: 88، 89
عثمان بن عفان: 178، 188
العثمانيون: 30
العراق: 13، 14، 27، 43، 105، 106، 191
العرب: 59، 133، 134
العرب المسلمون: 151، 152
العرب المسيحيون: 151، 152
العرب اليهود: 151، 152
ابن العربي (أبو بكر): 62، 113، 169، 176
العربي الفاسي (أبو حامد): 114
العرش: 110، 111
عز الدين أيبك: 136
عز الدين العلام: 35
العصمة: 54
عصمة الإمام: 70، 71
عضد الدين الإيجي: 112، 113
العقاد (عباس محمود): 97
العقد الاجتماعي (عند جان جاك روسو): 37
العقل (من صفات الخليفة): 96العقل
الأرثوذوكسي: 108
العقل الكلي (عند الإسماعيليين): 55،
العقيدة (عند ابن تومرت): 117، 118
العقيدة الأرثوذكسية: 108
العقيدة الأشعرية: 105، 106، 144 - 163
عقيدة التوحيد = العقيدة المرشدة (عند ابن تومرت)
العقيدة المرشدة (عند ابن تومرت): 113 – 116، 120
العقيدة الواسطية: 132
العلاف (أبو هذيل): 91
علامات المهدي (عند ابن تومرت): 117، 118
العلم (عند ابن تومرت): 117، 118
العلم (من صفات الخليفة): 99، 100
علم الأصول: 91
علم الكلام: 61، 153
علماء الأشعرية: 143، 144
العلماء البغداديون: 45
علماء العراق: 106
العلويون: 57، 58، 95، 141
علي بن إسماعيل الأشعري البصري البغدادي (أبو الحسن) = الأشعري (أبو الحسن)
علي بن خمير السبتي (أبو الحسن): 113، 114
علي بن أبي طالب (ع): 29، 58، 63، 85، 86، 95، 173، 190
علي العالم: 46
علي بن يوسف بن تاشفين: 75
أبو عمر البغدادي: 14
عمر بن الخطاب: 64 – 69، 121، 181، 188
أبو عمران موسى الفاسي: 112، 113
أبو عمرو السلالجي: 112، 113
العموم (عند ابن تومرت): 117، 118
العهد الفاطمي: 25
بنو العود: 190
ابن عياد: 124، 125
عياض (القاضي): 113، 114
أبو عيسى السلمي (محمد البنعلي): 14
عيسى بن مهنا: 186
عين جالوت: 137

غ

غازان (السلطان): 140

الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد): 9، 18، 21، 28، 30، 31 – 107، 113، 114، 119، 146، 182، 190، 191، 192
غزنين: 51
غلام اليوسفي: 39، 45
غولد تسيهر (المستشرق): 44، 47
غياث دولة السلطان = نظام الملك الطوسي

ف

ابن الفارض: 168، 169
فاروق ميثا: 67
فاس: 125، 126
فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص): 58، 61، 62، 95
الفاطميون: -18 30، 50 - 63، 70، 94، 97، 101، 112، 119
فتوح كسروان: 180
الفتوى الحموية الكبرى (لابن تيمية): 142، 143، 153
ابن الفراء (أبو يعلى الحنبلي): 161 - 167
الفخر الرازي = الرازي (فخر الدين)
الفرع (عند ابن تومرت): 117، 118
الفرنجة: 55، 107
فرهاد دفتري: 52
الفساد: 9
الفقه: 61
فقهاء الشيعة: 46
الفقهاء المالكيون: 109، 110
فكرة الدولة والمواطنة: 14
الفلاسفة: 90، 127، 156، 169
فلسطين: 134، 135، 136، 140
الفلسفة: 61
الفلسفة الأفلاطونية: 70
فنقلات التكفير: 62، 63، 64، 65، 66، 67، 71
فؤاد الخوري: 18، 19
ابن فورك (أبو بكر): 113، 158، 161 - 164
الفيء: 79، 80
فيرينا كليم: 69

ق

القابسي (أبو الحسن): 113
القادر بالله العباسي: 24، 69، 97
القاضي عياض: 113
القاضي النعمان: 78، 79
القاعدة (تنظيم أصولي): 19
القاهرة: 55، 56، 58
القائم بأمر الله العباسي: 38، 53، 164
قبرص (جزيرة): 182
القدرية: 19، 47، 158
القدس = بيت المقدس
القديح (منطقة): 11
القذافي (معمر): 115، 116
القرآن الكريم: 72، 75، 76، 88، 118، 119
قراقوش (بهاء الدين): 180
القرامطة: 51، 156، 168، 169
القرشية (من صفات الخليفة): 96، 97
القرمطية: 51
بنو قريش: 30، 96، 136
القسطنطينية: 42
قسورة البحريني: 15
القشيري: 132، 148، 149
قصر الخلافة (في بغداد): 27

القصيدة النونية (لابن القيم الجوزية): 31
قطز (سيف الدين): 137
قلعة أفامية: 27
قلعة ألموت: 53، 54
قم: 51
قوام الدين = نظام الملك الطوسي
القيامة: 71، 72، 73، 74، 75
القيامة (عند الباطنية): 54، 55
ابن القيم الجوزية: 30، 31

ك

كاشان: 51
الكبيرة (ارتكاب الكبيرة): 170 - 174
كتبغا (قائد مغولي): 188
الكرّامية: 148، 149، 157، 171
كربوقا بن عبد الله الجلالي (قوام الدين أبو سعيد): 59
كسروان (منطقة في لبنان): 11، 23، 141، 179، 180
الكعبة: 90
الكفاية (من صفات الخليفة): 98، 99
الكفر: 62
كُفر الباطن: 177
الكفر المشخص: 175
الكفر المطلق (عند ابن تيمية): 175، 176، 177
الكفر المعين (عند ابن تيمية): 176، 177
ابن كلاب: 150151
الكلابية (أتباع ابن كلاب): 150، 157، 171
الكلبي (أبو الحجاج يوسف بن موسى): 112، 113
كمال الصليبي: 190
الكندري (أبو نصر منصور بن محمد): 146، 147، 148
الكندري السلجوقي: 45
الكوفة: 52

ل

اللاهوت العربي: 153
لاووست (مستشرق فرنسي): 184، 185
لبنان: 23، 134، 141، 179،
لبيد بن الأعصم: 178
لخضر بو لطيف: 122
لندن: 60
ليبيا: 115

م

ما وراء النهر: 51
مارك الطليطلي: 123
المازري التونسي: 112، 113
مالك بن أنس: 111، 112
مالك بن وهيب (الوزير): 112
المالكية (نسبة لمالك بن أنس): 24
المأمون العباسي: 62، 134، 175
الماوردي: 24، 25، 37
المباركية (من الباطنية): 52 52
المبيضة (من الباطنية): 52
المتصوفة: 71
المتوكل على الله العباسي: 135
المجرم: 9
المجسمة: 116، 117، 118، 119
مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة: 24

مجمع نيقيا الأول: 151، 152
المجوس: 31، 88، 118، 119
محمد بن إبراهيم التلمساني: 120، 121
محمد أبو النصر: 38، 39، 40، 45، 49
محمد بن أحمد بن سهل الرملي: 27
محمد أركون: 26، 27، 28، 29، 61، 108، 110
محمد بن إسماعيل الأموي (أبو عبد الله ابن النقاش): 120، 121
محمد البنعلي (ضابط في وزارة الداخلية البحرينية): 14
محمد بن تومرت = ابن تومرت
محمد الحاج سالم: 10، 23،
محمد بن الحسن بن فورك (أبو بكر) = ابن فورك (أبو بكر)
محمد بن خليل السكوني (أبو عبد الله): 120، 121
محمد بن سعود آل سعود (الملك): 131، 132 محمد عابد الجابري: 30
محمد بن عبد الله (ص) = رسول الله (ص)
محمد بن عبد الوهاب (مؤسس الوهابية): 19، 132
محمد عبده (الشيخ): 26
محمد عمارة: 170
محمد بن قلاوون (الملك الناصر): 23، 132، 139، 140، 184 - 188
محمد بن كرام السجستاني (مؤسس الكرامية): 147، 148
محمد كرد علي: 180
محمد بن محمد الغزالي (أبو حامد) = الغزالي
محمد بن يحيى الطرابلسي (أبو عبد الله): 120
محمد بن يوسف الخراط (أبو عبد الله): 120
محمد بن يوسف السنوسي (أبو عبد الله): 13، 14، 129
ابن محرز الوهراني: 117
المحمّرة (من الباطنية): 52، 184، 185
محنة خلق القرآن: 61
المد الإسماعيلي: 40
المدارس الإسماعيلية: 9
مدارس صلاح الدين الأيوبي: 25
المدارس النظامية (نسبة لنظام الملك الطوسي): 25، 40، 41،، 42، 47، 87، 104 - 106
المدارس النورية (نسبة لنور الدين زنكي): 25
المدرسة النظامية (في بغداد): 40، 41
المدرسة النظامية (في نيسابور): 56
المدرسة النورية (نسبة لنور الدين زنكي): 45
مديرية الإرشاد في وزارة الدفاع البحريني: 14
مدينة الإمام: 19
المدينة الدينية: 19
مدينة السلام = بغداد
المدينة المنورة: 40
مذبحة كسروان: 180، 185
المذهب الأشعري: 42
المذهب الحنفي: 41
المذهب الشافعي: 42
المذهب المالكي: 111
مرآة البحرين (صحيفة): 13
المرابطون: 75، 110 - 122
مراكش: 112، 113، 124
المراكشي: 111، 112
المرتدون: 77، 78

المرجئة: 19
مرو: 40
مريم بنت عمران: 151، 152
المزدكية: 46
المسترشد العباسي: 112، 113
المستظهر بالله العباسي: 30، 52، 53، 54، 55، 56،،57، 58، 59، 63، 70، -93، 98، 101، 187
المستظهرية (نسبة للمستظهر بالله العباسي): 50 – 53، 63، 93 - 97
المستنصر الفاطمي: 58
مسجد الإمام علي بن أبي طالب (في القديح): 11
مسجد العنود (في الدمام): 11
المسيح (عليه السلام): 150، 151
المسيحية: 52، 59، 152
المسيحيون: 123، 152، 153
المشبّهة 89، 90
المشركون: 118، 119
مشهد (في إيران): 56
مصر: 25، 51، 53، 105، 115، 132 – 136، 191
المصمودة (قبيلة): 110، 111
المعاد (عند الباطنية): 54
أبو المعالي الأمانتي: 46
أبو المعالي بخارجر: 46
المعتزلة: 19، 24، 25، 29، 54، 61، 90، 91، 92، 109، 122، 145، 149، 150، 154، 155، 156، 157، 160، 169، 170، 173، 174، 177
المعتصم بالله العباسي: 136، 178
المعتقد القادري (نسبة للقادر بالله العباسي) = السنة القادرية (نسبة للقادر بالله العباسي)
معجب الزهراني (أكاديمي سعودي): 20، 21
معرض الرياض الدولي للكتاب: 21
معركة شقحب: 23، 140، 141
معركة عين جالوت: 137 - 139
المعطلة: 126، 156
معمر القذافي: 114، 115
معهد الدراسات الإسلامية (في لندن): 61
معهد الدراسات الإسماعيلية: 67
المغاربة الفاطميون: 27
المغرب: 52
المغرب الأقصى: 122
المغرب العربي: 105، 106، 127
المغول: 23، 134، 138 - 141
المفسد: 9
المقريزي (تقي الدين): 114، 115، 135، 180
مكة المكرمة: 21، 40، 90
مكيافيللي (نيوكولا): 37
الملائكة: 89
الملثمون: 117 - 119
الملك الأوحد شادي ابن الملك الزاهر داود: 180
ملك شاه السلجوقي: 36، 37، 38، 39، 40، 48، 58، 59
المماليك: 9، 23، 131 - 192 8، 25، 131 – 188
مملكة الملثمين: 125
منصور بن محمد الكندري (أبو نصر): 148
منصور بن المستعلي أحمد بن المستنصر (الخليفة الفاطمي): 112، 113
المنصور الموحدي: 124، 125
المنطق: 61

المنطق الأرسطي: 72
المنطقة الإسلامية: 20
المنطقة العربية: 20
المهدي محمد بن تومرت الموحدي = ابن تومرت (محمد)
المهاجرون: 188
المهدي المنتظر: 189
مؤرخو المغرب: 107
الموحدون: 9، 86، 105 - 128
موسى (عليه السلام): 162
موسى الفاسي (أبو عمران): 113، 114
موسى الكاظم ابن جعفر الصادق (ع): 50، 51
الموصل: 40، 58، 59
ميثاق الدرعية: 132
ميمون القداح ابن ديصان الثنوي: 97، 98

ن

النار: 71، 72، 73، 74
الناصر بن قلاوون (السلطان) = محمد بن قلاوون (الملك الناصر)
النبوة (عند الباطنية): 54
النبي (ص) = رسول الله (ص)
النجدة (من صفات الخليفة): 98، 99
نجم الدين أيوب (الملك الصالح): 135
النسب القرشي: 95، 96
النشر: 71 - 75
النصارى: 88، 181، 179
نصر حامد أبو زيد: 170
نصير الدين الطوسي: 31، 182
النصيرية: 15، 182، 183
النصيريون: 141
النظام الشيوعي في بلغاريا: 22
النظّام المعتزلي: 91، 92
نظام الملك الطوسي: 24، 35 – 49، 105، 106
النظامية (من المعتزلة): 91، 92
النعمان (قاضي القرامطة): 78، 79، 168، 169
نفاة الصفات = المعطلة
ابن النقاش (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل): 120، 121
النهروان: 85
نور الدين زنكي: 25
النووي: 85
نيسابور: 41، 56، 87
نيوكولا مكيافللي: 37

هـ

أبو هذيل العلاف: 90، 91
هراة: 40
هرغة (عشيرة): 111
أبو هريرة: 121، 162
الهند: 139
هنري لاووست (مستشرق فرنسي): 184
هوبز (توماس): 37
هولاكو: 139

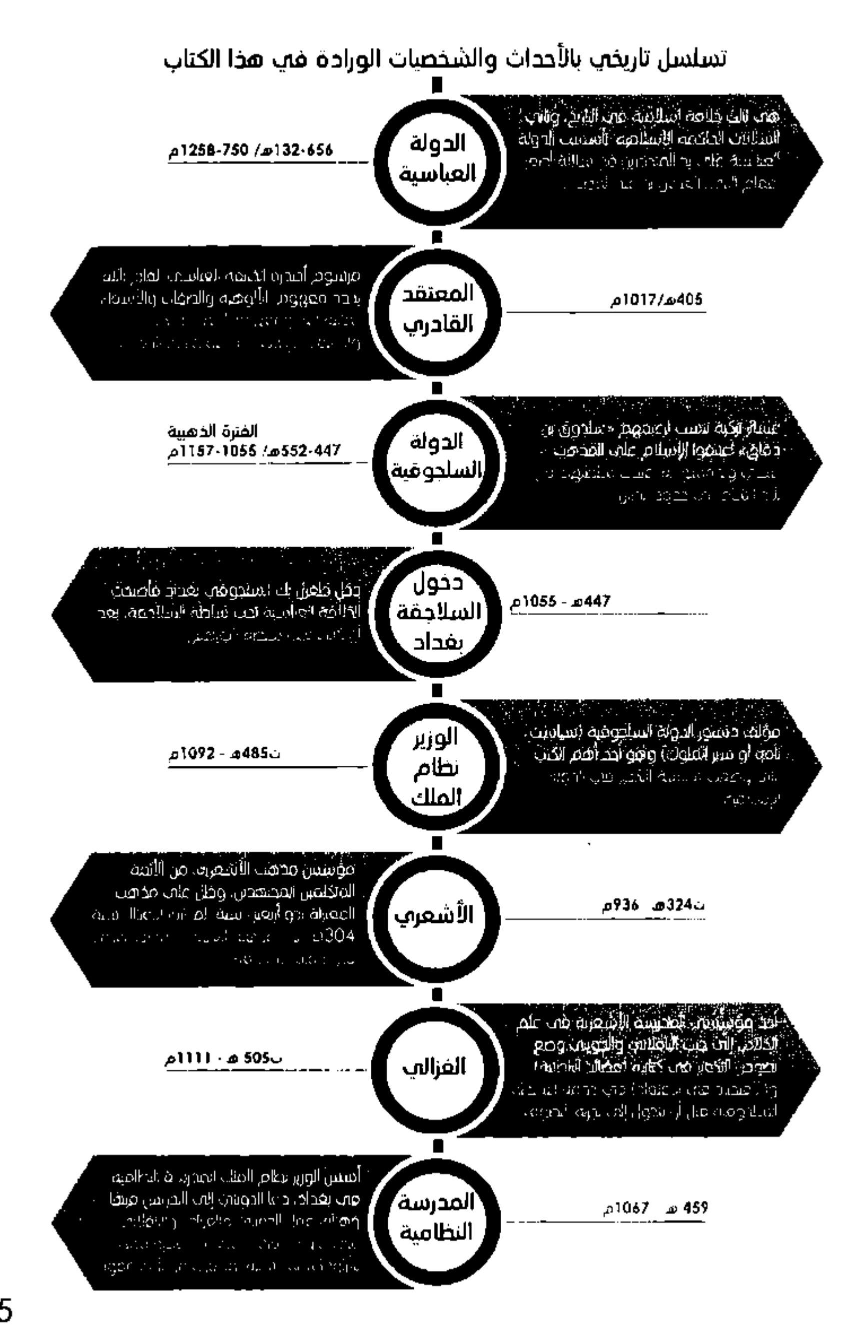
و

الواثق بالله العباسي: 178
وجود الباري سبحانه (عند ابن تومرت): 117، 118
وحدة الوجود: 169

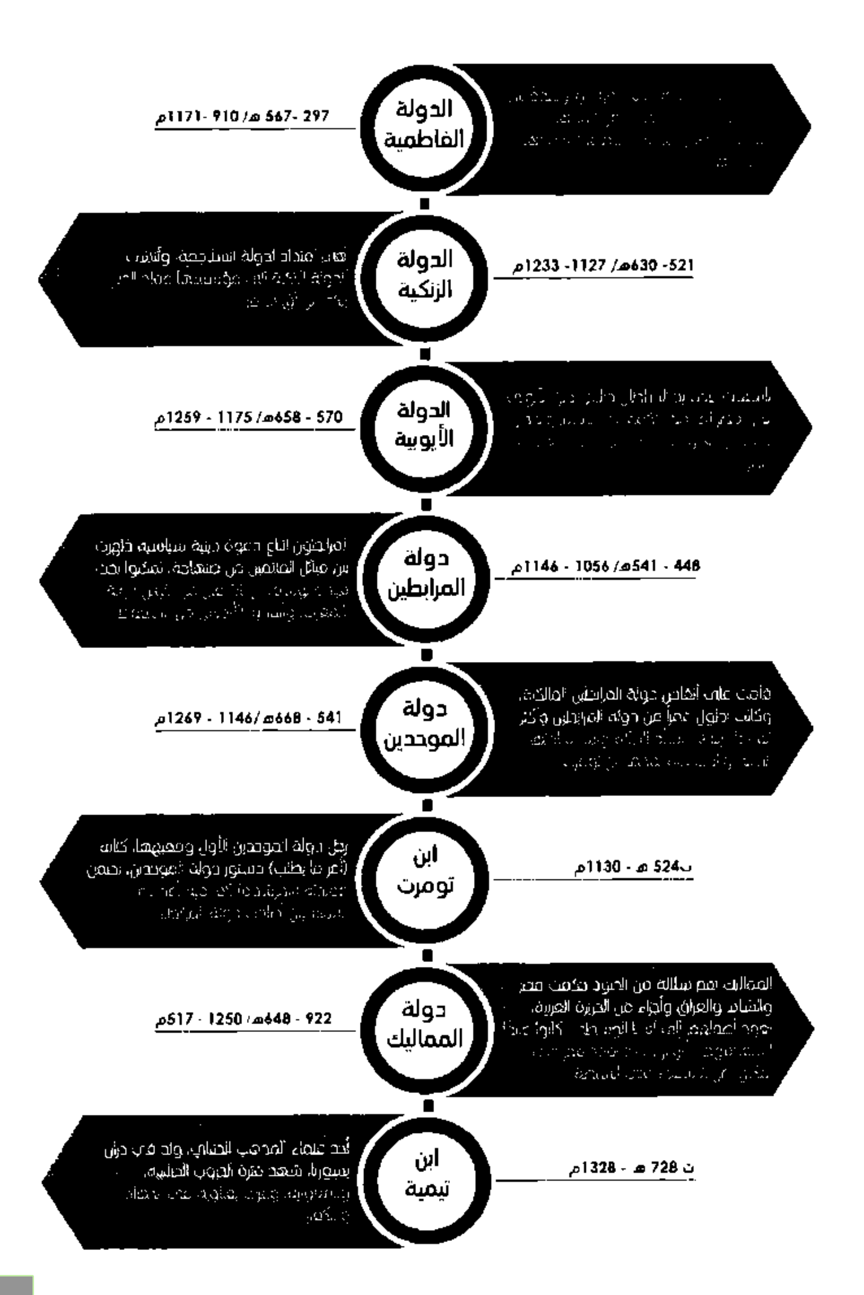
الوحش: 9، 13، 23
الورع (من صفات الخليفة): 100
الوطن (جريدة): 17
أبو الوليد الباجي: 113، 114
وليد نويهض: 107
الوهابية: 143، 144
الوهراني (ابن محرز): 117، 118

ي

ياسين عبد الجواد: 26
يحيى التنسي (أبو زكريا): 120، 121
أبو يعقوب السجستاني: 168، 169
أبو يعلى البيضاوي: 24
أبو يعلى الحنبلي = ابن الفراء
اليمن: 17، 191
اليهود: 88، 97، 118، 153، 191
اليهودية: 61، 152 يوسف بن أيوب (صلاح الدين) = صلاح الدين الأيوبي
يوسف بكار: 36، 44، 48
يوسف بن تاشفين (أمير المرابطين): 111، 112، 113، 125
يوسف زيدان: 130، 131، 132، 153
يوسف بن عبد المؤمن الموحدي (أبو يعقوب): 123، 124
يوسف بن موسى الكلبي المراكشي (أبو الحجاج): 113
اليوسي (أبو الحسن): 114، 115
يوم الجمل: 190



تسلسل تاريخي بالأحداث والشخصيات الورادة في هذا الكتاب
الدولة العباسية
132-656هـ/ 750-1258م
المعتقد القادري
405هـ/1017م
الدولة السلجوقية
الفترة الذهبية
447-552هـ/ 1055-1157م
دخول السلاجقة بغداد
447هـ - 1055م
الوزير نظام الملك
ت485هـ - 1092م
الأشعري
ت324هـ 936م
الغزالي
ت505 هـ - 1111م
المدرسة النظامية
459 هـ 1067م


الدولة الفاطمية
297- 567 هـ/ 910 -1171م
الدولة الزنكية
521- 630هـ/ 1127- 1233م
الدولة الأيوبية
570 - 658هـ/ 1175 - 1259م
دولة المرابطين
448 - 541هـ/ 1056 - 1146م
المرابطون أتباع دعوة دينية سياسية ظهرت
بين قبائل الملثمين من صنهاجة، تمكنوا
دولة الموحدين
541 - 668هـ/ 1146 - 1269م
قامت على أنقاض دولة المرابطين المالكية،
ابن تومرت
ت524 هـ - 1130م
رجل دولة الموحدين الأول ومحييها، كتابه
(أعز ما يطلب) دستور دولة الموحدين
دولة المماليك
922 - 648هـ/ 1250 - 517م
المماليك هم سلالة من الجنود حكمت مصر
والشام والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية،
ابن تيمية
ت 728 هـ - 1328م
أحد علماء المذهب الحنبلي، ولد في حران
بسوريا، شهد فترة الحروب الصليبية،

Unfortunately, many monsters like these are being born in the present, while our future will count them, and our past is like our present and future. Ibn Taymiyyah is still teaching his texts in places of knowledge (schools and universities) in our Muslim World and in places of power, Ibn Taymiyyah is still making alliances, for his books of Fatwas have become a constitution upon which the kings of power, leaders and murderous groups rule.

Our faces are stolen, deformed, cruel and ugly because of this monster to the extent that no plastic surgery or any other surgery will do any good. Public relations companies, no matter how resourceful or legendary, will not be able to beautify our grim faces. This monster must be killed and his deadly tools dismantled.

I treaded the path of monstrous texts in order to dismantle the explosives[1] of this monster that crosses the borders of time and place. During this journey, I heard the voices declaring his Fatwas in the mountains of Keserwan (1303 A.D.), as I heard them loud and clear in Al-Qadih (2015) in the Imam Ali bin Abi Talib Mosque and in Al-Anoud Mosque in Dammam (2015) and the rest are yet to come.

Ali Al-Dairy
Beirut, May 31, 2015

---

(1) The annotator of Ibn Taymiyyah's book: "Iqtida› al-Sirat al-Mustaqim Mukhalafat Ashab al-Jahim", says: "This book is a bomb stronger than any other bomb of truth and right guidance that the Sheikh of Islam threw at the devil's party."

As there is no crime without a criminal and no corruption without a corrupter, there is no monstrosity without a monster. The monster is these texts and the schools that teach them, which legitimizes killing and orders that people be killed without a financial deterrent, historical reading or indisputable proof.

In this book, I attempt to take a historical approach in reading the texts legitimizing Takfir in three political environments: The Seljuk authority (Fifth Hijri Century) through the texts of Al-Ghazali, the Al-Muwahhidun Authority (Sixth Hijri Century) through the texts of Ibn Tumart, the Mamluk Authority (Eighth Hijri Century) through the texts of Ibn Taymiyyah.

Why are we opening the texts of monstrosity in our culture now?

There is a despicable monster stealing our faces, in the name of religion, the Islamic caliphate, Islamic schools and Islamic masters. This monster considers us as enemies that must be killed and taken hostage. He sees these actions as an act of worship similar to any other act of worship, as Takfir (Declaring someone an apostate) is regarded as a religious ritual.

A Muslim philosopher (Abdennour Bidar) gave an accurate answer to this question in a shocking statement with which he addressed the Muslim World: «Open Letter to the Muslim World».

Bidar concluded the letter by saying: "And if you want to know how to not bring forth such monsters, I will tell you. It's simple yet so difficult: You must begin by reforming the entire education you give to your children, in all of your schools, all of your places of knowledge and power. .. For it is only by doing so that you will no longer give birth to such monsters," and when you succeed in fulfilling this huge task, no despicable monster could come and steal your face.

نصوص متوحشة

التكفير من أرثوذكسية السلاجقة
إلى سلفية ابن تيمية

لماذا نفتح نصوص التوحش في تراثنا الآن؟

هناك وحش حقيقي يسرق وجوهنا، باسم الدين والخلافة الإسلامية والمدارس الإسلامية، والأئمة الإسلاميين. يعتبرنا هذا الوحش أعداء يجب قتلهم وسبيهم، وينظر إلى ممارساته هذه كعبادة كما سائر العبادات من حيث كون التكفير شعيرة دينية.


ISBN 978-9953-0-3308-2
9 789953 033082



مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION